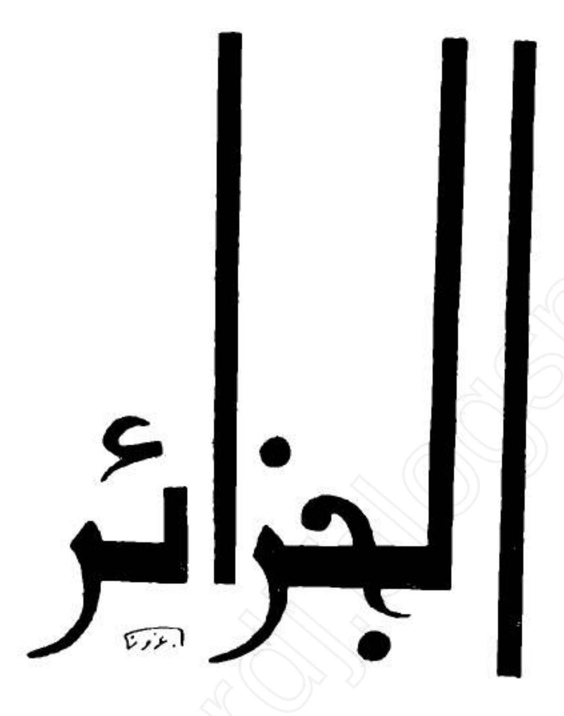
عبد الله شريط   محمد الميلي



https://albordj.blogspot.com

عبد الله شريط   محمد الميلي



في مرآة التاريخ

طبع ونشر
مكتبة البعث
٢، نهج لاكونكورد قسنطينة

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى

ماي ١٩٦٥

مـــقـــدمـــة

لقدم هذا المجهود المتواضع إلى القراء الكرام ونحن نشعر بشيء من الحرج ؛ فمن ناحية كنا مدفوعين بالاحساس بالفراغ الهائل الذي يشعر به كل جزائري لايجد في المكتبة أثرا من الآثار الشاملة التي تعكس له تاريخ بلاده بوضوح وأصالة وتجرد ؛ ومن ناحية أخرى كنا متهيبين أمام عظمة هذا التاريخ الجبار المليىء بالصعاب والعقبات والذي لم يزح أحد عقباته بصورة جدية تسهل على متناوله أن يسير في طريقه مطمئنا سليما .

لذلك نود أن نلاحظ لقرائنا الاختصاصيين في التاريخ أن يتجاوزوا عما يمكن أن يجدوه في هذا المجهود من نقص ، فاننا في الواقع لم نكتبه للدارسين المتعمقين الباحثين عن الجديد ، وإنما كتبناه لنسد به فراغاً مستعجلاً لايمكن أن تعانيه الجزائر مدة اطول . كتبناه لجمهور القراء ممن يحملون ثقافة عامةأو متوسطة ، ولجمهور المعلمين والطلاب لنعطيهم في حدود إمكانياتنا صورة نرجو ان تكون واضحة عن تاريخ بلادهم القديم والحديث ، والسياسى والاجتماعى .

ذلك بأننا حرصنا على أن لانجعل من هذا التاريخ مجرد سرد للحوادث التاريخية السياسية وحياة الملوك والامراء ، وإنما ركزنا جهدنا على تحليل الحوادث والبحث عن أسبابها ، ووسعنا نظرتنا إلى حياة الشعب أكثر من حياة الاشخاص، واهتممنا بالحياة الاجتماعية بقدر مااعتنينا بالحياة السياسية وحاولنا أن نبرز شخصية الجزائر المتميزة عبر القرون في مختلف الميادين ونسجل وحدة خطوطها وملامحها سواء في تاريخها القديم او الحديث .

وإذا اشرنا إلى العقبات فانها فعلاً كانت عديدة ، ولكن اهمها هو ان المصادر العربية القديمة التي رجعنا اليها هي في اغلبها لم تكتب بطريقة علمية منظمة مما استدعى قراءة وبحثا يستنفدان كثيرا من الجهد والوقت .

والنوع الثاني من المصادر اجنبية كتب اكثرها لغاية سياسية تسميمية تقصد إلى تشويه شخصيتنا وبتر ماضينا وقتل عبقرية شعبنا . وكتب اقلها بروح متجردة تحررية ولكن اصحابها ـ مع اعترافنا لجهدهم المشكور ـ تنقصهم النظرة الاصلية لطبيعة مشاكلنا وعاداتنا ونظمنا الاجتماعية وتقاليدنا فلم يهتدوا إلى تفسير الكثير منها تفسيرا صحيحا سليما. فكان لابد من غربلتها جميعا واخذ الحيطة من الاخطاء التي وقعت فيها الفئة الثانية عن حسن قصد، بقدر الحيطة من دسائس الفئة الاولى التي دبرتها عن نية معينة وخطة مدروسة

إننا لا ندعي ان هذا الاثر قد استكمل عدته وتجاوز نقائص غيره من الآثار البشرية . ولكننا مصممون على تسديد ثغراته شيئا فشيئا كلما تكررت طبعاته ، معتمدين في ذلك على ما عسى ان يمدنا به القراء من ملاحظات ونقد وتنبيه إلى هذا الخطا او ذاك ، او هذه الفكرة او تلك . او تزويدنا بمصادر مفيدة لاننا مقتنعون بأن ثورتنا التاريخية ـ سواء في الميدان الاجتماعي والسياسي او في الميدان الثقافي ـ لم تدرس بعد دراسة وافية ، ومقتنعون ايضا بانه بالرغم من الحروب الاستعمارية التي عانتها بلادنا منذ قرن ونصف والتي اتت على كثير من المصادر المفيدة ، فان المكتبات الخاصة عند بعض العائلات التي لها ماض ثقافي ما تزال تحوي مصادر وكتبا لاتعرف الاجيال الحاضرة قيمتها . ولعلها ستتفطن لقيمتها بقدر ما تنتشر الثقافة الوطنية في بلادنا ويعم التعليم سائر ارجاء الوطن .

ثم إننا على يقين من ان الاجيال الصاعدة ستلتفت يوما إلى تراثنا التفاتة جدية وتعمل على إعادة بناء ماضينا على اسس علمية سليمة ، وان هذا المجهود الذى نقدمه نحن اليوم لن يكون عندئذ إلا لبنة صغيرة في ذلك البناء الجميل .

إن تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي اثقل وطأة من ان تنهض به جهود فرد او فردين مهما كانت عزيمتهما صادقة ـ لذلك شعرنا ـ بعد فراغنا من كتابته ـ ان تاريخ الجزائر بعظمته وتفاصيله وتعقيداته ومنعرجاته هوا عظم مما اضطررنا نحن لابرازه في وقت قصير وبامكانيات ضئيلة .

ولقد قسمنا الكتاب إلى ستة اقسام واضحة بارزة تسهيلاً للقارئ لكي يلم بالمراحل الرئيسية التي قطعتها بلادنا :

اولا : الجزائر القديمة وما تعرضت له مع جيرانها في حوض البحر الابيض المتوسط من غزو روماني وبيزنطي ووندالي ، وكيف برزت قوة الشعب الجزائري الخالدة في مقاومة هذا الغزو المتكرر ولم تستسلم له في يوم من الايام او جيل من الاجيال . وكيف حاول ابطالها من امثال ماسينيسا ويوغرطا ان لا يكتفوا برد الغزو والمحافظة على استقلال الوطن ، بل وان يكونوا اسس دولة حقيقية ناهضة .

ثانيا : الحكم المركزي الاسلامي او الجزائر الاسلامية التي يعتبر الفتح العربي بالنسبة إليها - كما بالنسبة لشعوب منطقة الشرق الاوسط وشمال افريقيا - عملية تحرير شاملة : تحرير لم يعنهم على التخلص من السيطرة الاجنبية فحسب ، بل اعانهم كذلك وبالخصوص على التحرر الذهني والعقائدي ، ورفع من مستواهم الفكري وفتح لهم آفاقا عالمية ظهرت فيها عبقريتهم البناءة .

ثالثا : مرحلة الحكم اللامركزي الذي اخذت فيه الجزائر وبقية شعوب المغرب العربي استقلالها عن الحكومة المركزية في المشرق ، وبنت دولاً ناهضة برزت فيها شخصية الدولة الجزائرية الزاهرة بملامحها الخاصة مستعينة بروح التحرر الاسلامية الثورية .

رابعا : مرحلة الانحطاط وتفكك الوحدة على مستوى المغرب العربي ، وظهور دويلات عديدة قضى تنازعها على كيان الدولة ، مما اوجد شغورا في السلطة السياسية مهد الطريق للحكم التركي .

خامسا : مرحلة الجمود تحت الحكم التركي الذي كان من ناحية عهد تنظيم توحدت خلاله الجزائر داخل حدود واضحة ، كما كان عهد مناعة من الغزو الاوروبي في الخارج، إلا انه كان من ناحية اخرى عهد تحجر وجمود في الحياة الثقافية . كما كان حكما سطحيا قام على طبقة عسكرية متميزة لم تكن تستمد نفوذها وقوتها من الشعب .

سادسا : عهد الاحتلال الفرنسي وما حققه فيه الشعب الجزائري من مقاومة كان فيها وحده يصارع فرنسا التي كانت قوتها العسكرية في القرن

التاسع عشر اضخم قوة عالمية مرهوبة، فدعمت تلك المقاومة وحدته الشعبية وابرزت خصاله النضالية النادرة . ثم تحول من المعركة المسلحة إلى المعركة السياسية بعد الحرب العالمية الاولى ، تلك المعركة السياسية التي تطورت بعد نضجها واستكمال شروطها عام ١٩٥٤ إلى الثورة المسلحة الخالدة التى حقق بها الاستقلال الوطنى .

هذه هي المراحل التى قسمنا لها تاريخ الجزائر، مع شحنها بما وجدنا إليه سبيلاً من معلومات عن الحياة الاجتماعية التى احتلت في كتابنا المرتبة الاولى ، لان الشعب في الجزائر كان دائما هو المسيطر على الاحداث .

ونرجو في النهاية ان يحقق به الله ما نرجوه من نفع لجمهورنا واجيالنا الصاعدة التى كنا نفكر فيها قبل غيرها ونحن نكتب هذا التاريخ ، آملين ان تجد فيه تلك الأجيال ما يشرف حاضرها ويعينها على بناء مستقبلها وتخلصها من كل المركبات التى تعانيها .

والله يوفقنا ويسدد خطانا .

المؤلفان

القسم الأول

الجزائر قبل الإسلام

- هذه هي الجزائر
- الجزائر القديمة
- توحيد نوميديا
- الاحتلال الروماني ومقاومة يوغرطا
- الثورات الشعبية
- الاحتلال الوندالي والبيزنطي والمقاومة الشعبية

هذه هي الجزائر

الجزائر اسم لمدينة هامة هى عاصمتنا الحالية الآن التى تقع على البحر الابيض المتوسط . ولم يسم بها الوطن الجزائرى الا فى العهد التركى عندما اتخذت السلطة التركية مدينة الجزائر قاعدة لحكومتها .

كان قدماء اليونان يطلقون اسم ليبيا على افريقيا الشمالية ، ثم أصبح الجغرافيون اليونانيون واللاتينيون يقسمون الوطن الى ثلاثة اقسام :

١ ــ مصيصيليا وهو يشمل سهول سطيف وبرج بوعريريج وتل عمالتى الجزائر ووهران سابقا الى وادى ملوية غربا .

٢ ــ مصيليا ، وهو باقى عمالة قسنطينة سابقا وغرب تونس الى طبرقة.

ثم صارت مصيصيليا تعرف باسم موريطانيا الشرقية ، ومصيليا بنوميديا.

٣ ــ جيتولية ، وهو يشمل صحراء موريطانيا ونوميديا .

وبعد ذلك اطلق العرب على شمال افريقيا اسم المغرب ، الذى جعلوه يشمل ما بين برقة شرقا والمحيط الاطلسى غربا ، والبحر الابيض المتوسط شمالا ، والصحراء الكبرى جنوبا .

وكانوا يطلقون اسم المغرب الادنى على ما بين برقة شرقا وبجاية غربا .

والمغرب الاوسط يشمل ما بين بجاية شرقا ووادى ملوية غربا .

والمغرب الاقصى هو ما بين وادى ملوية شرقا والمحيط الاطلسى غربا .

ويبلغ معدل ارتفاع الاراضى الجزائرية تسعمائة متر (٩٠٠ م) وهذا المعدل ليس ناتجا عن وجود جبال مرتفعة جدا ، فأعلى جبل بالجزائر ، وهو جبل الشلية فى الاوراس ، لا يبلغ سوى ٢٣٢٨ مترا ، ومعنى ذلك أن السهول الجزائرية مرتفعة مثل سهل افلو (١٤٢٦ م) وسهول سطيف التى تبلغ (١٠٧٤ م) .

وتجدر الاشارة فى هذا الصدد الى أن الجزائر المتحصنة بالبحر شمالا وبالصحراء الكبرى جنوبا ، كانت ممتنعة بحيث لا يمكن النفاذ اليها الا عن طريق جارتيها ، وهذا ما يفسر كون كل موجات الاحتلال التى تسربت الى الجزائر ، استعملت احد هذين الطريقين باستثناء الاحتلال الفرنسى الــذى شذ عن هذه القاعدة بتسربه من البحر .

والنتيجة العملية الاولى التى ترتبت عن هذا الوضـــــع هى الاستعداد الطبيعى لتحقيق وحدة المغرب العربى ، والتفتح للابعاد الافريقية ، اذ أن الصحراء فى نفس الوقت الذى كانت تمثل فيه حصنا يرد عن الجــــزائر الهجومات العدوانية ، كانت أداة وصل تربط بين الجزائر وبين بقية القارة الافريقية بعلاقات سلمية . والنتيجة الثانية التى ترتبت عن ذلك الوضـــع هى احتفاظ الجزائر بشخصيتها وصمودها فى وجه عملية الانجــــــراف التاريخى .

ان التنظيم والتناسق الموجود بين وضع الجبال والسهول والنجود ــ وهو تناسق يظهر عندما نلقى نظرة عامة على الخريطة الطبيعية للجزائر ــ يشكل مميزا من مميزات الجزائر .

فاذا استثنينا الصحراء الكبرى نجد وضعا متناسقا بين المناطق الواقعة على شاطىء البحر ، وبين السهول المحاذية لها ، وبين النجود والاطلس الصحراوى ، وفى نفس الوقت الذى يشكل فيه هذا الوضع الطبيعى مميزا خاصا ، نجد داخله تنوعا يزيد فى قيمة الجزائر الطبيعية ويقسم الجزائر الى غربية وشرقية ، وهذا التقسيم يزيد فى خصوبة الوحدة الجزائرية التى تحققت عبر التاريخ .

واذا نظرنا الى المناخ نجد نفس التنوع ، فالمنطقة التلية تشبه مناطق حوض البحر الابيض المتوسط فى رطوبتها ومنطقة الاطلس النصف جافة فالمنطقة الاولى تتلقى خلال السنة الزراعية التى تمتد من اكتوبر الى ماى ما (بين ٣٠٠ و ٣٥٠ ملليمتر من الماء) . وفى هذه المنطقة غالبا ما يكون الصيف معتدلا ، فنادرا ما تتجاوز الحرارة على الشواطىء ٢٥ فى الصيف ، كما أن الشتاء غالبا ما يكون عذبا .

وعلى قدر ما يتوغل المرء فى المنطقة الثانية ، على قدر ما يبتعد عن اعتدال الجو ، اذ ترتفع بها الحرارة فى الصيف ارتفاعا بالغا ، بينما تغمرها الثلوج فى الشتاء .

الامكانيات الطبيعية :

عندما نتعرض لامكانيات الجزائر الطبيعية نجد مناخها يطرح أمامنـــا مشكل الماء ، لان عدم انتظام الامطار يجعل الفلاحين متخوفين دائما عـــلى محاصيلهم الزراعية ، خصوصا وان سياسة الاسكان الاوروبى فى عهــــد الاستعمار الفرنسى ادت الى القضاء على مساحات شاسعة من الغابات ، مما جعل الجزائر تواجه مشكل الانجراف فى اخطر مظاهره ، فالمعمرون فى حرصهم على امتلاك اوسع مساحات ممكنة كانوا يقتطعون الاشجار التى

تشكل الغابات ، كما كانوا يدفعون الجزائريين بعيدا عن الاراضى الخصبة الى المناطق الجبلية ، فيكون الاستعمار قد حارب الغابة الجزائرية بوسيلتين: بالقضاء المباشر على الغابات ، وبحمل الجزائريين على زراعة الجبال بعد القضاء على غاباتها . والمشكلة التى يطرحها الماء والانجراف فى آن واحد يمكن حلها بواسطة التشجير وبناء السدود ، وقد استشعر الاروبيون فداحة المسؤولية التى يحملهم اياها التاريخ من هذه الناحية ، فحاولوا أن ينسبوا الى الجزائريين القضاء على الغابات ، وأشاعوا شعارا مزيفا يقول : «العربى عدو الشجرة» ، فى حين أنه ليس مثل الفلاح الجزائرى تعلقا بالشجرة وتقديسا لها .

لهذا يجب أن يهدف التشجير فى الجزائر المستقلة الى اعادة الغابة الجزائرية الى سالف عهدها ، كما يجب أن يتم فى نطاق مخطط علمى يضمن الزيادة فى حجم واهمية الموارد المستخرجة من الغابات الجزائرية مثل الفرنان .

اما موارد الطاقة الصناعية فالجزائر غنية بها ، فجهة كولمب بشار تشتمل على الفحم الحجرى ، كما تشتمل الصحراء على البترول والغاز الطبيعى ، بكميات تسد حاجات الجزائر الحالية لعدة قرون .

وهذه الثروة الهامة من الطاقة الصناعية تفتح أمام الجزائر امكانية استغلال مواردها المعدنية المختلفة بنفسها ، واقامة صناعات هامة مثل صناعة الصلب والصناعات الكيميائية ومختلف الصناعات التحويلية ، بحيث يمكن القول بأن الجزائر تملك وسائل تحقيق الاستقلال الاقتصادى .

الجزائر القديمة

• تشتمل الجزائر ، كما يدل على ذلك الاكتشاف الذى عثر عليه فى عين حنش ، قرب العلمة ، بعمالة سطيف على آثار تعد من اقدم الآثار الدالة على الحياة البشرية ، فقد عثر هناك على حجارة منحوتة بكيفية خشنة تدل على ان تلك الجهة كانت آهلة فى بداية العصر الحجرى الاخير الذى يمتد من ستة آلاف سنة الى ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد . ويقول الاستاذ «بالو» الذى اشتغل بدراسة عصور ما قبل التاريخ فى الشمال الافريقى ، ان الشواطىء الجزائرية كانت آهلة منذ العصر الحجرى الاول .

وحوالى ٨٠٠٠ قبل الميلاد ظهرت فى الجزائر مظاهر الحضارة القفصية وحوالى ٣٠٠٠ ق.م. برزت المظاهر الاولى لنشاط العصر الحجرى الاخير من زراعة الاراضى وتربية الحيوانات وصناعة الاوانى من الطين . ولم يتمكن الباحثون فى عصور ما قبل التاريخ من معرفة الحلقة التى تربط بين انسان الحضارة القفصية والجنس البربرى ، بحيث تساءلوا : هل الجنس البربرى متولد عن القفصيين ، أم أنه أتى من المشرق كما يشعر بذلك اكتشاف كتابات ليبية ، هى رموز اللغة البربرية القديمة فى منطقة سينا ودلتا النيل ، وتجدر الاشارة فى هذا المجال الى أن اللهجة البربرية تظهر اليوم ابتداء من واحة سيوة فى مصر الغربية .

ومهما يكن من شىء ، فان الرأى الذى يقول به الباحثون فى عصور ماقبل التاريخ يتمثل فى ملاحظة تغييرات هامة جدا وقعت خلال الالف سنة الاخيرة قبل ميلاد المسيح ، وفى ترجيح أن تكون تلك التغييرات متولدة فى آن واحد عن تطور داخلى للعادات وأساليب المعاش ، وعن تأثير الحضارة المصرية القديمة ، وعن مجىء أناس من المشرق لا يختلف جنسهم كثيرا عن الجنس الاصلى الذى كان موجودا بالجزائر حينذاك .

والخلاصة ان الجنس البربرى كان منذ بداية العصور التاريخية ، هو الجنس الذى ينتمى اليه سكان افريقيا الشمالية . ويستشهد بعض الباحثين على كون الجنس البربرى متولدا عن تزاوج وتلاقح عدة أجناس ، بوجودعدة نماذج بربرية ، كنموذج البربرى الاسمر ذى الوجه القصير والمستدير ، ونموذج البربرى الطويل القامة ، الازرق العينين ، الاشقر الشعر ، ولكن ليس له أدنى اتصال بالجنس الجرمانى فى أوربا ، خلافا لما يدعيه بعض الاستعماريين .

ويلاحظ المؤرخون أن البربر ، مع هذا التنوع في نماذجهم ، يملكون خصائص مشتركة واضحة ، تتمثل في اللهجات التي تنتمي الى عائلة وقواعد واحدة رغم اختلافها أحيانا ، وأقرب الاحتمالات الى الصحة فيما يتعلق باللهجة البربرية ، تنسب هذه اللغة التي لم تعد اليوم مكتوبة الى اللغات الحامية مثل اللغة المصرية القديمة ولغات الشمال الشرقي لإفريقيا، وقد وقع العثور على اكتشافات تحمل الكتابة البربرية القديمة ، وهي تشبه كتابة «التوارق» وتؤكد انتماء الكتابتين الى أصل واحد ، ولكن لم يتمكن الباحثون من فك رموز تلك الكتابة .

وكانت حروف اللغة البربرية تمثل رسوما على شكل الشمس والهلال والبرق . وكان الخط البربري يتركب من عشرة حروف يسمونها «تيفيناغ» ، ومعنى هذه الكلمة ، الحروف المنزلة من عند الاله . أما الاشكال فهي خمسة ويسمونها «تيسد باكين» ومعناه الدليل على العمل والتوسع ، وكانوا يعتقدون أنها من وضع البشر .

وهذه صورة حروف تيفيناغ القديمة مفسرة بما يوافقها أو يقاربها من الحروف العربية :

ن ل م ر س

د ب ي ت ج

المعتقد :

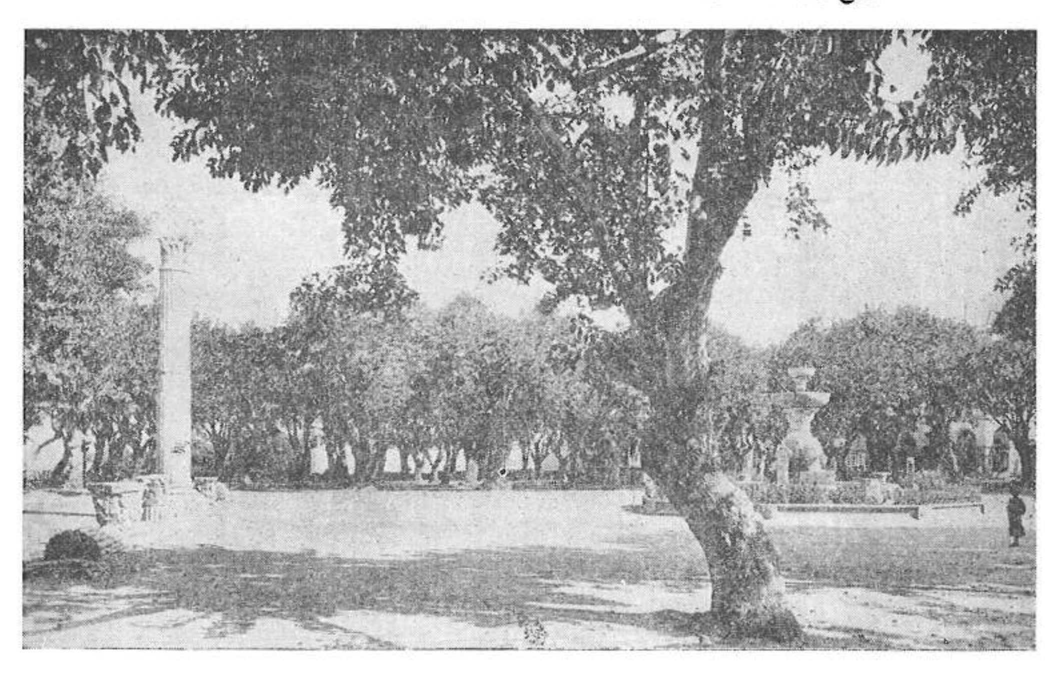
كان قدماء الجزائر ، قبل ظهور الجنس البربري يعبدون الشمس والقمر كما يعبدون بعض الحيوانات مثل الثور والكبش والتيس ، وقد وجد في جبل بني راشد تمثال يدعى «أتون» كانوا يتخذونه الها وهو على صورة تيس يحمل على راسه دائرة الشمس — وكانوا يقدسون العيون والاشجار والجبل .

أما قدماء البربر فقد كانوا يؤمنون بوجود اله يسمونه «عمون» ويرون أنه ليس له وجود مستقل ، وأنه عبارة عن روح تحل ببعض الكائنات مثل الشمس والقمر والرعد والبرق .

الحضـــارة :

كانت مدنيات قدماء الجزائر ذات أقسام ثلاثة :

١ ـ مدنية محلية لاتشبه مدنيات الامم المجاورة لها ، ومن ذلك مدنية أطلق عليها اسم «الصناعة الجيتولية» وآثارها تبتدىء من قابس شرقا وتذهب جنوبا الى جهات قفصة ، وتنتهى غربا بنواحى سطيف . ومنها مدنية أطلق عليها اسم «الحضارة الصحراوية» وآثارها قائمة الى اليوم بوادى ريغ ووادى ميزاب .



شـرشـال

٢ ـ مدنية تشبه مدنية قدماء مصر وشمال افريقيا الشرقى، كما تدل على ذلك الآثار التى اكتشفت فى بلاد التوارق .

٣ ـ مدنية تشبه مدنية جنوب أوربا والاندلس المجاورة لها غربا .
أما الآثار التى ترجع الى العهد البربرى فمنها آثار نحاسية اكتشفت بضواحى مدينة «قيصرية» (شرشال) وأخرى بضواحى مدينة «أقسيوم»

(الجزائر) ووجدت صفائح نحاسية بمنزل فى مغارة قرب مدينة «صلداى» (بجـــاية) ./.

ويختلف نظام الحياة البربرية بين الرحل الذين ينتقلون مع مواقع الكلأ والعشب ، وبين أهل القرى والمدن الذين يستقرون فى مكان واحد .

وقد اسس البربر مدنا عديدة ، منها ما عفي عليه التاريخ ، ومنها ما يزال موقـعـه قائما •

وتدل اكتشاف الآلات والاسلحة بكثرة على أن سكان الجزائر القــدامى عرفوا الحياة الاجتماعية منذ عهد سحيق .

فكانت الاسرة هى الخلية الاساسية للمجتمع البربرى ، والسلطة فيهـــا للأب ، وكانت فى بعض الاوساط تنسب للأم ، ثم تطور المجتمع البربرى تحت ضغط متطلبات التنقل ــ بالنسبة للرحل ــ ومتطلبات الزراعة ــ بالنسبة لاهل المدن والقرى ــ الى تكوين تجمعات أوسع من العائلة ، فالبدو الرحل اضطروا الى التجمع من اجل الاحتفاظ بمواقع الكلأ والعشب اللازملحيواناتهم والفلاحون المستقرون بنوا القرى والمدن ليتمكنوا من رد الغـــارات ، ثم تطورت هذه القرى الى أن شكلت جمهوريات صغيرة تخضع لسلطة جماعية. لكن يحدث زمن الحرب أن يبرز قائد يحاول أن تكون له الكلمة العليا عــلى القبيلة أو العشيرة او عدة عشائر ، فيصبح أميرا . ويرجع تكوين الامارات الى زمن سابق على تكوين الممالك البربرية التى يروى التاريخ أخبارها والتى ظهرت على الاخص فى الحروب بين قرطاجنة وروما .

ويلاحظ غير واحد من المؤرخين الغربيين أن التنظيم الاجتماعى البربرى لم يكن يختلف اختلافا أساسيا عن التنظيم الاجتماعى العربى ، كما تدل على ذلك المقارنة بين عقلية «الصف» في المجتمع البربري ، وعقلية «العصبية» عند عرب الجاهلية .

تاسيس قرطاجنة والحروب البونيقية

يبدو ان الفينيقيين وصلوا الى شواطىء المحيط الاطلسى منذ القـــرون الاخيرة للالف الثانية قبل الميلاد (٢٠٠٠ ق٠م) .

وكان الفنيقيون امة بحرية ، دفعتها الحاجة الاقتصادية الى ارتياد البحار لتجلب عن طريقها ذهب السودان وفضة الاندلس . لكن المسافة التى تفصل بين فنيقيا ــ موقع لبنان الحالى ــ وبين هذين البلدين مسافة طويلة عبـــر البحر ، مما اضطر معه الفنيقيون الى تأسيس مراكز تموين فى الطـــريق يقفون عندها للاستراحة والتمون واصلاح السفن ، ثم تطورت هذه المراكز

الى اسواق تجارية ، اسسوا لها عدة مراكز مثل «حضرموت» (سوسة) و «عوتيقة» (بوشاطر) وهما بتونس، ومثل «هيبون» (بونة) و «اجلجلى» (جيجل) و «صلداى» (بجاية) .

تأسيس قرطاجنة :

بعد سقوط صيدا بلبنان اصبحت صور — العاصمة الثانية للفنيقيين — على درجة عظيمة من العمران . وفى هذا العهد لم تكن مدينة قرطاجنة الا محطة من محطات الفنيقيين فى رحلاتهم . حتى اذا ثار الشعب فى مدينة صور على طبقة الاعيان فر هؤلاء الى ليبيا واستقروا بقرطاجنة التى تطورت بسرعة واصبحت تضاهى كبريات عواصم العالم ، وبلغت أوج عزها فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان سكانها يدعون البونيقيين .

وقد كانت قرطاجنة تختلف عن فينيقيا فى اغراضها التوسعية ، فبينما كان الفنيقيون يكتفون بنوع من الاستعمار الاقتصادى الذى لا يقوم على القوة الحربية ، كان البونيقيون يفكرون فى توسيع نطاق سلطانهم بالقوة ولعلهم استخلصوا فى ذلك العبرة من سقوط وطنهم الاصلى وعدم استطاعته الوقوف فى وجه الاطماع اليونانية .

ولئن استطاعت قرطاجنة أن تبسط نفوذها على جزيرة كورسيكا ، فانها لم تتمكن من احتلال كامل جزيرة صقلية ، فاكتفت باحتلال المنطقة الغربية منها . وقد أدت محاولة استعمار صقلية الى اصطدام حربى كبير بين قرطاجنة واليونان انتهى بهزيمة البونيقيين فى ٤٨٠ ق.م .

وتمثل هذه الهزيمة منعرجا حاسما فى سياسة قرطاجنة التوسعية ، فقد تخلت عن مشاريعها فى استعمار جزر الضفة الاوربية من حوض البحر الابيض المتوسط ، خصوصا وان محاولات أخرى بعد هذه الهزيمة اسفرت كلها عن هزيمة قرطاجنة .

حينذاك استدار البونيقيون الى افريقيا ، لكنهم لم يتجاوزوا السواحل الجزائرية الى الداخل الا فى الجهة الشرقية حيث بلغوا «تغاست» (سوق هراس) ومدوروس (مدوروش) وتيفيست (تبسة) ومن المحقق ان قرطاجنة لم تدخل تبسة الا سنة ٢٥٠ ق.م. ولم تبق بها الا خمسين سنة ولا يعلم تاريخ زوال السيادة القرطاجنية عن نوميديا بالضبط ولكن المحقق ان مدوروس كانت فى أواخر القرن الثالث ق.م. تحت تصرف صيفاقس البربرى ، ولم تأت سنة ١٤٩ ق.م حتى لم تبق لقرطاجنة يد على نوميديا ، ودخلت المدن الفنيقية بتلك الجهة فى حوزة ملوك البربر...

المغرب العربي
التوزيع السنوي للأمطار

الحروب البونيقية :

الحروب البونيقية هى التى وقعت بين روما وقرطاجنة ولم يقع منهـــــا بالجزائر الحالية الا قليل ، لكنها لعبت دورا هاما فى التمهيد للاحتـــــــلال الرومانى للجزائر ، لذلك سنعرض لها بايجاز .

يقسم المؤرخون الحروب البونيقية الى اولى وثانية وثالثة .

فالحروب البونيقية الاولى :

حدثت بين ٢٦٤ و ٢٤١ ق.م ، وكان ميدانها هو صقلية . وقد كانت قرطاجنة تملك اسطولا بحريا قويا جعل روما التى تملك جيشا بريا أقوى من جيش قرطاجنة . تصطدم بصعوبة اساسية . ولم تجد القيادة الرومانية بدا من أن تغامر باعداد سفن حربية على شكل سفينة قرطاجنية كانت عـــــلى شواطىء صقلية ، ونجحت المغامرة ، وانهزمت قرطاجنة ، فطلبت الصلح وتنازلت لروما عن صقلية .

الحرب البونيقية الثانية :

ابتدأت من عام ٢١٨ الى ٢٠٣ قبل الميلاد ، وكانت قرطاجنة قد استعادت خلال هذه المدة بعض قوتها ، اذ تمكن قائدها هملكار من تأسيس قـــاعدة حربية قوية فى اسبانيا . وعندما مات هملكار ، خلفه ابنه حنبعل الذى هزته نشوة الانتصارات التى أحرزها فى اسبانيا ، فاستفز الرومان بمهاجمـــة مدينة اسبانية كانت تحت حمايتهم ، وعادت الحرب مع روما ، وقرر حنبعل نقل الحرب الى روما ، فاخترق جبال الالب ، وأحرز على انتصارات هـــامة ضد جيش روما ، لكن حنبعل لم يستغل فرصة انتصاراته تلك فى الميـــدان للقضاء على نظام روما ، ولعله كان يأمل فى حملها على الصلح ، وكان خطأ فادحا دفع حنبعل ثمنه غاليا .

ذلك أن «سيبيون الافريقى» الذى انتخب قنصلا خلال هذه الفترة قرر نقل الحرب الى افريقيا ، فارتاعت قرطاجنة واستنجدت بحنبعل الذى استجاب نداءها ، والتقى الجيشان فى زاما من تراب تونس ، وكانت الهزيمة من نصيب البونيقيين واضطرت قرطاجنة مرة اخرى الى النزول عند شروط روما التى من بينها تسليم الاسطول البحرى .

الحروب البونيقية الثالثة :

أما الحرب البونيقية الثالثة فقد حدثت بين سنة ١٤٩ و ١٤٦ ق.م وتعتبر هى أهم الحروب لأن العوامل التى حركتها تختلف عن العوامل التي حركت الحربين قبلها .

فبعد الصلح السابق قامت فى قرطاجنة ثلاثة أحزاب : حزب تجارى مالى تهمه السلم قبل كل شيء من أجل ضمان ازدهار الصفقات التجارية التى تهم أحفاد الفنيقيين فى الدرجة الاولى . وحزب اســــــتعمارى قومى يدعو الى التمكين للسيادة القرطاجنية بالجيش والحرب الى أن تتمكن قرطاجنة من تحقيق نواياها التوسعية بكل حرية . والحزب الثالث حزب وطنى بربرى غرضه الاحتماء من روما بالتفاهم مع مصينيصا والتسليم بمطالبه التى تهدف الى تحقيق وحدة الشمال الافريقي فى ظل السيادة البربرية الخالصة من كل تسرب أجنبى .

فى هذه الاثناء كان مصينيصا يزعج قرطاجنة باستمرار، وينتزع منها فى كل معركة مساحات جديدة من الارض فشكت قرطاجنة مصينيصا الى رومـــا باعتبارها حليفته . ولم تتدخل روما فى أول الامر على أساس أن المعـــارك الجزئية التى يخوضها ماصينيصا ضد قرطاجنة ستقضى فى نهاية الامر على قرطاجنة وتجعلها تقع فريسة سهلة فى يد روما .

لكن تكرر الشكوى أثار مخاوف روما من تطور قوة مصينصا ، لان روما كانت تعتبر الحرب مع قرطاجنة مرحلة من مراحــل توسعها فى الشمـــال الافريقى فتخوفت من أن تتطور قوة ماصينصا الى درجة يتمكن معها مـــن سحق قرطاجنة ، وحينذاك لاتستطيع روما أن تحقق مشاريعها التوسعية، لانها تعرف أن ماصينصا ليس بالرجل الذي يساوم على وطنه .

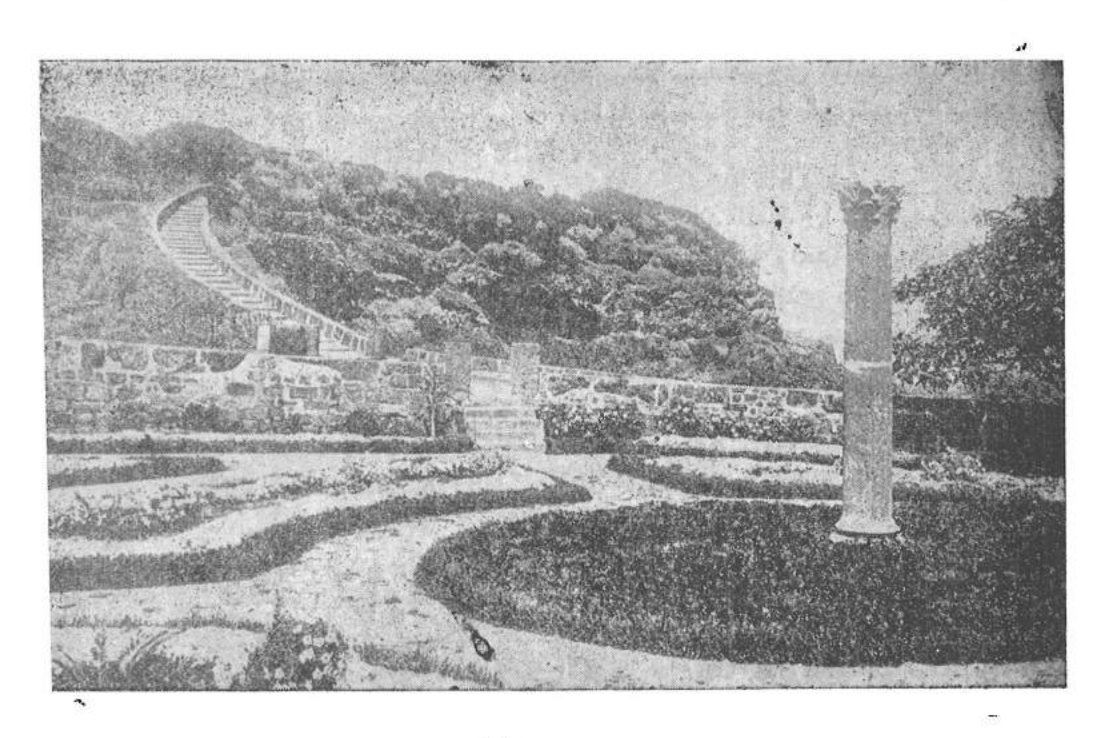
وبعد تدبير وجهت روما لجنة تحقيق الى قرطاجنة ، فاندهشت اللجنة لما راته من ازدهار قرطاجنة . وعاد أحد أعضاء اللجنة واسمه «قاطون» يحمل فى يديه تينات طرية ، رفعها أمام مجلس الشيوخ فى روما قائلا : «ان الارض التى تنبت هذه الثمار ليس بينكم وبينها الا مسيرة ثلاثة أيام» .

قررت روما اثر ذلك أن تقضى على قرطاجنـــة وتمحوها مـــن الوجود . واختلقت فرصة لاشهار الحرب على قرطاجنة التى كان الحزب المالى هـــو المسيطر فيها ، فعرضت على روما أن تقبل بشروطها لتتجنب الحـــرب . فطلبت روما أن تمكنها قرطاجنة من الاسطول ، ومائتى الف قطعة مـــن السلاح ، ودفعت قرطاجنة زيادة على ذلك ثلاثمائة شاب من عائلات الاعيان كرهائن لروما . وأضرم الرومان النار فى الاسطول القرطاجنى باعتباره القوة الاساسية التى يملكها البونيقيون وتوهمت قرطاجنة أنها بهذه التنازلات قد

اشترت السلم . لكن سياسة روما كانت تتمثل فى القضاء التام على قرطاجنة، فاشترطت على البونيقيين ان يخرجوا من قرطاجنة ويبنوا مدينة تبعد عن شاطىء البحر خمسة عشر ميلا .

أثار هذا السلوك المقوت حمية القرطاجنيين ، فاستعدوا لخوض معركة يائسة ، وتبرعت النساء بشعورهن لتفتل منهـــا الحبال . لكن « سيبيون الاميلى » الذى كلف بقيادة الحرب من طرف روما تمكن من فرض الحصار على قرطاجنة ومن دخولها فى النهاية ومن تحقيق ماعجز عنه القادة الرومانيون العسكريون الشيوخ ، ودافع القرطاجنيون عن مدينتهم دارا دارا.

وتجدر الاشارة الى أن روما عندما واجهت هذه المقاومة العنيفة ، طلبت اعانة ماصينصا . لكن ماصينصا رفض ، مما يدل على أنه لم يكن ينظر بعين الارتياح الى مشاريع روما فى افريقيا ، وعندما عجز القادة العسكريـــون الشيوخ على التغلب على قرطاجنة ، بعثوا له مرة ثانية يطلبون اعـــانته واوفدوا له «سيبيون الاميلى» صديقه ، لكن سيبيون وجد ماصينصا قد مات عن سن تجاوزت الثمانين ... وهكذا تـــم القضاء على قرطاجنة وتمكنت روما من نصب قاعدة لها فى افريقيا مكان قرطاجنة . وابتدأ عهد جديد فى تاريخ الجزائر القديم .



تيبـــازا

توحيــــد نوميــــديا

ترجع المحاولة الاولى لتوحيد نوميديا الى عصور التاريخ القديم، جرت تلك المحاولة فى المنطقة الواقعة بين نهر ملوية غربا وبين المناطق التى كان يحتلها البونيقيون شرقا ، اى انها جرت تقريبا فى النطاق الطبيعى للجزائر الحالية.

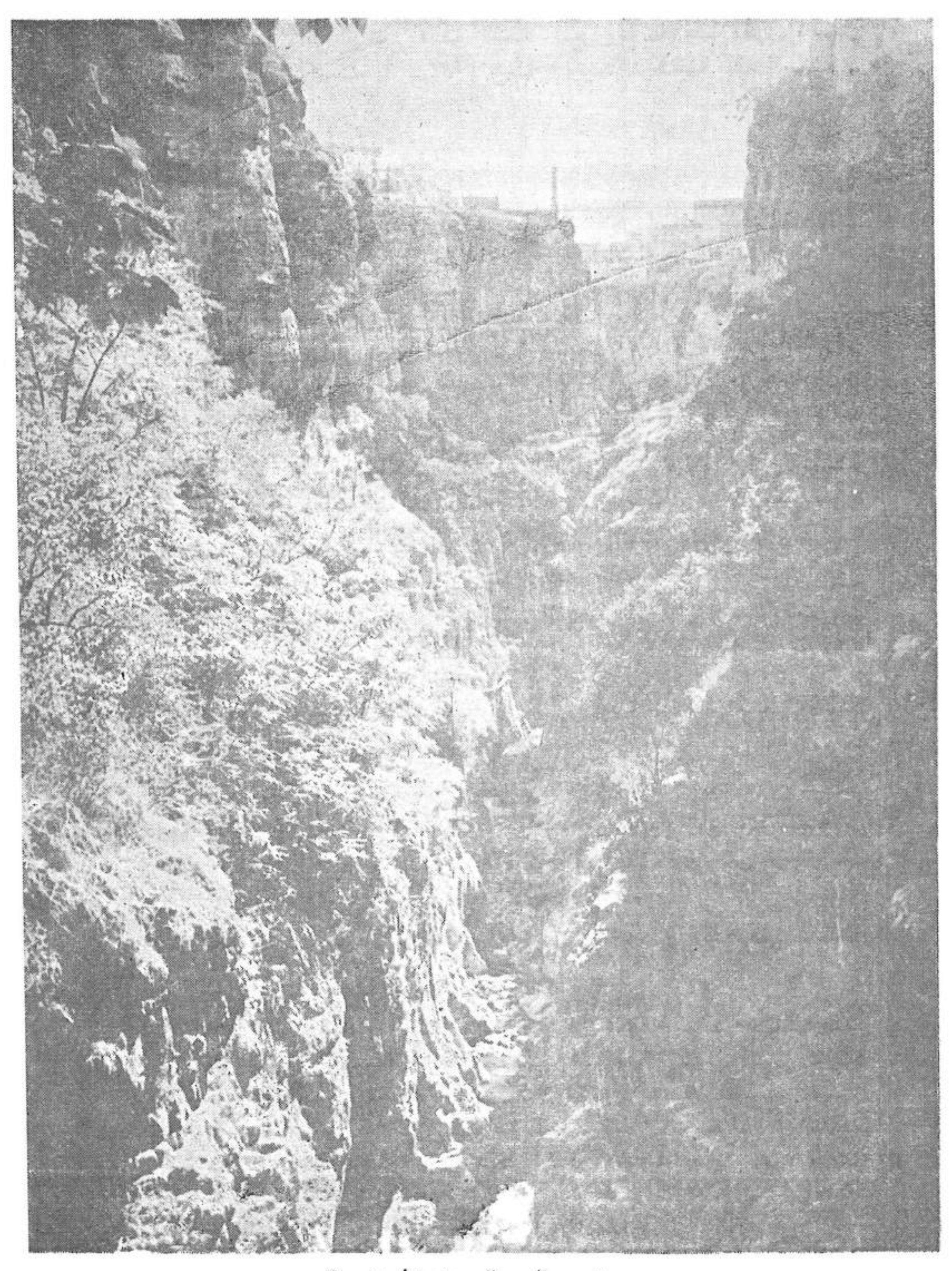
كيف تمت هذه المحاولة ؟ لم يحفظ التاريخ الوثائق التى تمكن من معــرفة الخطوط التى مرت بها هذه المحاولة انطلاقا من النظام القبلى الى النظــام الملكى، وكل ماهو معروف أن ذلك التطور اسفر عن تكوين مملكتين كبيرتين بربريتين هما : مملكة **مصيصيليا** التي تمتد مــن نهر ملوية غربا الى وادى الرومال شرقا، وكانت هذه المملكــة تشتمل على مدن هــامة مثل سيفة (فى جهة الغزوات) وسرتا (قسنطينة). ومملكة مصيليا التى كانت تشمل ما تبقى من مناطق الشرق الجزائرىالتى حد منها التوسع القرطاجنى .

ويدل ظهور العملــة مسكوكة باسم صيفاقس فى اواخر القــرن الثالث الميلادى ، على وقوع تغيرات اقتصادية هامة ادت الى ظهور العملة داخل اقتصاد كان منغلقا على نفسه .

وقد اعقبت المحاولات التى ادت الى ميلاد المملكتين المذكورتين ، محاولة اخرى تهدف الى توحيد كامل نوميديا فى ظل دولة واحدة ، ويبدو ان مشروع توحيد نوميديا اقدم من محاولة صيفاقس ، لكن الذى دفــع صيفاقس الى التفكير الجدى فى تحقيق المشروع ، هو ما رآه من ضعف القرطاجنيين عقب الحرب البونيقية الاولى .

فعندما لاحظ صيفاقس ان قرطاجنة خرجت منهكة من الحرب البونيقية الاولى ، استغل هذا الضعف ، واستغل حاجتها الى حليف قوى، فعرض عليها حلفه مقابل أن تتركه يضم مملكة مصيليا الى مملكته عندما توفى ملك مصيليا واسمه «غولة» .

والملاحظ أن صيفاقس كــان مدفوعا الى هــذه المحاولة بدافع العداوة التقليدية بينه وبين «غولة» كما يلاحظ ان غولة كان حليفا للقرطاجنيين، بينما كان صيفاقس حليفا للرومان ، فلما توفى غولة ، وجد صيفاقس الفرصــة سانحة ليضم كامل نوميديا تحت سلطانه ، وكانت قرطاجنة فى حاجة الى



وادى الرمــال بقسنطـينــــة

حلفه من جهة والى ان تصرفه عن التحالف مع روما من جهة أخرى ، فقبل عرضها مقابل ان تسمح له بمملكة « غولة » وقبلت قرطاجنة بهذه الصفقة .

ماصينيصا :

الا ان هذه المملكة الواسعة لم تعمر طويلا . لان ماصينصا أحد ابناء غولة اعلن الحرب على صيفاقس وعلى احلافه القرطاجنيين .

لكن ما هى العمدة التى اعتمد عليها مصينصا فى اعلانه لهذه الحرب ؟ لان النظام المعمول به حينذاك لم يكن يجعل من الابن وريثا شرعيا للعرش بل كان الوريث الشرعى هو اكبر افراد العائلة سنا ، أى عم مصينصا فى هذه الحالة .

يبدو من سياق الحوادث ومنطقها الداخلى ان ماصينصا كان يتمتع بشعبية كبيرة (وماصينيصا كلمة معناها سيدهم) ولاشك ان سكان نوميديا بدأوا يضجون من سيطرة قرطجانة على تجارة وأسواق المنطقة الشرقية من نوميديا ، فأستغل ماصينيصا هذا السخط في تعبئة الجماهير ضد قرطاجنة ،ويمكن ان ان نلخص حساب ماصينيصا والخطة التي انتهجها لضم كامل نوميديا تحت سلطته ، استنادا على الوقائع الثابتة فيما يلى :

(١) عمل ماصينصا فى مرحلة أولى على تحويل السخط الشعبى ضد قرطاجنة الى حركة مسلحة يتولى هو قيادتها .

(٢) وبعد أن فرغ من تحقيق هذه المرحلة قبل عرض روما ، بأن تتحالف معه ، لانه كان يعرف أنه من الصعب عليه أن يواجه روما وقرطاجنة فى آن واحد يضاف الى ذلك أن روما لم تكن تمثل خطرا قريبا على نوميديا مثل قرطاجنة التى تحتل بالفعل جزءا من أراضيها .

وتمت خطة ماصينصا ، فقد هزم صيفاقس ، ودخل سرتا التى أصبحت عاصمته .

وهكذا جمع ماصينصا مملكة واسعة فى ظل سيادة موحدة ، مملكة تمتد من نهر ملوية الى طبرقة ، وبذلك وضع ماصينصا الاسس الاولى لتوحيد نوميديا وخلق كيان دولة كبيرة . وعلى الرغم من أن سكان نوميديا كانوا لذلك العهد مايزالون يحتفظون بمظاهر التنظيم القبلى، فانهم بدأوا يشعرون بضرورة الوحدة وقيمتها كما تدل على ذلك الاحداث التى اعقبت وفاة ماصينصا ويكفى فى تأكيد هذه الحقيقة ، أن نسوق ماقاله شارل اندرى جوليان الذى يعتبر من المؤرخين النزهاء ، فهو يقول :

«لقد كان (اى ماصينصا) اقليدا عظيما (الاقليد فى لغة البربر هو الملك) عجن شعبه بيديه القويتين ، وحاول أن يجعل من بلاد البربر دولة موحدة مستقلة . ولم يكن الشمال الافريقى ، فى وقت من الاوقات — الا فى عهد الصنهاجيين — على وشك تحقيق أمة ، تتمتع بكل حرية فى تطوير حضارتها الخاصة ، كما كان فى عهد ماصينصا . ولئن كان هذا القائد البربرى قد اصطدم بمعارضة الامبريالية الرومانية فى تحقيق هذا الهدف ، فان محاولته تبرز خصاله الاستثنائية كملك عظيم» .

ويمكن ان نضيف الى ملاحظة شارل اندرى جوليان ملاحظة أخرى وهى أن محاولة ماصينصا لم تكن لتظهر بمثل هذه القوة ، لولا وجود احساس من القاعدة الشعبية بضرورة تكوين هذه الوحدة ، وفعلا فان محاولة ماصينصا ، كانت ستظل مجرد حلم لولا أنها كانت تتفق مع مطامح شعبه.

على أن هذه الملاحظة لا تجرد ماصينصا من قيمته ، بل أنها تظهر تلك القيمة تحت ضوء نهار جديد : اذ أن عبقريته والحالة هذه لا تتمثل فى تجرئه على محاولة تحقيق حلم خرافى ، ولكنها تتمثل فى تفطنه الى مطامح شعبه، وفى نجاحه فى التعبير عنها وتجسيمها .

التطور الاقتصادى :

بل ان عبقرية ماصينصا لا تقف عند هذا الحد : فقد يوجد من يتفطن الى مطامح الشعب ومن يعبر عنها تعبيرا سياسيا ، لكنه لا يعرف مايتطلبه تحقيق تلك المطامح من تغيرات اقتصادية هامة . فماصينصا لم يكتف بتنظيم دولته عسكريا ، وبتحميس شعبه ليتجند فى المعركة ضد قرطاجنة ، ومن أجل تحقيق وحدة نوميديا ، ولكنه ادرك ما يتطلبه تحقيق هذا الهدف العظيم من منجزات وتغييرات اقتصادية واجتماعية .

فقد عمل ماصينصا على تطوير الزراعة ، وشجع القبائل الرحل على أن تستقر فى مناطق معينة ، مما أعان تطوير الزراعة على نطاق واسع ، كما اعتنى ماصينصا بتسويق المنتوجات الزراعية .

ويجب التنصيص فى هذا المجال على أن سياسة ماصينصا الاقتصادية لم تخدم الزراعة على حساب تطور الثروة الحيوانية ، بل لقد تطورت الزراعة وتربية المواشى والانعام تطورا منسجما .

والى هذا العهد يرجع تحقيق عدة مشاريع للرى نسبها بعض المؤرخين خطأ أو لغرض — الى الرومان — وظهرت نتيجة مشاريع الرى فى ازدهار الزراعة ، التى ادت بدورها الى ازدهار التجارة ، وقيام الاسواق المحلية المنتظمة .

وكما ازدهرت التجارة والاسواق الداخلية ، ازدهرت التجارة الخارجية بعد أن تخلصت من احتكار قرطاجنة ، فتعددت العلاقات التجارية مع اسبانيا وفرنسا واليونان وروما ، وتردد التجار الاوروبيون على أهم مدن نوميديا .

ويقول المؤرخ اليوناني «بوليب» (الذى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد) يقول فى تسجيل دور ماصينصا فى تحقيق الرقى الاقتصادى ما يلى :

«واليك أعظم واروع ما عمله (ماصينصا) فقد كانت نوميديا تعتبر قبله لا فائدة فيها ، وعاجزة بطبيعتها عن أن تؤتى المنتوجات المغروسة . فكان هو ، وهو فقط . اول من اقام الدليل على انها تستطيع أن تنتج كل شىء ، مثل أية منطقة اخرى ، لانه استثمر مساحات شاسعة »

ويبدو أن ماصينصا تولى بنفسه استثمار المساحات التى انتزعها من القرطاجنيين ، كما تشعر بذلك شهادة مؤرخ يونانى آخر هو ديودوردى سيسيل الذى كتب يقول :

«قام بأعمال رائعة فى ميدان الاشغال الفلاحية الى درجة انه ترك لكل واحد من ابنائه ، عند وفاته ، عشرة آلاف بليتر (أى ٨٧٤ هكتار) مزودة بكل ما يلزم من عتاد فلاحى.»

وهذه شهادة لها قيمتها اذا عرفنا أن عدد أبناء ماصينصا لم يكن يقل عن اربع واربعين ولدا .

لا شك أن هذا التطور الزراعى خلق حاجات جديدة عند جمهرة الفلاحين الجدد ، الذين اضطروا الى تطوير تنظيمهم داخل مجموعات هامة من القرى والمدن ، بكيفية اعطت دفعة جديدة لتطور العمران .

تنظيم الدولة :

كانت هذه التغييرات الاقتصادية مصحوبة بتغيرات سياسية ومن الطبيعى أن يهتم ماصينصا بتنظيم الادارة ومركزتها بعد أن تطور العمران تطورا كبيرا ، يكفى لكى نتصور أهميته ، أن نستشهد بما قاله الجغرافى اليونانى «سترابون» (الذى مات عام ٢٥ بعد الميلاد) والذى أكد أن مدينة سيرتا وضواحيها كانت فى عهده ، أى بعد ماصينصا بقليل «تستطيع أن تجند عشرة آلاف فارس وعشرين الف من المشاة» مما يستنتج منه أن عدد سكان سرتا كان يتراوح بين مائة وخمسين ومائة وثمانين الف نسمة ولتحقيق هذا الغرض أعد ماصينصا جيشا وطنيا قويا ، كان يبلغ عدده خمسين الف جندى ، حسب «بوليب» والملاحظ ان هذا هو عدد الجيش الدائم . أى

بقطع النظر عن المتطوعين زمن الحرب ، ويتحدث المؤرخون القدامى عن وجود حصون عديدة كانت تخزن فيها الحبوب والاموال تحت حراسة فرق عسكرية هامة ، كما كان لماصينصا اسطول بحرى .

ولكى يعزز ماصينصا شعور الاحترام والهيبة نحو السلطة المركزية المتمثلة فى شخص الملك ، عمل على ربط علاقات شخصية بينه وبين رؤساء القبائل الذين جعل منهم وزراء ومستشارين ، ومعنى ذلك أن ماصينصا حاول القضاء على الاعتبارات القبلية الضيقة ، بخلق الشعور والوعى بمصلحة الدولة عند رؤساء القبائل ، الذين يلمسون فى حالة اسناد المسؤوليات لهم على المستوى الوطنى ، معنى المصلحة العامة . ومعنى ذلك أيضا أن ماصينيصا لم يغلق على نفسه داخل حدود قبيلته بحيث لايتجاوز أفرادها فى اسناد المسؤوليات وتوزيع مهام الدولة .

الملك المقدس :

ليس من المستغرب ، عندما نشاهد المشاريع الضخمة التى حققها ماصينصا ، والتغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى تمت فى عهده ان نجده قد احتل مكانة مقدسة فى نظر شعبه الذى بنى له معبدا فى دوقة (بتونس) بعد موته بعشر سنوات .

وقد حاول ماصينيصا ان يغير القاعدة التى كان معمولا بها فى انتقال المسؤولية من الميت الى اقاربه فاقر نظام الوراثة المباشرة فى الملك ، بعد أن كان الملك ينتقل لاكبر أفراد العائلة سنا .

وقد كان ماصينصا هو اول من أعلن شعار «افريقيا للافارقة» كما اكد ذلك المؤرخ اللاتينى «تيت ليف» ويعترف «غسيل» بأن «نوميديا حققت خلال القرن الثانى قبل الميلاد ، والى منتصف القرن الاول ق.م رقيا عظيما تحت ملوكها اكثر من الرقى الذى تم فى عهد جمهورية روما»

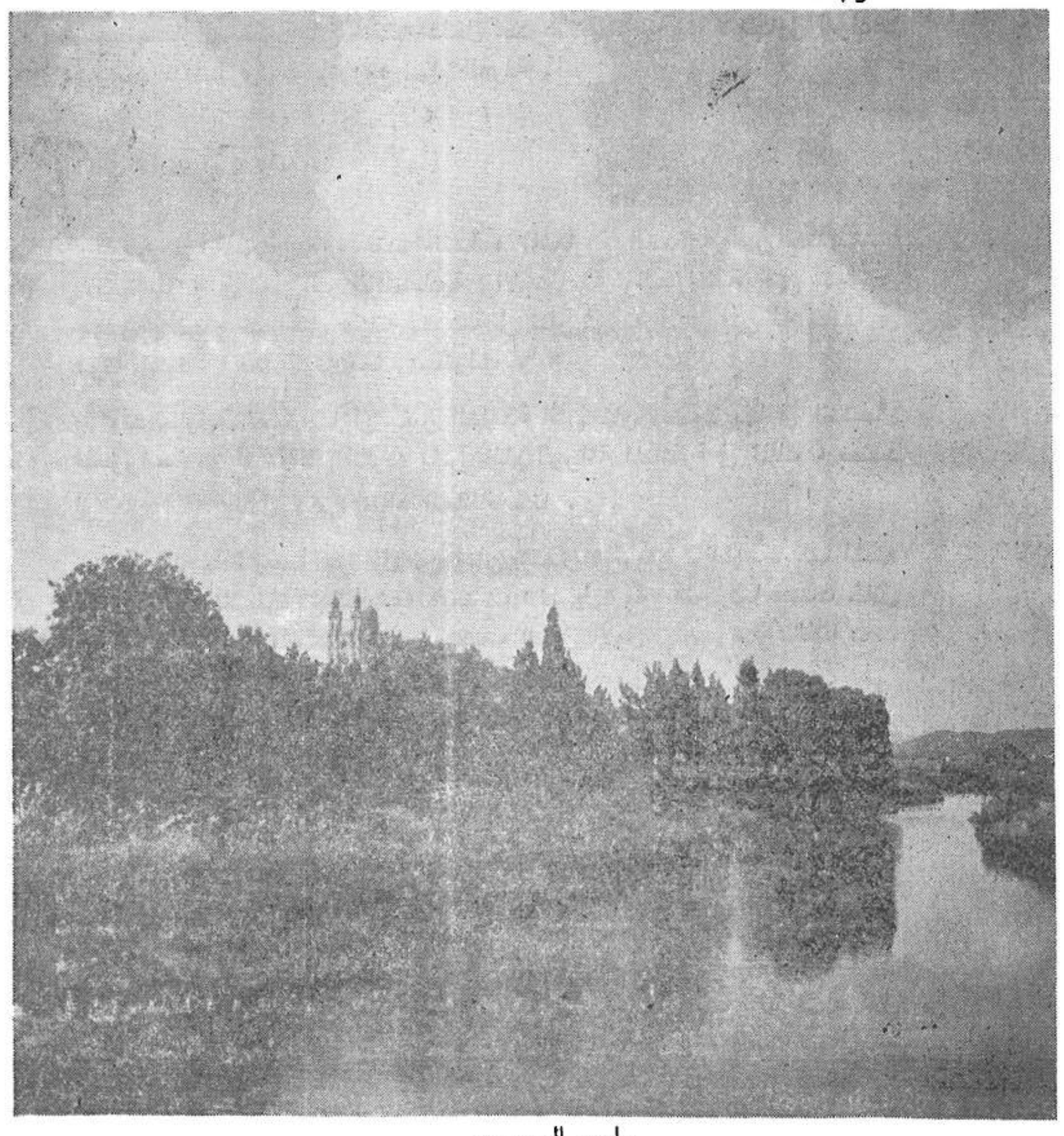
وهذه الشهادة تسجل أن النهضة التى تمت تحت قيادة ماصينصا ، استمرت آثارها واستمر مفعولها بعد موته بكثير .

ولذلك «استمر تقديسه عبر القرون» كما يقول «غسيل» أيضا.

قبره : غير بعيد عن مدينة قسنطينة عثر على قبر من الحجارة المنحوتة بطريقة مستوحاة من الفن اليونانى . وقد اكتشف الرجال الذين كانوا يقومون باصلاح هذا القبر فى ١٩١٥ ــ ١٩١٦ . اكتشفوا تابوتا كان يشتمل زيادة على السلاح والادوات الفضية حوضا من فضة مليئا بالرماد . فهل يكون ذلك الرماد هو ما تبقى من جثة ماصينصا ؟ ليس هناك ما يتنافى مع

هذا الاحتمال : فهندسة القبر ، وطريقة الدفن ترجع الى ذلك العصر . كما أن قرب القبر من سرتا ووقوعه فى أحد مرتفعاتها يرجح أن يكون ذلك هو قبر ماصينصا العظيم الذى مات فى عام ١٤٨ ق.م.

ذلك هو ماصينصا الذى شيد خلال خمسين سنة من الحكم والمسؤوليات الثقيلة دولة شامخة فى التاريخ ، وصهر فى ظل المعارك ، وبواسطة التنظيم السياسى والادارى والتغييرات الاقتصادية والاجتماعية وحدة وطنية تشهد بأن الشخصية الجزائرية ليست وليدة العصور الحديثة كما يحاول عدة مؤرخين غربيين أن يوهمونا لينسبوا فضل تكوين الشخصية الجزائرية الى الغرب .



وادى السيبوس

الاحتلال الرومانى ومقاومة يوغرطا

بعد موت ماصينصا فكرت روما فى خطة للقضاء على الخطر الذى يواجه مشاريعها فى نوميديا . فقد كانت تعرف حينذاك أن القضاء على قرطاجنة لم يعد الا مسألة وقت فقط ، فالخطر الاكبر يتمثل اذن فى دولة نوميديا الموحدة التى بناها ماصينصا واقامها على أسس مكينة قوية . لذلك قررت روما ان يكون الهدف الاساسى لديبلوماسيتها فى نوميديا هو **التجزئة** . تجزئة الارض ، وتجزئة الدولة ، وتجزئة الشعب ، باعتبار أن التجزئة بكل أشكالها هى أحسن حليف لروما كى تحقق مطامحها فى افريقيا ، (وروما هى التى اخترعت قاعدة فرق تسد) .

يدل على تخوف روما من ماصينصا ومن سياسته فى توحيد نوميديا ، رغم أنه كان حليفها ، ما عمدت اليه عندما ساعدت فرمينا ابن «صيفاقس» على امتلاك مصيصيليا رغم أنه ابن عدوهم . ان هـذا الموقف يؤكد أن سياسة روما كانت تهدف ، منذ ساعة مبكرة ، الى تجزئة نوميديا لكـن «فرمينا» لم يتمكن من الاحتفاظ بالملكة التى ساعدته روما على اعتلاء عرشها ، وتمكن مصينصا فى نهاية الامر من تحقيق وحدة حقيقية .

وقد وجدت روما اداة قيمة تعينها فى تحقيق هذه التجزئة تتمثل فى وصية مصينيصا .

وقد تعجب غير واحد من المؤرخين كيف يمكن أن يعهد ماصينصا الى «سيبيون الاميلى» بتنفيذ وصيته ، فى حين ان روما كانت تأمل من «سيبيون الاميلى» أن يكون اداة فعالة لتحقيق مطامحها .

لم نعثر على تفسير تاريخى لهذه الوصية : فالمعروف من أعمال ماصينصا ومواقفه يؤكد تخوفه من الرومان . وعلى هذا الاساس لا يسع الانسان الا أن يتعجب :كيف أسند ماصينصا تنفيذ وصيته الى سيبيون الاميلى ؟ يمكن أن نجد الجواب عن هذا التعجب لا فى سياسة ماصينصا ولكـن فى اتجاهه الثقافى .

فالكتابات التاريخية تؤكد أن ماصينصا استبعد الثقافة القرطاجنيـة وحضارتها ، ولم يحاول أن يعتمدها فى النهوض بالشخصية الجزائرية وفى وضع الاسس الفكرية لها ، باعتبارها دولة دخيلة على الوطن تحتل جزءا من ترابه ، فاعتماد ثقافتها فى هذه الحالة يخدم ركاب سياستها .

وكذلك استبعد ماصينصا حضارة روما ، ولم يحاول الاعتماد الكلى عليها ، باعتبارها تمثل عدوة ممكنة ، قد تتطاول على ارضه ، كما يفهم ذلك من جزئيات سياستها ومواقفها فى الشمال الافريقى . لذلك توجه ماصينصا الى الثقافة اليونانية ، يستمد منها قوة فكرية تعينه على استكمال وتدعيم الشخصية الجزائرية ، شخصية نوميديا ، وقد فضل ماصينصا الثقافة اليونانية ، نظرا لطابعها العالمى من جهة ، ونظرا الى ان اليونان لم تحتل ارض الشمال الافريقى من جهة اخرى .

وقد استمر هذا الاتجاه نحو منابع الفكر اليونانى قائما بالجزائر الى زمن يوبا الثانى (الذى ولى على موريطانيا القيصرية والذى توفى عام ٢٣ بعد الميلاد .)

واذا كان ماصينصا معجبا بالثقافة اليونانية وبطابعها الانسانى والعالمى ، فقد استنام الى «سيبيون الاميلى» الذى كان بدوره متشبعا بالثقافة اليونانية . فليس من المستبعد أن يكون ماصينصا قد اقتنع أن شخصا متشبعا بالفكر اليونانى مثل سيبيون الاميلى لا تحدثه نفسه بأن يستغل الثقة التى يضعها فيه سميه فى الثقافة لخدمة مآرب واغراض استعمارية توسعية .

وسواء اكان هذا التفسير الذى نقدمه صحيحا ام غير صحيح ، فان سيبيون الاميلى بحكم طموحه البعيد قد استغل ثقة ماصينصا لخدمة أغراض روما .

وأعانه على تحقيق تلك الاغراض ان الاطارات التى أوجدها ماصينصا لم تكن قد انصهرت بعد كما يجب فى ميدان بناء وحدة قوية تضع حدا فى آن واحد لاطماع روما وأطماع قرطاجنة .

خطة روما فى التجزئة :

وجد سيبيون الاميلى امامه طريقتين للحيلولة دون ان تتطور دولة نوميديا تطورا عملاقا يجهض محاولات التوسع الرومانية : الطريقة الاولى هى تجزئة أرض الشمال الافريقى الى ممالك ثلاث يوضع على راس كل مملكة منها أحد أبناء ماصينصا .

والطريقة الثانية هى تجزئة الحكم والسلطان دون الارض .

وكان سيبيون سياسيا ماهرا يدرك بحكم احتكاكه مع ابناء نوميديا أن تجزئة الارض قد يدفع أحد أبناء ماصينصا أو أحفاده لتوحيدها من جديد ، لذلك فضل الحل الثانى الذى ينخر الدولة الفتية من الداخل كالسرطان ،

فعين ماصينصا على رأس الادارة ومنستابعل على راس القضاء وغولوسة على راس الجيش .

وقد اختار غولوسة للدفاع لانه كان يعرف مدى تأثره به .

لكن موت منستابعل وغولسة أثار الامل فى توحيد الحكم اذ أصبح ماصينيصا هو الوارث الوحيد للحكم ، لكن يبدو ان ماصينيصا لم يكن رجل عمل ، فكان يحلو له ان يتفرغ للقراءة والادب ، بدل دراسة مشاكل الدولة ومواجهة المتاعب التى تخلقها سلوك سياسة مستقلة عن روما ، ففضل مصيبصا ان يستمر فى تمثيل دور الحليف الوفى لروما ، يزودها بما تحتاجه من قموح ، وما تطلبه من جنود . وكانت النتيجة العملية لهذا الوضع أن اصبحت السلطة الحقيقية بأيدى الرومان ، ليس لمصيبصا منها سوى الاسم . وقد أدرك الرومان بحكم سابق تجربتهم مع ماصينصا ان هذا الوضع لا يمكن ان يستمر ، وأنه قد ينهض من أبناء نوميديا من يعمل على تصحيح الاوضاع بما يتلاءم مع مصلحة نوميديا ، ففكروا فى تحقيق مشروع يضمن الاستقرار النهائى للسيطرة الرومانية فى أرض نوميديا ، يتمثل فى سلوك سياسة اسكان رومانية بواسطة استقدام جاليات هامة من روما تقتطع لها الارض فى مقاطعة قرطاجنة ومقاطعة سرتا ، بعنوان تعمير الارض واستثمارها . فتم توجيه ستة آلاف معمر كدفعة أولى .

لم تكن هذه التصرفات لتروق أبناء نوميديا ، لكن مصيبصا الشيخ كان غارقا فى تأملاته ، لا يسمع شيئا عن الثورة التى كانت تعتمل داخل الشعب .

في هذه الفترة بالذات ظهر يوغرطا منتابعل ويوغرطا محولة عن الكلمة البربرية يوغرتنة ومعناها «يغلبهم» الذى عرف ما يدور في نفس الشعب وعرف تبعا لذلك الطريق الذى يسلكه الى قلوب أبناء الشعب .

وقد وصفه المؤرخ اللاتينى (ساللوست) بقوله :

«كان يوغرطا لامعا بقوته وجماله ، وعلى الاخص بقوة شخصيته ، فلم يسمح لنفسه أن يفسده البذخ والميوعة ، كان يمارس كل أنواع الرياضة التى كانت معروفة فى بلده ، فيسابق الشبان أمثاله ، ويزاول لعبة الرماح وبالرغم من أنه كان ينتصر عليهم جميعا ، فانهم كانوا يحبونه جميعا ، وعندما يذهب مع اقرانه لصيد الحيوانات المفترسة ، كان دائما أولهم فى ضرب الاسد وغيره من الحيوانات المتوحشة ، وعلى الرغم من أنه كان أكثر اقرانه نشاطا ، فانه كان اقلهم كلاما» .

ابعاد يوغرطا :

لا عجب أمام هذه المزايا والخصال التى كان يتصف بها يوغرطا ، والتى تعكس وتصور بصدق ملامح الشخصية الجزائرية ، أن يعجب الشعب بيوغرطا .

لكن عمه الملك مصيبصا عندما شاهد حب الجماهير له سرعان ما تحول اعجابه به الى التخوف منه ، فقد خشى مصيبصا الشيخ ان يستغل يوغرطا هذه الشعبية بعد وفاته فى تنصيب نفسه ملكا على كامل المملكة دون بنى عمه ، لذلك صمم مصيبصا على التخلص من يوغرطا بالحيلة ، فأرسله على راس قوة كانت ذاهبة الى اسبانيا مددا للجيش الرومانى .

لم يتردد يوغرطا فى النزول عند الامر الصادر من عمـــه ، فذهب الى الحرب وعرف كيف يستغل هذه المناسبة فى دراســـــة خطط الرومان فى الحرب .

وسرعان ما كسب يوغرطا شهرة واسعة ، ولمع اسمه بين قادة روما ، حتى أن «سيبيون الاميلى» لم يكن يقدم على معركة هامة الا بعد استشارة يوغرطا .

عندما انتهت الحرب حاول سيبيون أن يقنع يوغرطا باعتناق قضـــية روما ، والعمل على تعزيز الروابط بينها وبين نوميديا ، وأفهمه أن تلك هى الطريقة الوحيدة للصعود على عرش نوميديا .. تظاهر يوغرطا بالاقتناع فأرسل سيبيون الاميلى رسالة الى مـصيبصا يـوصيه فيها خيرا بيوغرطا ، ونزل مصيبصا عند وصية سيبيون ، فأشركه فى وراثة العرش مع ولديه .

الطريق الى الحكم :

مات مصيبصا فى عام ١١٨ ق.م تاركا على العرش ولديه هيمصـــــــال وآذربعل وابن أخيه يوغرطا .

لكن اتضح من بداية تسلمهم للحكم ، أنه لا مجال للتفاهم بين يوغرطــــا وابنى عمه ، فقد كانت شعبية يوغرطا مثار غيرة هيمصال وآذربعل اللذين كانا يريان أنه مغتصب لحقهما فى العرش .

ومما زاد فى تعقيد الموقف أن سياسة يوغرطا كانت تختلف اختــــلافا أساسيا عن سياسة ابنى عمه ، فبينما كان هو يريد أن يتخلص من قيـــود التبعية الاقتصادية لروما ، كان ابنا عمه يفكران فى أحسن وسيلة للتخلص من يوغرطا ، حتى يضمنا تأبيدسلطانهما فى ظل الرعاية الرومانية .

ولم يكن بد أن يتطور هذا الموقف الى خلاف حاد بين الطرفين ، خصوصا بعد أن طرح يوغرطا مشكل القيود الاقتصادية التى كانت تشد نوميديا الى روما ، والتى وضعها مصيبصا ، فاقترح يوغرطا الغاء تلك المراسيم التى كانت تنال من سيادة نوميديا . وعندما اقترح ابنا عمه عليه التقسيم ، رفض تجزئة الوطن . وتطور الخلاف الى ازمة ، وتطورت الازمة الى سخط شعبى كان هيمصال هو أول ضحاياه ، وسواء أكان مقتل هيمصال بايعاز من يوغرطا أم من عمل الجمهور الذى كان يبغضه ، فقد كان هذا الاغتيال شرارة البدء فى حرب أهلية بين يوغرطا وآذربعل انتهت سريعا بانتصار يوغرطا .

تدخل روما :

فر آذربعل الى روما والقى فى مجلس شيوخها خطابا قال فيه :

«ان والدى مصيبصا اوصانى عندما اوشك على الموت بأن اعتبر تاج نوميديا بمثابة سلطة فوضت الى تحت تصرفكم وسيادتكم ، وأمرنى أن أخدم شعب روما بكل جهودى فى الحرب والسلم على السواء» .

وكان واضحا من هذا الطلب الوضيع — الذى لا يستبعد أن تكون صيغته قد أوعز بها أحد المسؤولين الرومان — أن آذربعل يطلب من روما أن تنصبه بقوة السلاح .

استغلت روما هذه الفرصة للتدخل العسكرى فى نوميديا . فبدأت بتوجيه لجنة تحكيم تتولى الفصل فى الخلاف ، واضطر يوغرطا الى ان يدخل مع الرومان فى مفاوضات لتأجيل موعد الاصطدام معها ، ريثما يستكمل استعداده لمواجهتها بالقوة . وأدى تدخل اللجنة الرومانية الى تقسيم نوميديا ، لكن يوغرطا عرف كيف يأخذ اكثر الجهات خصبا وموانىء ، فكان من نصيبه غرب الجزائر ووسطها ، بينما كان شرقها من نصيب آذربعل

الحرب مع روما :

تمكن يوغرطا بعد أن افتعل سببا لخوض المعركة ضد آذربعل ، من الانتصار عليه والدخول الى سرتا ، حيث استقبل بابتهاج وحماس بالغين ، والتجأ آذربعل مرة أخرى الى روما يطلب تدخلها، فأوفدت لجنة طلبت من يوغرطا أن يرفع الحصار عن سرتا ، لكن يوغرطا رفض ، فنصح الرومان آذربعل بالاستسلام ، فاستسلم ، ثم قتل هو وانصاره عام ١١٢ ق٠ م

استغلت روما هذه الحادثة واعلنت الحرب على يوغرطا بعد أن استنفدت كل الحيل لستر تدخلها بستار سلمى ، الا أن يوغرطا تمكن من شراء القائدين الرومانيين اللذين كلفا بمحاربته فعقد معهما اتفاقا على السلم مقابل أن يعطى روما بعض الحيوانات ومبلغا ماليا ضئيلا ، وكان ذلك عام ١١١ ق.م .

لكن خبر الرشوة ذاع فى روما وكان سببا فى خلق أزمة داخل مجلس الشيوخ انتهت بتحقيق وحدة الصف بين الكتل السياسية فى روما ضد يوغرطا .

ابتدات الحرب بين روما ويوغرطا ، واحرز يوغرطا على انتصارات هامة ضد الرومان ، اضطرتهم الى ابرام السلم معه .

الا ان يوغرطا لم يعرف حينذاك كيف يستغل انتصاره ، ذلك ان المعاهدة التى اضطرت اليها روما اضطرارا لم تكن تهدف الا الى ربح الوقت ، وما دامت روما تملك قاعدة قوية فى قرطاجنة ، فستظل متمسكة بمشروع الاستيلاء على نوميديا ، وكان ذلك خطأ اول فى تقديرات يوغرطا السياسية.

وفعلا فقد وجهت روما اثر ذلك قائدها «متلوس» الى قرطاجنة كى ينظم جيشا قويا ينطلق به من هناك ضد يوغرطا ، وهجم متلوس على نوميديا دون انذار باعلان الحرب خلافا لما جرت به العادة .

اختار يوغرطا منطقة تكثر فيها الغابات لمواجهة الرومان ، واحرز فعلا انتصارا هاما على جيش روما فى حربه معها .

الا أن متلوس ، القائد الرومانى ، ادرك طبيعة التركيب الحربى لجيش يوغرطا ، فهو جيش ليست وراءه فتوحات حربية مثل جيش روما تجعل منه ذكريات الفتوحات السابقة اداة متماسكة ، ولكنه جيش يتكون من فلاحين مسالمين يلبون داعى الكفاح عندما تكون ارضهم فى خطر ، ثم يرجعون الى مزارعهم فور انتهاء القتال .

وعلى هذا الاساس ضبط متلوس خطته الجديدة بناء على الحساب التالى : بما ان معظم جنود يوغرطة فلاحون ، فسيتخلون عنه عندما يلاحظون أن استمرار الحرب يتسبب فى ضياع أرزاقهم واحراق محاصيلهم ولذلك فان سلوك أسلوب الارض المحروقة هو احسن طريق للقضاء على يوغرطة . الا ان يوغرطة ادرك طبيعة التحول الجديد ، فسلك أسلوب حرب العصابات المنهك الذى ما لبثت آثاره ان ظهرت فى انحطاط معنويات الجيش الرومانى .

ودارت معركة عنيفة بين الطرفين حول مدينة «زاما» فى أرض تونس

قرب الحدود الجزائرية الحالية التى حاصرها الرومان والتى طار يوغرطا الى انقاذها ، وقد واجه يوغرطا الرومان المحاصرين بهجومات خاطفة تنقض بسرعة فائقة على الفرق الرومانية ، ثم تولى مسرعة دون ان تترك للعدو فرصة لرد الفعل .

وعندما ضبط الرومان خطة تتماشى مع تكتيك يوغرطا ، غير هذا خطته وضبط أسلوبا آخر وصفه المؤرخ ساللوست بقوله :

«لم يكن فرسان نوميديا ليصمدوا طويلا لولا أن فرق مشاتهم اختلطت بالفرسان ووجهت ضربات قاسية ، ففرسان نوميديا المعززون بالمشاة لم يعودوا يهجمون هجومات خاطفة يولون اثرها مسرعين ، بل أصبحوا يواصلون هجومهم داخل صفوف الجيش الرومانى ، فيشقونها شقا ، ثم يتركونها عرضة للمشاة الذين يتممون عمل الفرسان والذين يجدون أمامهم حينذاك فرقا نصف مهزومة» .

سلاح الخيانة :

بعد فشل الرومان أمام زاما ، يئسوا من الانتصار على يوغرطا فى الميدان ، حينذاك فكر متلوس فى استعمال سلاح الخيانة ، ووقع اختيار متلوس على بوميلقار احد قادة يوغرطا المقربين ، وقد كان الرومان احتجزوا اراضيه فى قرطاجنة ، فاتصل به متلوس وعرض عليه ان يرد اليه تلك الاراضى مقابل ان يسلم لهم يوغرطا حيا أو ميتا .

لكن بوميلقار كان يخشى من عواقب الخيانة المفضوحة فحاول اقناع يوغرطا بأن الشعب قد تعب من الحرب ونصحه بالتفاهم مع الرومان ، فى حين انه كان هو المنتصر ، لا هم .

ولم يتفطن يوغرطا للخديعة الا عندما استراب فى الموعد الذى ضربه له الرومان ، فأعدم بوميلقار واستعد لخوض المعركة من جديد .

لكن روما استعملت مرة اخرى نفس السلاح ، سلاح الخيانة ، وتواطئت مع صهره بوكوس «يوغرطا زوج بنت بوكوس» ملك موريطانيا الطنجية وتم تسليم يوغرطا الى الرومان على يد بوكوس ، وقذف الرومان بيوغرطا الى السجن حيث منعوا عنه الاكل مدة عشرة ايام ، ثم قتلوه ، وكان ذلك عام ١٠٤ ق.م .

الاحتـــــلال الرومانى

كان يوغرطا هو آخر سد فى وجه أطماع روما بنوميديا ، فلما تم القضاء عليه لم تضيع روما الوقت فى تنفيذ عملية الاحتلال الذى كانت تحلم به من زمان .

والرومان أمة لاتينية ينسبون الى روما ، المدينة التى اسسها روملوس سنة ٧٥٣ ق.م .

وقد عرفنا فى الفصول السابقة السياسة التى سلكها الرومان فى الشمال الافريقى تمهيدا لاحتلاله .

بعد انتهاء الحرب البونيقية الثالثة ، حل الرومان محل القرطاجنيين ، فاستولوا استيلاء فعليا على تراب قرطاجنة ، وأطلقوا عليه اسم «مملكة الرومان بأفريقيا» وجعلوا على هذه الولاية واليا مقره عوتيقة .

تشمل هذه الولاية ما بين وادى توسكا «ناحية طبرقة» ومدينة جنوب صفاقس ، ويمتد خطها الغربى امتدادا غير مستقيم من توسكا حتى يقترب من تفصة ، فهى عبارة عن حوالى ثلث تونس الحالية .

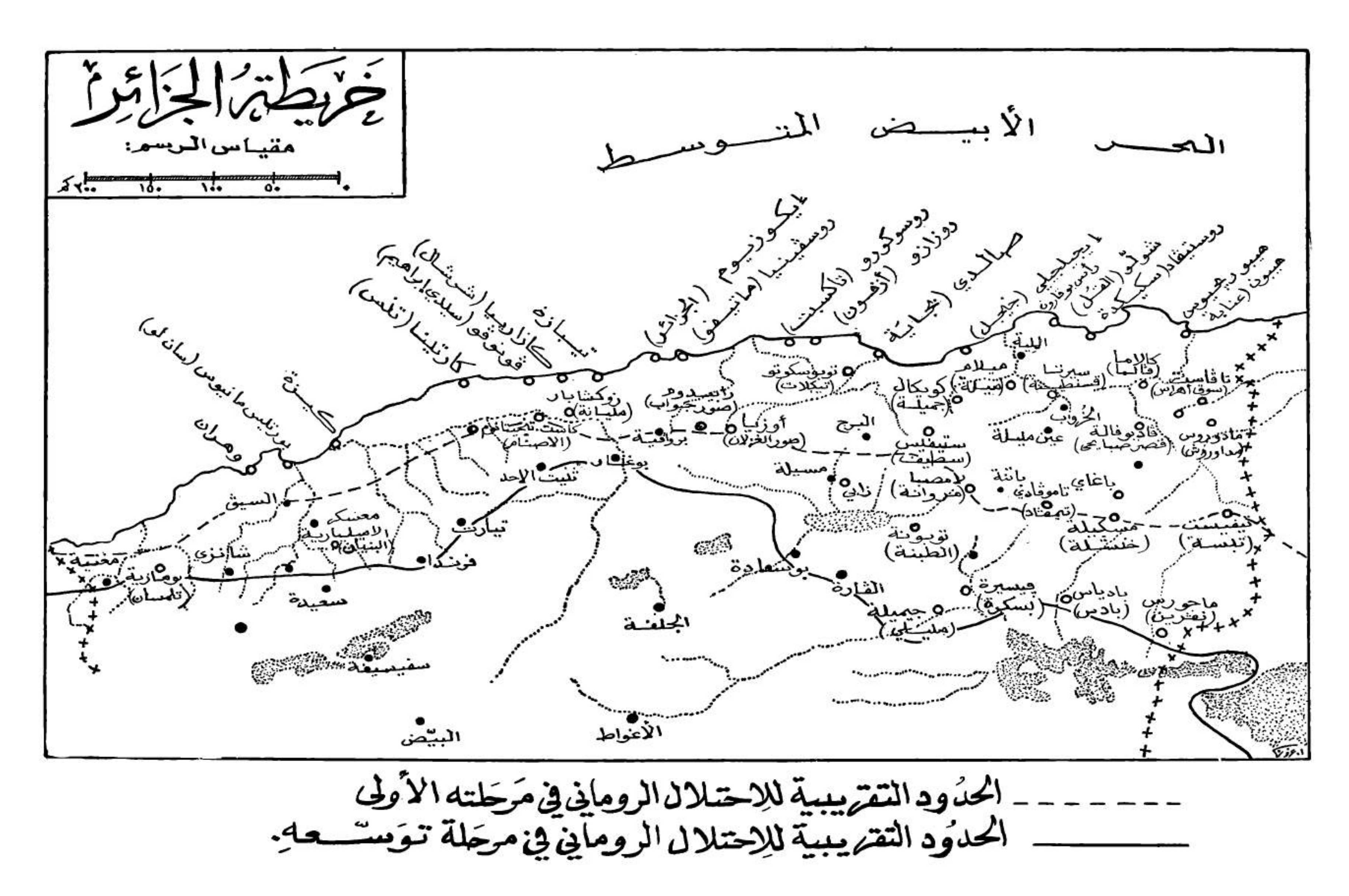
وعلى الرغم من أن روما تخلصت بموت ماصينصا من خطر كبير ، فانها كانت تخشى أن تؤدى السياسة التى أرسى دعائمها الى مضايقة مشاريعها التوسعية ، لذلك شرعت فور استقرارها مكان قرطاجنة فى سلوك سياسة الاسكان الاوربى بأفريقيا ، أى فى ايفاد جاليات كبيرة من الرومانيين الى افريقيا للاستيطان بها ، بعنوان التعمير ، تماما كما فعل الفرنسيون بعـــد ذلك بعشرين قرنا .

الاستيلاء على الجزائر :

بعد واقعة طبسوس سنة ٤٦ ق.م اســـتعمر الرومان شرقى نوميديا واطلقوا عليه اسم أفريقيا الجديدة ، ومنحت نوميديا الوسطى ، قرطة والمدن التابعة لها الى ستيوس واطلق عليها اسم «مستعمرة ستيوس» .

وليس من المستبعد ان يكون الرومان قد أرادوا أن يجعلوا حـــــكم ستيوس لنوميديا الوسطى مرحلة انتقالية تمكنهم من ابتلاعها بسهولة بعد ذلك واضافتها الى ممتلكات روما فى افريقيا .

أما موريطانيا الشرقية فقد بقيت بأيدى امراء بربريين آخرهم هو بوكوس الثالث المتوفى عام ٣٣ ق.م . وبعد وفاته الحقها الرومان بمستعمراتهم ، وجعلت تحت نفوذ اكتافيوس مباشرة الذى اراد ان يقضى على الشخصية


خريطة الجزائر
مقياس الرسم:
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ كم
البحر الأبيض المتوسط
هيبو ريجيوس
هيبون (عنابة)
روسيتيقاد (سكيكدة)
شولو (القل)
رأس بوقارون
ايجلجيلي (جيجل)
صالدي (بجاية)
روزازو (أزفون)
روسوكورو (تاكسبت)
روسقينيا (ماتيفو)
ايكوزيوم (الجزائر)
تيبازة
كازاريا (شرشال)
قونوقو (سيدي إبراهيم)
كارتينا (تنس)
كيزة
بورتليس ما نيوس (سان لو)
وهران
تاقاست (سوق أهراس)
كالاما (قالما)
سيرتا (قسنطينة)
ميلاو (ميلة)
كويكال (جميلة)
توبوسكوتو (تيكلات)
راتيبيدوم (صور جواب)
زوكشا بار (مليانة)
كاستلوم تنجيتانوم (الاصنام)
الخروب
عين مليلة
ثاقابوفالة (قصر صبايحي)
ماداوروس (مداوروش)
البرج
أوزيا (صور الغزلان)
بورواقية
بوغار
تنيت الاحد
ستيفيس (سطيف)
مسيلة
زابي
لامصبا (مروانة)
باتنة
تاموقادي (تيمقاد)
باغاي
تيفيست (تبسة)
ماسكولة (خنشلة)
توبونة (الطبنة)
فيسيرة (بسكرة)
بادياس (بادس)
ماجوريس (نقرين)
جميلة (مليلي)
القارة
بوسعادة
تيارت
فرندة
معسكر
الاصطبلات
البنيان
السيق
شانزي
سعيدة
مغنية
بوماريا (تلمسان)
الجلفة
سفيسيفة
الأغواط
البيض
الحدود التقريبية للاحتلال الروماني في مرحلته الأولى
الحدود التقريبية للاحتلال الروماني في مرحلة توسعه.

البربرية وان يحل محلها شخصية روما اللاتينية ، لكنه خشى ثورة البربر ان هو تولى تنفيذ البرنامج بنفسه ، فأوكل كل هذه المهمة الى رجل بربرى مخلص لروما هو «يوبا الثانى» .

وعلى الرغم من ان المدة الطويلة التى مكثها الرومان بالجزائر ، فانهم لم يتمكنوا من احتلالها كلها .

فقد كانت حدود المناطق التى استعمرها الرومان فى القرن الاول للميلاد يمر شمال الاوراس ويجتاز سهول سطيف ومجانة الى سور الغزلان ، ثم ينحدر قليلا الى الجنوب فيمر بالبرواقية وساحل شلف ويجتاز وادى مينا الى ناحية غليزان ووادى سيق . وفى غربى وهران يقترب الحد اقترابا شديدا من البحر وينتهى بمصب نهر ملوية . وبعد القرن الاول للميلاد، أقام الرومان مراكز حراسة جديدة ، واحاطوا جبل الاوراس الممتنع عليهم بالحصون ، ولم يتم لهم فتحه الا أواخر القرن الثانى .

وفى بداية القرن الثالث كان الحد الرومانى مار جنوب اوراس وشاطىء وادى جدى الايمن ، ثم يصعد شمالا فيمر وسط جبال الزاب ويقطع وادى الشعير ، ثم يذهب قرب سور الغزلان ويمر ببوغار وتيهرت وتلمسان وللا مغنية .

ولم يدخل الرومان الصحراء الا فى عمالة قسنطينة ، اذ نفذوا اليها من ناحية اوراس . اما عمالتا الجزائر ووهران فلم يكن للرومان فيها الا الجهات التلية المعبر عنها بموريطانيا القيصرية .

طبيعة الاحتلال الرومانى : أدركت روما بحكم الخبرة التى اكتسبتها من احتكاكها بنوميديا ، ان البربر لن يقبلوا ابدا بالاستعمار المباشر ، وان كل محاولة لفرض السيطرة الرومانية مباشرة عليهم ، ستؤدى الى ردود فعل من شأنها أن تعزز كيان الدولة التى أنشأها ماصينصا ، وأن تصهرها فى الكفاح . لذلك سلكت روما سياسة ماهرة تهدف الى اصابة عصفورين بحجر واحد ، تتلخص هذه السياسة فى الاعتماد على الامراء ورؤساء القبائل من البربر ، فى حكم البلاد بواسطتهم ، وقد عرفت روما كيف تستغل الحزازات الموجودة عادة بين رؤساء وشيوخ القبائل وغذتها ، وبذلك تكون قد حققت هدفين فى آن واحد : الهدف الاول هو القضاء على كيان الدولة الناشئة ، والثانى هو التوطيد للحكم الرومانى المباشر .

وهذه السياسة هى التى تفسر الى حد ما ذلك التدرج البطىء فى انتشار السيطرة الرومانية بالجزائر ، ونقول الى حد ما ، لان بطء تطور الاحتلال الرومانى كان ناتجا من جهة أخرى عن عنف المقاومة التى اصطدم بها الرومان فى نوميديا .

وقد آتت هذه السياسة الماهرة اكلها ، فاصبح أمراء البربر مشاركين لروما فيما يقع بها من فتن داخل روما ، وصارت نوميديا مسرحا يردد صدى الاحداث التى تقع فى روما . فيوبا ملك نوميديا يتحمس لبومبيوس ، بينما بوكوس ملك موريطانيا يؤيد قيصر ، وقد شارك يوبا البومبيين فى حربهم ضد قيصر ، ولكنه عندما انهزم انتحر عام ٤٦ ق.م.

وكان يوبا الثانى قد تربى فى أحضان روما ورضع ثقافتها ، فأرادت روما أن تجعله ستارا تنفذ من وراءه أغراضها ، فجعلت منه ملكا على نوميديا، ثم نقلته روما الى موريطانيا بعد انقراض عائلة بوكوس (سنة ١٧ م.)

التنظيم الادارى لبلاد البربر فى عهد الاحتلال الرومانى : ادخل قيصر ، بعد انتصاره على بومبيوس ، تغييرا كبيرا على انظمة بلاد افريقيا ونوميديا ، فألغى ملكيى ماصينصا ويوبا نظرا لتأييدهما للبومبيين ، وجعل القسم الشرقى من نوميديا ولاية جديدة سماها افريقيا الحديثة .

كما انشأ قيصر ، بين موريطانيا وافريقيا الجديدة دولة لفائدة سيتيوس تضم المنطقة الشرقية من مملكة ماصينصا الثانى والمنطقة الغربية من مملكة يوبا الاول — وبعد موت قيصر الحقت المدن الهامة الواقعة قرب سرتا ، وهى روسيقاد (سكيكدة) وشولو (القل) ميليف (ميلة) الحقت مع سرتا الى افريقيا الجديدة ، بعد أن كانت تشكل مجموعات مستقلة عرفت بجمهورية المدن الخمس .

وقد كان الشمال النوميدى يشتمل على عدة مدن مستقلة ، كما ظلت جبال جرجرة ممتنعة على الرومان . وفى سنة ٢٩٧م تغلب «ديوقلطياتش» على جبال جرجرة ، فحدث تغيير جديد فى نظام الادارة الرومانية . فقسمت الى اربعة اقسام :

١ — نوميديا القرطية ، قاعدتها سرتا .

٢ — نوميديا العسكرية عاصمتها لمبيس .

٣ — موريطانيا السطيفية ، قاعدتها سطيف .

٤ — موريطانيا القيصرية ، قاعدتها قيصرية .

ولما ثبتت قدم قسطنطين بامبراطورية روما احدث سنة ٣٢٣ م تغيرا فى الولايات الرومانية فقسمها الى ثلاثة اقسام كبرى هى : ولاية ايطاليا ، وولاية الغاليا ، وولاية المشرق ، وجعل الجزائر وتونس تابعتين لولاية ايطاليا ويديرهما وال يقيم بروما .

الثورات الشعبية

لم يعتن معظم المؤرخين الغربيين بالثورة الشعبية التى اندلعت فى عهد الاحتلال الرومانى ، لانهم كانوا مدفوعين الى ابراز وتضخيم عظمة روما ، ولو على حساب الحقيقة ، حتى يبرروا من طرف خفى ، الاحتلال الفرنسى للجزائر ، الذى ذهب بعضهم الى اعتباره وريثا شرعيا لروما ، طارحا من التاريخ التراث العربى الاسلامى .

على أن الثورات الشعبية فى العهد الرومانى ، لا تكتسى كامل دلالتها الا اذا استحضرنا قوة روما فى ذلك العهد : فقد كانت اكبر دولة فى العالم ، وكانت تتحكم فى كامل حوض البحر الابيض المتوسط ، بما فيه المشرق والمغرب كما استولت على جانب هام من اوروبا الغربية الحالية .

تلك هى الدولة التى ثار ضدها أبناء نوميديا ، مرات عديدة ، ونظموا ضد طغيانها ثورات تعمد المؤرخون اللاتينيون القدامى اهمال تفاصيلها . ومع ذلك فقد احتفظ التاريخ بوقائع تثبت أن نوميديا احتفظت بشخصيتها رغم محاولات المسخ الرومانى . ففى عهد أوقيست ، لم تقف ثورة الجيتوليين ضد يوبا عند جنوب موريطانيا بل لقد امتدت الى شرق الجزائر وغرب تونس . ولئن لم يحتفظ التاريخ بتفاصيل هذه الثورة ، فان المصاعب التى اصطدم بها الرومان خلال تلك المرحلة الاولى من احتلال الجزائر تدل على انها استمرت ثلاثين سنة .

كما أن التاريخ يشهد بأن قسما من بلاد الاوراس والقبائل والونشريس وقسم هام من نجود وهران لم تستعمر كلية ، فقد ظلت المناطق الجبلية محتفظة باستقلالها ، ولم يستحوذ الرومان الا على السهول المحاذية لها .

قال المؤرخ الفرنسى شارل أندرى جوليان :

«ان جمهرة الشعب فى نوميديا لم تخضع ولم تتأثر لا بدين روما ولا بحضارتها ، وقد استمر الشعب يتحدث اللغة الليبية او البونيقية ، وظل متمسكا بمعتقداته التقليدية ، لقد اخضع ، لكنه لم يذب ، ولم يتم القضاء على مقاومته» .

تاقفاريناس : لكن التاريخ ، كما قلنا ، لم يحتفظ لنا بتفاصيل كل الثورات التى وقعت فى أرض نوميديا ، فثورة تاقفاريناس مثلا ، التى استمرت سبعة

أعوام من ١٧ الى ٢٤ م ، لم يروها المؤرخ تاسيت الا فى اسطر قلائل ، تتمثل فى قوله :

«فى هذا العام ، ١٧ ابتدأت الحرب فى أفريقيا ، وكان قائد الثوار رجل من نوميديا اسمه تاقفاريناس ، كان اشتغل فى جيش روما ، ثم فر منه ، وقد جمع أولا بعض العصابات من قطاع الطرق والمتشردين قادها الى النهب ، ثم توصل الى تنظيمها فى فرق منظمة بين خيالة ومشاة ، وبسرعة تحول من قائد عصابة الى جنرال يقود شعب (الموسلمان) البطل الذى كان يتنقل بين المناطق التى لا توجد بها مدن ، والمحاذية للصحراء . وقد رفع الموسلمان السلاح ثم سحبوا معهم المور جيرانهم الذين كان قائدهم هو مازيبا . واقتسم القائدان الجيش ، فاحتفظ تاقفاريناس بنخبة الجيش ، اى بكل الذين كانوا مسلحين مثل الجند الرومانى ليعودهم على الطاعة العسكرية وعلى القيادة بينما كان مازيبا يحمل مع جنوده الخفاف الحديد والنار والفزع الى كل مكان»

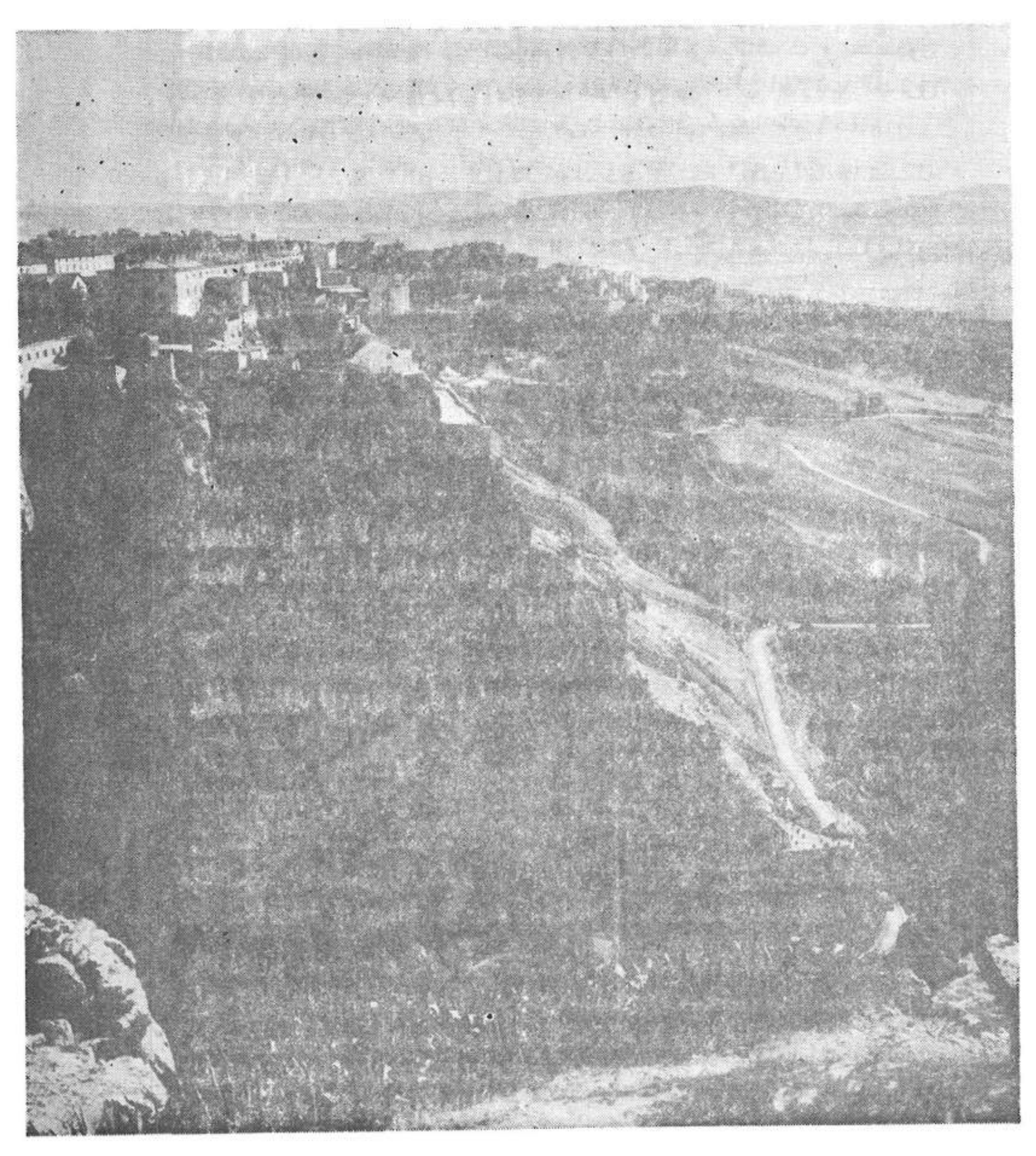
وكانت ثورة واسعة استمرت طويلا ، واضطرت روما الى تعبئة جيوش ضخمة ضدها حتى قتل تاقفاريناس فى المعركة عام ٢٤ م ، وقد أعقبت هذه الثورة ثورات عديدة أخرى ، مثل ثورة «لسيوس كيبتوس» . كان اشتغل أيضا فى الجيش الرومانى ومثل ثورة سكان جبال أوراس والجبال الواقعة بين سرتا وسطيف عام ٢٦٥ م ، وهذه الثورة امتدت بعد ذلك الى كامل الجزائر ، ومثل ثورة «أرديون» فى سنة ٢٧٠ م ، ومثل ثورة القبائل الخمس فى عام ٢٨٨ بجبال الجرجرة .

المظاهر الايديولوجية للسخط الشعبى :

على أن السخط الشعبى لم يكتسى أسلوب الكفاح المسلح فقط ، بل لقد اكتسى مظاهر ايديولوجية بالغة الاهمية ، فعندما ظهرت المسيحية وحاربتها روما ، سارع سكان نوميديا الى اعتناقها ، باعتبارها ديانة تدعو الى المساواة ، لكن عندما أصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية لروما فى عام ٣٨٢ م نبذها عدد كبير من أبناء نوميديا ، وظهرت فى نفس الوقت حركة دينية تحمل اسم «الدوناتيزم» وهى عبارة عن مذهب مسيحى ، لكنه مناوىء للمسيحية الرسمية ، وتطور المذهب الدوناتى بسرعة فى نوميديا وسط الكادحين والطبقات الشعبية .

وهكذا يتبين أن المناطق التى احتلها الرومان فى نوميديا كانت فى ثورةدائمة وأن مساحتها ظلت تتضاءل باستمرار ، وفى هذا الصدد يجب التنصيص على حقيقة هامة ، طالما تعمد المؤرخون الغربيون اغفالها وتشويهها ، تتلخص هذه الحقيقة فى ان الثورة الشعبية ضد الرومان فى عام ٤٢٩ م هى التى

قوضت سلطان روما ، قبل ان يجهز عليهم الوندال ، لكن المؤرخين الغربيين يتعمدون اغفال هذه الحقيقة ليخلقوا مكانها خرافة قائمة على أساس انكار الشخصية الجزائرية ، والزعم بأن تاريخ الجزائر عبارة عن سلسلة متوالية من الاحتلالات الاجنبية ، فالوندال عندما قدموا الى الجزائر وجدوا سلطة روما منهارة بفعل الثورات الشعبية الوطنية المتواصلة التى أنهكتها .



قصبة قسنطينة

الاحتلال الوندالي والبيزنطي والمقاومة الشعبية

انطلقت الفرق الوندالية من شواطىء بحر البلطيق وانتشرت فى سهول الاودير وفيستول خلال القرن الاول قبل الميلاد . وبعد أن اخترقت الفرق الوندالية بلاد «الغال» (فرنسا) دخلت الى اسبانيا فى خريف عام ٤٠٩ م .

وقد تعرضت بعض الفرق الوندالية لضربات قاسية ابيدت اثناءها قبيلة سيلنتق ، واضطرت أفراد قبيلة «الان» الى الذوبان فى شعب (الهاسونيق) الذى تمكن من تجنب الكارثة بهروبه الى جنوب اسبانيا حيث استطاع ملكهم «غوانداريك» ان يستولى على قرطاجنة واشبيلية وان ينتزعهما من سلطة الرومان ، وبذلك وضع الوندال أيديهم على سواحل اسبانيا ، واستولوا على المنطقة الغربية من البحر الابيض المتوسط ، بفضل الاسطول الاسبانى ، فاستولوا على جزر الباليار ، وما لبثوا أن اولوا انتباههم الى شواطىء الشمال الافريقى ، خصوصا بعد ما لاحظه ملكهم «جينسيريك» خلف وشقيق (غونداريك) من ثورات نوميديا ضد سلطة الرومان .

وسواء أكان قدوم الوندال الى الشمال الافريقى ، نتيجة لطلب (بونيفاس) الوالى الرومانى على أفريقيا الثائر فى وجه حكومته ، كما يقول بعض المؤرخين ، أم انها كانت نتيجة ملاحظة ملك الوندال الذى عرف أن الوقت ملائم للقيام بتوسع فى منطقة الشمال الافريقى ، كما يقول البعض الاخر ، فالواقع أن اختلاف المؤرخين فى تقدير أسباب قدوم الوندال لا اهمية له ، لان كلا التقديرين ينطلق فى الحقيقة من مصدر واحد وهو انهيار سلطة روما بسبب ثورة الوطنيين ضدها .

ومهما يكن من شىء ، فان جينسيريك لم يترك الفرصة تمر ، فتقدم بجيوشه الى نوميديا ، وحاصر بونة وهزم أعداءه الرومان عام ٤٣١ م ، ثم أبرم اتفاقية (بونة) فى ١١ فيفرى مع الرومان ، وهى اتفاقية كان يهدف ملك الوندال من ورائها الى ربح الوقت ، ريثما يتم اعداد قوته العسكرية لطرد الرومان نهائيا من أفريقيا ، وقد ظهرت هذه النية واضحة فى هجومه المفاجىء على قرطاجنة فى ١٩ اكتوبر ٤٣٩ .

وبعد أن تأكد الرومان من عبث محاولاتهم لقهر الوندال اضطروا الى ابرام معاهدة جديدة مع الوندال فى ٤٤٢ أخذ هؤلاء بمقتضاها أغنى الاراضى والمناطق بينما اكتفى الرومان بأخذ المناطق الفقيرة والثائرة .

نظـــام الوندال :

لم يدخل الوندال اى تغيير ادارى يذكر على الوطن الجزائرى ، بل أبقوا لساكنيه نظامهم القديم وولاتهم ومجالسهم البلدية .

لكن النظام العقارى تغير تغييرا كبيرا : فقد استولى الوندال بالعنف على الاراضى الجزائرية ، ووضعوها تحت ملكية أفراد العائلة المالكة والشخصيات البارزة فى النظام . وبينما أعفى جنسريك الوندال من الضرائب على الارض، فرض ضرائب باهضة على الاراضى الفقيرة التى بقيت فى ملك الوطنيين ، بحيث تستنفذ كل مردود الارض .

وقد اكتشفت فى سيبتمبر ١٩٢٨ عدة الواح خشبية جنوب تبسة ، تسجل بعض الصفقات التى أبرمت بشأن بعض المنازل ، وتعين على كشف النظام العقارى فى عهد الوندال ، اذ انها ترجع الى ما بين ٤٩٣ و ٤٩٦م ولم يقتصر التمع على ميدان الملكية العقارية ، بل تجاوزه الى ميدان العقيدة ، فقــد سلط جنسريك قمعا شديدا على المسيحيين — أفارقة كانوا أو رومان — وحجز الكنائس وأموالها .

وحاول جنسريك فى نفس الوقت أن يضع حدا للانحلال الاخلاقى الذى كان متفشيا فى المجتمع الرومانى ، بواسطة فرض عقوبات مشددة تتمثل فى ابعاد المنحلين الى الصحراء ، وكان الحكم الذى يتمتع به ملك الوندال حكما مطلقا ، وعلى الاخص منذ عام ٤٤٢ بعد أن قضى على رقابة النبلاء ومجلس الشعب ، أما نظام الوراثة فقد وقع تعديله وأصبح اكبر أبنـــائه وأحفاده سنا هو الذى يعتلى العرش ، دون مراعاة للبنوة المباشرة .

ومن الطبيعى فى نظام مطلق مثل هذا ان لاتوجد اى فرق بين ميزانيـــة الدولة وصندوق الملك الخاص وقد سك الملوك الوندال عملة خاصة بهم ، واستعملوا لذلك المعامل القرطاجنية ، كما يدل على ذلك التشابه الموجود بين النقود الرومانية والنقود الوندالية .

ولئن تذوقت الشخصيات الوندالية الحياة السهلة فى القصور الرومانية فان جنسريك قد حال دون ان يندمج الوندال فى الرومان ، بواسطة تمييزه بين الوندال والرومان ومنع الزواج بين الطرفين

وبقدر ما كانت دولة الوندال مهيبة الجانب فى عهد جنسريك ذى الشخصية القوية ، بقدر ما انهارت بعد موته ، اذ لم تجد ملكا فى مثل قوة شخصيته .

والخلاصة ان تاريخ الوندال كان حافلا بوقائع الاضطهاد واعمـــــال التخريب ، وهى وقائع يبدو ان المؤرخين الرومان بالغوا فى تهويلها .

أما فيما يتعلق بالجزائر ، فلم يكن للوندال بها غير مراكز عسكرية قليلة ، وتبعا لذلك كانت سلطتهم ضئيلة على سكان الجزائر .

انتهاء دولة الوندال :

في شهر ماي ٥٣٠ م ثار الجيش على ملك الوندال هلدريك واستولى جلمير على الحكم . وهو من احفاد جنسريك . وقد كان جوستنيان الامبراطور البيزنطى ، يحلم ببعث أمبراطورية روما القديمة ، فوجد فى ثورة جلمير على هلدريك فرصة للتدخل فى شؤون افريقيا ، وطلب من جلمير أن يترك العرش لهلدريك . لكن جلمير رفض ، فقرر جوستنيان ابرام السلم مع فارس ونقل الحرب الى افريقيا ، على الرغم من أن الخبراء كانوا مجمعين على نصحه بالتخلى عن مثل هذه المحاولة ، وقدم الروم البيزنطيون فى سنة ٥٣٣ الى افريقيا ففتحوا قرطاجنة ، وحاول جلمير المقاومة ، لكنه انهزم واستسلم للروم عام ٥٣٤ .

البيزنطيون :

عهد الامبراطور البيزنطى لقائده بليزير بقيادة الحملة الافريقية فتوجه بليزير بعد فرار جلمير الى بونة فاحتلها ، ثم وجه قسما من جنده الى مدينة قيصرية عن طريق البحر فاستولى عليها ، ثم فتح سبتة ، وقد أقام البيزنطيون خطا من الحصون فى المناطق التى احتلوها اهمها مركزا قسنطينة وقالمة . وفى سنة ٥٣٩ فتحوا أوراس والحضنة ومنطقة سطيف لكنهم لم يتمكنوا من تدعيم سلطتهم فى أوراس فاكتفوا باتخاذ حصون قوية شماله . أما ماعدا ذلك من أنحاء الوطن الجزائرى فلم يحتل منه البيزنطيون سوى بعض المراسى مثل رسقوناى وتيبازا وقيصرية ، وهى مراسى لم يبلغوها الا عن طريق البحر .

وقد قسم البيزنطيون الجزائر الى قسمين : نوميديا وهى الجهات الشرقية من الوطن الجزائرى ، وموريطانيا الثانية وهى تلك المراسى التى لم يكن لهم أية سلطة فعلية على ما حولها .

وجعلوا لكل من القسمين رئيسا . وبعد مدة أضيفت موريطانيا (عمالة الجزائر) الى عمالة سطيف .

وقد سلك جوستنيان سبيل الرومان ، فأسكن الجنود على خط الحدود ومنحهم الاراضى ليستعمروها . وقد علم على ضوء الاحتلالات السابقة أن ذلك كله غير كاف لحفظ ما استولى عليه جيشه ، فاستمال بعض رؤساء القبائل ، منحهم القابا شرفية وخصص لهم مرتبات سنوية ضخمة .

نوميديا
موريطانيا القيصرية
موريطانيا الطنجية
قرطاج
هدرونت
تافاست
سيرتا
تيمقاد
تيميستد
لامبيز
سطيف
شرشال
طنجة
فولبيليس
لبتيس مانيا
الحدود القصوى للإحتلال الروماني
المناطق الجبلية التى لم يحتلها الرومان مطلقا

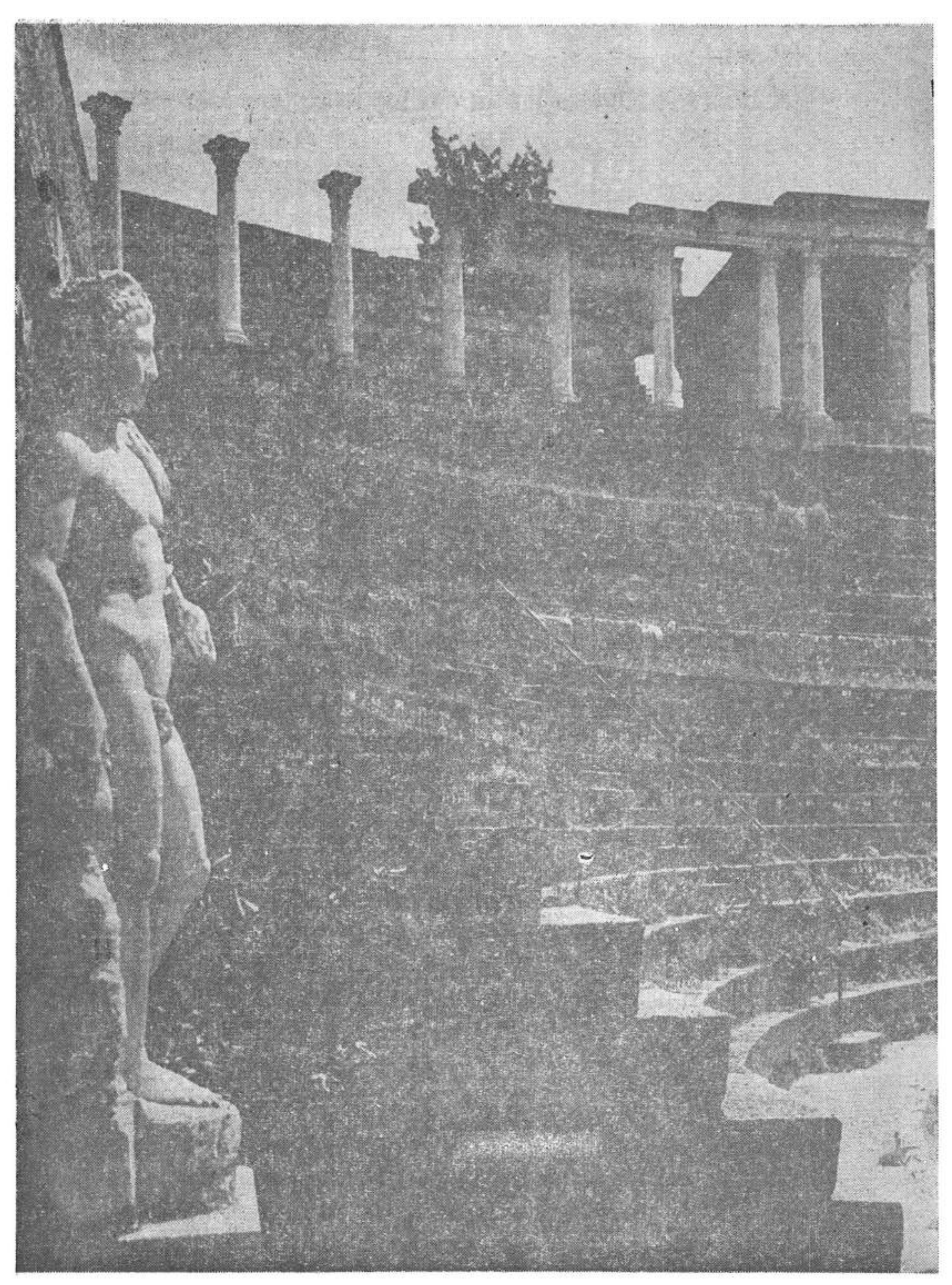
الثورات الشعبية :

لكن ذلك لم يجـــد البيزنطيين ، فقد ثــارت قبائــــل نوميديـــا المستقرة كما ثارت القبائل الصحراوية المتنقلة ، ومعنى ذلك أن البيزنطيين كانوا يحاربون على واجهتين : واجهة ضد المزارعين المستقرين ، وواجهة ضد الرعاة المتنقلين ، وقد أدرك البيزنطيون أن اتحاد المزارعين مع الرعاة سيشكل خطرا ماحقا يقذف بهم الى البحر ، فبذلوا كل ما استطاعوا من أموال ، ليحولوا دون ان يتحقق هذا الاتحاد . الا أن محاولات التفرقة تجنب البيزنطيين غمار حرب شاقة وطويلة تزعمتها شخصيات بربرية قوية مثل «بيداس» الذى كان على جبل أوراس ، ومثل «ارتياس» الذى على غربى الاوراس الى الحضنة ، ومثل «يناس» الذى كان على شرقى أوراس — وقد كان هؤلاء الثلاثة ، أمراء مستقلين بنواحيهم ، وتمكنوا من استرجاع كثير من الاراضى التى كان احتلها الرومان ، ورفعوا من جديد شعار «أرض البربر للبربر» .

وليس أدل على عنف المقاومة الشعبية ضد البيزنطيين من الحصـــون الحربية والاسوار التى أحاطت بسرتا وقيصرية وسطيف وتيمقاد وميلة وقصر الصبيحى وقالمة ومداوروش وتبسة .

وهذا هو السر فى ضعف السلطة البيزنطية التى لم تستطع أن تصمد فى وجه الفتح العربى عام ٦٤٧م ، فانقرضت بعد ما لبثت ١١٣ سنة كلها حروب على الرغم من أن البيزنطيين حاولوا استمالة سكان الجزائر بوسائل مختلفة منها الدين واستعمال التهديد بعقاب الله على الثورة ، لكن موقف السكان الوطنيين لم يتأثر بهذه المحاولة ، كما يدل على ذلكك الجواب الذى أجاب به الثوار الجزائريون على انذار وجهه لهم قائد بيزنطى، وهو جواب نقله المؤرخ «بروكوب» وقد جاء فيه ما يلى :

«ان المسيحيين يحاولون أن نكون حلفاء لهم وأصدقاء ، دون ان يقدموا لنا خيرا ، وبالرغم من المجاعة التى حملوها لنا ، انه لن يتعرض لعقاب الله أولئك الذين يهاجمون السراق لاسترجاع أملاكهم الخاصة ، بـــل يتعرض لتلك العقوبة أولئك الذين يبدأون الحرب ليستحوذوا على أملاك الآخرين .»



المســرح العتيــق بقالمــة

القسم الثانـــي

الحكم المركزي الاسلامي فى المغرب العربي

- ظهـور الاســلام وآثــاره الحضارية
- رسالة الاسلام التحريرية في المغرب العربي

ظهور الإسلام وآثاره الحضارية

فى سنة ٥٧٠م . ولد محمد بن عبد الله . وعندما بلغ الاربعين تنزل عليه الوحى وظهر الاسلام وعماده القرآن والسنة فسالم المشركون محمدا (ص) أول الامر ، ثم حاربوه ورموه بالكذب والجنون ، حتى اذا هاجر الى المدينة .

كان الشأن فيها غيره فى مكة ، اذ فشا الاسلام هناك بين سكان المدينة من أوس وخزرج .

ولئن كان التاريخ قد عرف ، قبل محمد دعاة وثوريين لامعين ، لعبوا دورا سياسيا هاما ، فان التاريخ سجل ايضا ان أولئك الدعاة والثوريين لم يعرفوا كيف يشقوا طريقهم بين مختلف القوى السياسية المتجاذبة مثلما فعل محمد (ص) الذى استطاع فى وقت قصير جدا ، أن يقيم كيان دولة وسط ظروف اجتماعية واقتصادية ، كانت كلها ضد تكوين دولة مركزية ، فى مثل تلك القوة والمتانة والاصالة والاشعاع . ومن الجدير بالتسجيل فى هذا المجال ان محمدا لم يكن فقط رجل دعوة لفظية ومصدر نظريات ، مثل معظم الدعاة والثوريين الذين تكون مقدرتهم قاصرة على الميدان النظرى لا تتجاوز الى ميدان العمل ، وذلك السبب فى ان أولئك الدعاة والثوريين وجدوا الى جانبهم دائما رجل عمل يأخذ عنهم النظرية ، ويعمل على تطبيقها بالقوة . فقد كان محمد رجل دعوة وثورة نظرية ، ورجل عمل يعمل بنفسه وبيديه على تغيير الواقع الذى جاء لتغييره، ويباشر المشاكل اليومية ويعالجها علاج الثورى الذى لا يهمل الواقع ، لا علاج الحالم الغارق بين نظريات الخيال . وبقدر ما تمثل المرحلة المكية مرحلة وجوده فى مكة ، المرحلة التى ظهر فيها رجل الدعوة التى يعتمد على قوة الكلمة والنظرية الجديدة المبدعة بقدر ما تمثل المرحلة المدنية ، مرحلة ما بعد الهجرة ، المرحلة التى ظهرت فيها شخصية محمد كرجل دعوة وكثورى يحقق بنفسه ما يدعو اليه ، ويساهم بنفسه فى بناء أسس الغد المشرق الذى بشر بنوره من خلال ظلمات مكة .

ولو ان الدولة التى انشأها محمد ، ودعمها ، كانت تستمد قوتها فقط من قوة شخصيته ، لكانت تلك الدولة قد انهارت بعد وفاة محمد . . لكن تلك الدولة ما لبثت أن خطت خطوات عملاقة شرقا وغربا ، وأن هضمت

اهم الحضارات القائمة ، لتسلط على العالم ظل حضارة اصلية وجديدة ما يزال العالم اليوم يعيش على حسناتها .

ذلك أن محمد ا لم يحاول ان يجعل شخصه مصدر كل السلطات والقوانين فالقرآن ، بوصفه كلام الله ، هو مصدر القانون وهو أساس للتشريع .. لكن القرآن لا يقول كلمته الا فى المسائل الاساسية ، وفى المناسبات العظيمة ، فكان فى استطاعة محمد أن يحتكر كل الميادين التى ترك له القرآن حرية المبادرة فيها . لكن محمدا لم يحتكر أى ميدان واقر بنفسه نظام الشورى ، فكان يرجع ، كما أمره القرآن ، الى ذوى الراى أى الى ممثلى الراى العام ، يناقشهم المسائل الهامة ، ويبحث معهم المشاكل التى تعرض هنا أو هناك . وبذلك اقر نظاما ديموقراطيا أصيلا بالنسبة الى ظروف ذلك العهد .. وكان ذلك احد الاسباب الاساسية التى جعلت تلك الدولة التى انشأها صغيرة فى يثرب ، تتحول الى دولة عملاقة تبسط نفوذها وسلطانها على الشرق والغرب .

وما أن رفع الله محمدا الى الرفيق الاعلى حتى انطلق المسلمون يحملون الى أرجاء الدنيا رسالة محمد وتعاليم محمد ، وقد أظهر الاسلام والعربية التى كانت تمشى فى ركابه — اظهرا تفتحا كبيرا للحضارات الاخرى ، فقد تلاقحت الثقافات والافكار والاداب والفنون . وتولد عن هذا التلاقح الفن المعمارى الاسلامى ذى الطابع المتميز . ولم تتردد الدولة الاسلامية ، وهى فى عز انتصارها — فى أن تفتح أحضانها للمفكرين والاطباء الاجانب ، فلم يضيقوا عليهم الخناق بعنوان العصبية العرقية أو الدينية ، بل فتحوا لهم مجال العمل ، وأسندوا اليهم مهام هامة وضخمة ، مثل تكوين الاطارات الاسلامية فى مجال الطب والهندسة والعلوم ، فقد كان الاطباء الدستوريون يتمتعون بسمعة واحترام كبيرين ، وكان القساوسة المسيحيون يمارسون داخل اجهزة الدولة الاسلامية مهام ادارية معتبرة ، نظرا لمعارفهم فى الطب والهندسة ، وبواسطة هذا التفتح استطاع الاسلام أن يكون خير وارث لاهم المكاسب العلمية اليونانية .

لكن تفتح الاسلام لم يقتصر على هضم التراث الفكرى اليونانى فقط . فقد استطاع بفضل اتصاله بالتراث الهندى ان يهضم ثقافة حضارية اخرى تختلف كل الاختلاف عن الثقافة اليونانية . مما أدى الى طبع الحضارة الاسلامية بطابع انسانى شمولى عالمى .

نعم لقد كانت التجارة بين سكان الجزيرة العربية والهند قائمة منذ قرون لكن فتح مصر مكن المسلمين من امتلاك كامل الطرق التجارية مع الهند . مما جعل الاتصال بالهنود يزداد اتساعا ، وهو اتصال تم فى الهند وفى عدة مناطق أخرى على شواطىء المحيط الهندى مثل الزينزيبار ومدغشقر ، حيث

تعاون التجار العرب مع الافارقة والهنود فى كل ما يتصل بتجارة العـــاج والذهب .

ومن الملاحظ أن الامويين بنوا فى مدغشقر قرى على شاكلة القـــرى العربية مما يدل على اتساع نطاق الاتصال مع العالم الهندى ، فليس من المستبعد والحالة هذه ، أن يكون العرب قد اطلعوا منذ القرن الســــابع الميلادى على الاعمال الهندية فى علم الجبر .

وفى نفس الوقت تقريبا شرعت بعض المدارس الفكرية فى سوريا فــــى تعريب بعض مؤلفات أرسطو ، وهى مهمة تواصلت بعد ذلك بجد ونجحت نجاحا كبيرا ، وبذلك حققت الحضارة الاسلامية الجمع بين المعارف الهندية واليونانية ، وهى مهمة كانت حاولتها قبل ذلك فارس الساسانية ، ولم تنجح فى تحقيقها .

ان هذه المهمة التى ابتدات فى العهد الاموى تواصلت فى العهد العباسى على نطاق أوسع واكثر شمولا ، وعلى الاخص فى عهد هارون الرشيد وابنه المأمون ، فهرون الرشيد كان قد أدرك فى ساعة مبكرة من شبابه قيمـــــة الثقافة اليونانية فأمر بتعريب عدة مؤلفات يونانية ولم يكتف بذلك فأراد الاطلاع على الثقافة الهندية التى راى بذورا منها من خلال اتصاله بعلماء الفرس ولذلك عمل على اجتذاب أطباء من الهند ، وكان يقارن بين نظريات واساليب المدرسة الهندية والمدرسة اليونانية فى الطب ، ويثـــير التنافس بينهما . ولا أدل على تقدير الرشيد للعلم والعلماء من ذلك المشهد الشهير الذى أراد أن يعرب فيه للملأ عن عميق تقديره للعلم ، بغسله ليدى عالم عربى كبير ، أمام جمع غفير .

وبعد موت هارون الرشيد ، سارع ابنه المأمون فور انتصاره على اخيه الامين فى توجيه البعثات العلمية الى اليونان والهند لشراء كل المخطوطات التى يمكن شراؤها ونسخ المخطوطات الاخرى . وقد حدث أن اشترط فى احدى انتصاراته العسكرية على الامبراطـــور الاغريقى ميشيل الثالث فى معاهدة السلم التى أبرمها معه ، أن يسلم اليه بعض المؤلفات اليونانيـــة النادرة .

وتدل محاولـــة المأمون قياس الدرجات الارضية على الفـــرق النوعى الذى كان موجودا بين جو الخلافة العباسية وجو الامبراطورية البيزنطيـــة وهى حقيقة يؤكدها أنشاؤه لدار الحكمة وتشجيعه بالجوائز الضخمـــــة للمترجمين ، وهكذا ازدهرت فى ذلك العصر العلوم الرياضية والفلكية وكل فروع العلم والفن والادب .

وهكذا كانت الحضارة الاسلامية (انسانية) بأتم معنى الكلمة ، وهذا هو السر فى انتشارها ذلك السريع غربا وشرقا ، من حلب الى بخارى ، ومن القاهرة الى قرطبة ، حاملة معها حيث ذهبت الرغبة فى العلم والمعـــرفة وانشاء المكتبات والمدارس الادبية والعلمية . ومن الجدير بالتسجيل فى هذا المجال ان الحضارة الاسلامية لم يقتصر تاثيرها على المناطق التابعة للدول الاسلامية ، بل لقد تجاوزتها بكثير ، فاجتماع الشواطىء الغربية والشرقية والشمالية من البحر الابيض المتوسط تحت سلطة واحدة ، وكذلك أهم جزر البحر الابيض المتوسط مثل الباليار وصقلية ، ادى الى بعث تجارة حوض البحر الابيض المتوسط ، بكيفية مكنت الثقافة العربية من ان تسير جنبـــا الى جنب مع الدينار العربى وتنفذ معه الى المناطق الخارجة عن ســيطرة الدول الاسلامية ، واصبح الابيض المتوسط الــذى كان يغلب عليه الطابع اللاتينى بحرا عربيا، وجذبت الثقافة العربية اليها حتى القساوسة المسيحيين فى اوروبا الغربية الى درجة ان بعضهم تخلى عن استعمال اللاتينية رغــم طابعها الدينى الى استعمال اللغة العربية والكتابة بها .

والملاحظ ان حمى المعرفة التى هزت بغداد ، انتقلت عـــــدواها الى الامبراطورية البيزنطية التى أصبح ملوكها يحاولون تقليد الخلفاء المسلمين فى الاعتناء بالعلوم . بل لقد حدث امر غريب يتمثل فى أن بحث العرب عن نوادر ومؤلفات الفكر اليونانى أحيا عند اليونانيين انفسهم الرغبـــة فى البحث ، مما اثار عند الامبراطورية البيزنطية الاعتناء بالفكر اليونانى أدى الى نوع من الانبعاث اليونانى فى بيزنطة ، فبعد ثلاثين سنة من انشـــاء (دار الحكمة) فى بغداد ، انشئت مدرسة مماثلة فى بيزنطة ، وفى هـــذه الفترة بالذات اصبحت بيزنطة تعتمد نفس المقاييس العربية الاسلامية فى اختيار العلماء ، فلم تعد تشترط فيهم ان يكونوا مسيحيين .

لكن رد الفعل الطيب هذا فى العاصمة المسيحية لم يدم طويلا فسرعان ما قاومت الكنيسة المسيحية الرسمية هذا الاتجاه الذى رات فيه خطرا على كيانها، وسرعان ماسلطت تهمة «السحر» على علماء مثــل «فونيوس» والبطريق يوحنا ، وليون الفيلسوف ـــ وشيئا فشيئا توصلت الكنيســة المسيحية الى تعقيم الجهود العلمية الناشئة ، مما ادى الى ازدهار التفاهة فى أوساطها ، حتى أصبحت بيزنطة علما على المناقشات الفارغة الجامدة العقيمة .

وليس من المستبعد القول بأن سير بيزنطة فى طريق الجمود والعقــم والتفاهة، كان من بين المؤثرات غير المباشرة التى أدت الى بروز العناصر العسكرية العديمة الثقافة، مما اسفر عن تحويل مدار الصراع بين الغرب والشرق او بين الاسلام والمسيحية من الميدان الفكرى، الى صراع عملى

المناطق الترابية ، وهذا التحول الخطير أدى الى انتشار الروح العصبية الدينية الضيقة، فظهرت فى الغرب المسيحى الروح الصليبية، التى مهدت فى ردود الفعل ضدها بالمشرق الى ظهور الاتراك كقوة عسكرية ساعدت على تعقيم الفكر الاسلامى وتجميده .. ولم يكن ينفع، مع هذا التحول الخطير، أن تصبح القسطنطينية هى عاصمة الخلافة الاسلامية، لانها ورثت فيما ورثته، عن بيزنطا، روح الجدل العقيم والمناقشات البيزنطية .

وهذا هو السبب فى توقف الاكتشافات العلمية والفكرية والاسلامية رغم الامكانيات التى كانت ما تزال موجودة عندها والتى استهوت شعبا مثل التتار الذين دخلوا فى الاسلام رغم انتصارهم العسكرى على دولته .

وليس من العجيب أن يظهر ، مع ذلك التحول . علماء يسخرون الدين لخدمة الحكام الطغاة، فأشاعوا بين الشعب الاحاديث والتعاليم التى تؤيد السلطان الحاكم بوصفه « ظل الله فى أرضه » . وبذلك حولوا الدين عن مهمته الروحية، الى مادة تخدير للشعب تستعمل فى تنويمه وفى اجهاض الثورات التى قد تعتمل فى وسطه .

رسالة الاسلام التحريرية في المغرب العربي

عند مقدم العرب الى الشمال الافريقى كان التنظيم الاجتماعى بالجزائر يكتسى أشكالا مختلفة هى نتيجة التحولات وردود الفعل التى نجمت بها بعد الاحتلال الرومانى ومحاولات الاحتلال الوندالى والبيزنطى ، اذ يبدو ان القبائل التى كان دفعها الاحتلال الرومانى الى الجبال قد نزل بعضها الى السهول لاسترجاع بعض القواعد الاقتصادية ، ويدل تكوين مملكه «جدار» على قيام تنظيمات سياسية قوية دفعت المحتل الاجنبى عن عدة مناطق هامة من الوطن . أما الجهات التى ظل المحتل الاجنبى يسيطر عليها فقد احتفظت بأشكال التنظيم الرومانى القائم على استعمال الرق وعبيد الارض الى ابعد حد ، لكن الثورات الشعبية المتعددة ، قد أثرت على هذه الجهات نفسها اذ ضاعفت التفكك الاجتماعى دون أن تقيم مكانه تنظيما اجتماعيا جديدا ، ومما زاد فى هذا التفكك الذى يلاحظ فى الجهات التى ظل المحتلون يسيطرون عليها مدة طويلة ، هو ردود الفعل المختلفة من اقبال على اعتناق الديانة المسيحية فى مرحلة أولى ، ثم ارتداد عنها عندما اصبحت هى الدين الرسمى للمستعمر ، وما قابلت به السلطة الاستعمارية هذه المواقف من قمع سياسى واضطهاد دينى .

اذن فقد زال ذلك الانسجام النسبى الذى كان موجودا فى عهد ماصينصا، ليترك المكان لسلسلة من الاضطرابات الاجتماعية نجمت عن تكدس السكان الوطنيين فى المناطق الجبلية بعيدا عن السلطة الاجنبية ، وهو تكدس من شأنه أن يدفع الوطنيين باستمرار الى محاولة استرجاع السهول التى افتكت منهم .

ويمكن القول باختصار : أن الجزائر كانت ، مذ مقدم العرب ، على الرغم من التحولات التى طرأت عليها منذ عهد ماصينصا ، منظمة تنظيما تلقائيا ضد السيطرة الاجنبية مما جعلها تحرز منذ القديم على الشهرة بحب الاستقلال والحرية .

ويعد مجىء العرب الى المغرب العربى ، استمرارا للمعركة التى كانت قائمة بين الاسلام وبين الروم البيزنطيين فى المشرق ، فمنذ ان هزم المسلمون الفرس فى وقعة القادسية (١٦ هـ) أمسكت الخلافة الاسلامية بزمام الزعامة فى مصارعة الغرب ، وتقلد العرب المسلمون مكان الزعامة فى الصراع

العالمى ، الذى تمثل المعركة ضد الروم البيزنطيين اقوى حلقات ذلك الصراع ، الذى ابتدا فى الواقع قبل ذلك ، اذ تمت واقعة أجنادين سنة ١٣هـ ، واليرموك سنة ١٥ هـ وهما معركتان كانتا فاصلتين فى ازالة النفوذ البيزنطى عن بلاد الشام وفلسطين . وتتابعت الفتوحات والانتصارات الاسلامية على الروم البيزنطيين فشملت مصر وامتدت الى برقة وافريقية والمغرب .

العرب فى الشمال الافريقى :

دخل العرب الشمال الافريقى فى عهد عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين . ففى سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ م) صدر الامر من الخليفة الى والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى بالهجوم على افريقيا الشمالية ، فقدمها الى أن التقى مع الوالى البيزنطى جرجير صاحب سبيطلة (الواقعة فى الجمهورية التونسية) فانتصر عليه وفتح سبيطلة ثم قفصة وقصر الجم . وبعد ذلك طلب سكان أفريقيا (تونس الحالية) الصلح ودفعوا لابن ابى سرح مبلغا ماليا كبيرا ، فعاد اثر ذلك الى مصر .

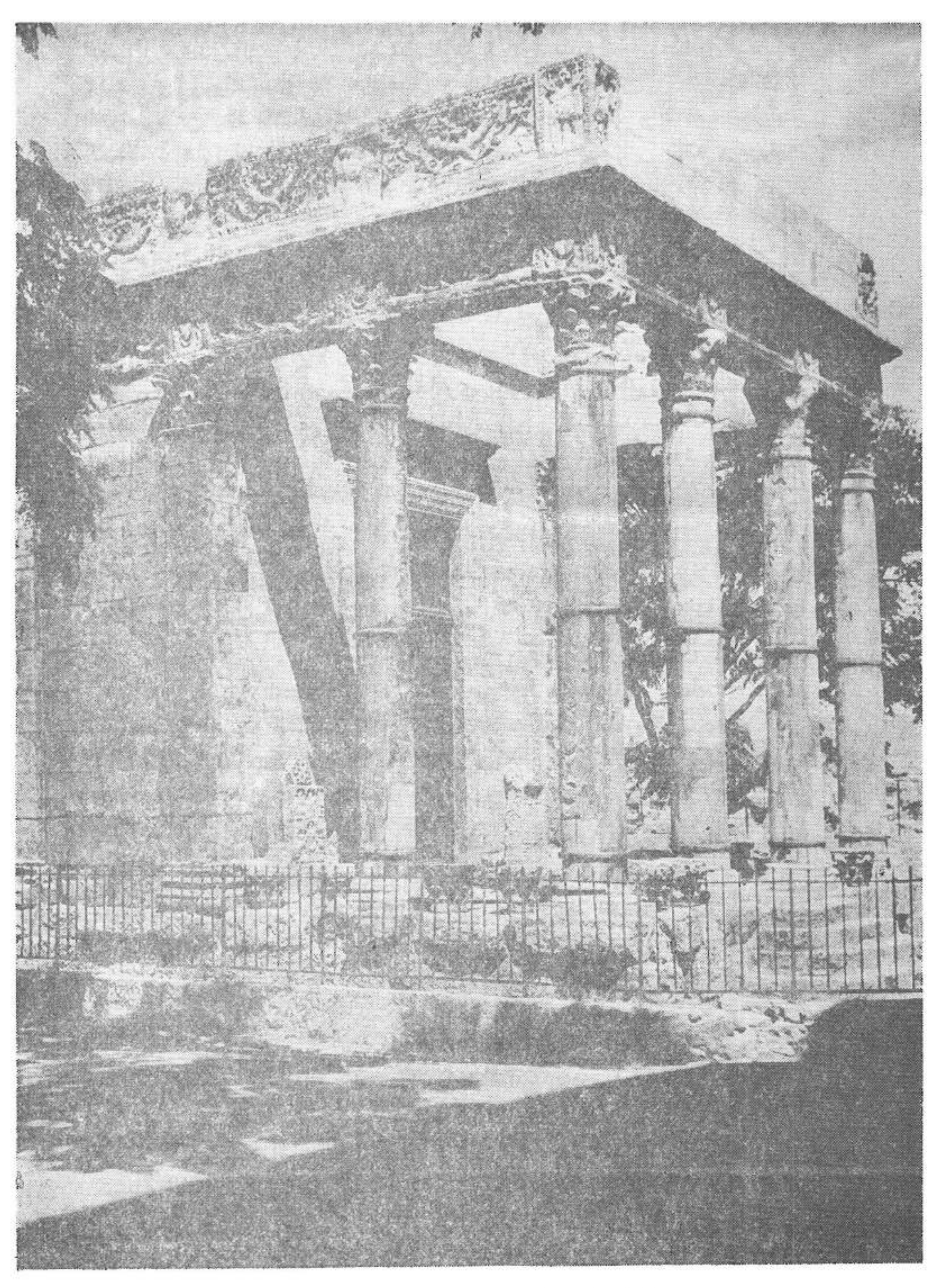
بعد مغادرة ابن ابى سرح لافريقيا حدثت اضطرابات ونزاعات بين مختلف المسؤولين البيزنطيين لم يعتن بها العرب لانهم كانوا عنها فى شغل بالازمة السياسية التى نجمت عن مقتل عثمان بن عفان فى دار الخلافة .

وما أن استقر الحكم على يد معاوية بن ابى سفيان حتى عادت الخلافة الى التفكير فى فتح الشمال الافريقى ، فوجهت لذلك معاوية بن حديج الذى دخل أفريقيا عام ٤٥ هـ (٦٦٥ م) فهزم البطريق البيزنطى عند قصر الجم ، وفتح سوسة وبنزرت وجربة .

وبعد ذلك — سنة ٤٦ هـ أو بعدها قليلا — وجه الخليفة الى أفريقيا عقبة بن نافع الفهرى ثم عينه واليا عليها فى سنة ٥٠ هـ (٦٦٩ م) فأسس مدينة القيروان ، ثم عزله معاوية وولى على مصر وافريقيا معا مسلمة بن مخلد .

العرب فى الجزائر :

فى سنة ٥٥ هـ (٦٧٥ م) استعمل مسلمة ابن مخلد على أفريقيا ابا المهاجر دينار ، فقدمها وخرب المدينة التى اسسها عقبة وأقام أخرى قريبا منها ، ثم سار فى اتجاه المغرب الاوسط ، الجزائر ، حيث التقى بالملك البربرى كسيلة الذى انهزم قرب تلمسان ، ويقال انه أسلم ، والمؤكد أن ابا المهاجر أستمال كسيلة وجعله مستشارا يرجع اليه في كل ما يتعلق بالبربر .



من الآثار الرومانية «معبد مينيرف بتبسة»

لكن عندما افضت الخلافة الى يزيد بن معاوية ، أعاد عقبة ابن نافع الى ولاية افريقيا ، فبادر عقبة بالانتقام من ابى المهاجر ، كما نكب صاحبه الملك البربرى كسيلة ، ثم واجه البيزنطيين والبربر فى عدة معارك فى مدينة باغاى وفى مدينة تازولت وفى الزاب وفى تيهرت ، وبعد ان بلغ المغرب الاقصى عاد الى القيروان .

وعلى الرغم من أن عقبة وضع ابا المهاجر فى الاسر ، فقد نصحه ابو المهاجر بكسب مودة كسيلة واستمالته وحذره من مغبة سياسة الشدة لكن عقبة استهان بنصيحة أبى المهاجر ، حتى دفع حياته ثمنا لتلك الاستهانة . ذلك أن «كسيلة» اغتنم فرصة صرف عقبة لجنوده فى مدينة (طبنة) فأرسل الى قومه يعلمهم بذلك ، وبعث ايضا الى الكاهنة صاحبة الأوراس، فأقبل البربر فى جموع عظيمة احاطت بعقبة وصحبه الذين استشهدوا عن آخرهم .

ويبدو فعلا أن سياسة الشدة التى انتهجها عقبة هى التى دفعت كسيلة الى الثورة عليه ، بعد أن كان قد قر عزمه على التعاون مع العرب يدل على ذلك تفاهمه مع أبى المهاجر . وهناك من المؤرخين من يؤكد — مثل غروت — أن كلمة البربر كانت قد اتفقت على قبول رآسة كسيلة ، فلو أن عقبة بن نافع سلك سياسة أبى المهاجر لكان قد وفر على نفسه وعلى من خلفوه معارك عديدة . وقد تمكن كسيلة من دخول القيروان ، وبسط منها نفوذه على مناطق هامة من أفريقيا والمغرب الاوسط طيلة خمس سنوات ، مغتنما فيها فرصة الاضطرابات التى نجمت بالمشرق من جراء ثورة عبد الله بن الزبير

وعندما استقر الامر لعبد الملك بن مروان ، أرسل عام ٦٧هـ (٦٨٦م) المدد الى زهير الذى تمكن من قتل كسيلة . وقد وقع زهير فى نفس الخطر الذى وقع فيه عقبة ، فاطمأن الى انتصاره ، وقفل عائدا الى المشرق فاستشهد فى الطريق ببرقة (ليبيا) .

بعد ذلك كلف حسان بن النعمان بمواصلة مهمة الفتح فخرجت الكاهنة لمواجهته ، واسمها «دهيا بنت ينفاق»، واصطدم الجمعان بوادى مسكيانة بين عين البيضاء وتبسة، وكان النصر حليف الكاهنة . وانهزم حسان بن النعمان الى برقة وظل بها ينتظر المدد الى ان جاءه فى عام ٧٤هـ (٦٩٣م) . فخرج الى الكاهنة التى تحصنت بعاصمتها «تيسدورس» وناوشت العرب خلال مدة الحصار التى استمرت ستة اشهر، الى أن يئست من الانتصار ، فاقبلت على الموت بثبات .

اثر مقتل الكاهنة دخل حسان أوراس ، وعرف حسان كيف يستفيد من غلطة عقبة ، فاستمال اكبر ابنى الكاهنة ، وولاه على جبل أوراس وقومه جراوة .

ومن الجدير بالتسجيل في هذا المجال ان الكاهنة كانت قد اضرمت النيران فى المزارع ظنا منها ان مهمة المسلمين الغزو الاقتصادى ، بناء على مثال المحتلين الاجانب السابقين ، وغفلت عن الدافع الحقيقى الكامن وراء الفتوحات الاسلامية وغلطة الكاهنة هذه ادركها ابناها ، فاعتنقا الاسلام بعد أن ادركا حقيقته

لكن عاصمة الخلافة الاسلامية لم تدرك حينذاك أهمية الشمال الافريقى فجعلته تابعا لولاية مصر، ونتج عن هذا الخطأ فى التقدير عدة متاعب فى ادارة البلاد ، فعلى الرغم من المهارة التى اظهرها حسان بن النعمان فى ادارة البلاد وفى سياستها فقد عزله والى مصر، مما تسبب فى اضطراب حبل الامن الى مقدم موسى بن نصير .

لكن أبناء نوميديا ادركوا حقيقة الغاية التى جاء بها العرب ، وهذا ما يفسر السرعة التى أقبل بها ابناء نوميديا على الاسلام بسرعة ، وبقاءهم عليه ووفاءهم له ، ان هذا الاقبال على الاسلام بهذه السرعة قد

ادهش كل المؤرخين الغربيين ، الذين لاحظوا أن الاسلام والعربية قد قضيا بسهولة على المحاولات التى بذلتها اللاتينية والمسيحية خلال قرون طويلة ، لربط مصير المغرب العربى بالغرب الاوروبى . ولسنا فى حاجة الى الالحاح على أن وضوح العقيدة الاسلامية وبساطتها بالاضافة الى العوامل السابقة دفعت البربر الى الاقبال على الاسلام واعتناقه . ولذلك لم يتردد البربر فى الثورة عام ١٠٢هـ (٧٢٠م) على الوالى يزيد بن ابى مسلم عندما اراد أن يفرض عليهم الجزية وهم مسلمون ، لان ذلك يتنافى مع ما الفوه من وضوح فى تعاليم الاسلام ومن بعد عن الاطماع المادية وقد فهم الخليفة يزيد ابن عبد الملك حقيقة تلك الثورة . فأقرها وقبل بالوالى الذى اختاره البربر بعد قتلهم ليزيد بن أبى مسلم .

القسم الثالث

الحكم اللامركزي الاسلامي فى المغرب العربي

- الدولة الرستمية او الحكم الشعبي
- الفاطميون أو دولة صنهاجة المزدهرة
- الحماديون واستمرار عهد الاستقرار
- المرابطون أو فترة الملثمين
- الموحدون بناة المغرب العربي

الدولة الرستمية أو الحكم الشعبي

رأينا فى الفصول السابقة مبلغ تعلق أبناء الجزائر بالاستقلال وشديد تمسكهم بالحرية ، وعديد ثوراتهم ضد المحتلين الاجانب . لكن اعتناقهم للاسلام واقبالهم عليه بعد اقتناعهم بعدالة مبادئه ، ادخل تغييرا جذريا على مفهوم الثورة عندهم ، لان تداخل السلطة السياسية مع سلطان الدين يجعل كل ثورة تنجم عرضة لان تؤول بأنها خروج عن الدين ، رغم أنها قد تكون فى أساسها شرعية ، عندما يكون ممثل السلطة ظالما ، لانه حينذاك يكون قد ظهر فى مظهر من حرف الدين وشوهه.

ان هذا التداخل بين السلطة السياسية وبين سلطان الدين ، هو الذى استغله المؤرخون الغربيون فى تقديم بعض التأويلات لبعض احداث التاريخ فى الجزائر : فأولوا اعتناق المذهب الخارجى بأنه ستار للثورة على الاسلام ، وأرادوا أن يجعلوا انتشار المذهب الخارجى عبارة عن رد فعل جزائرى ضد الاسلام والعرب .

فى حين ان الحقيقة أبسط من ذلك بكثير : فاعتناق المذهب الخارجى من طرف الجزائريين كان فى الواقع محاولة جدية للذهاب بالاسلام الى أعماقه والرجوع به الى بساطته ووضوح مبادئه التى كانت أكبر عامل من عوامل انتشاره بتلك السهولة وذلك اليسر .

ولاشك أن صرامة المذهب الخارجى ودعوته الى المساواة المطلقة فى ظل الاسلام والى أهلية كل مسلم لتقلد منصب الخلافة ان توفرت فيه شروطها. وقوله بشرعية الثورة على الخليفة عندما يحيد عن كتاب الله وسنة رسوله — كل ذلك قد استهوى بعض القبائل البربرية فى الشمال الافريقى ، وجعلها تسير فى تيار الثورة مع الخوارج ضد الخلافة الرسمية .

وقد ظهرت أول حركة قام بها الخوارج ، فى الشمال الافريقى عام ١٢٢هـ (٧٣٩م) عندما ثار البربر برئاسة مسيرة المطغرى وقتلوا عامل طنجة وبايعوا «مسيرة» بالخلافة ، ثم قتلوه متهمين اياه بالهوادة . ومن جهات طنجة انتشر المذهب الخارجى بين القبائل البربرية التى كانت قد نشرته بينها دعاة أبى الخطاب من طرابلس الغرب . وبعد حروب واضطرابات عديدة ظهر المذهب الاباضى على غيره من المذاهب الخارجية ، وقامت أربع امارات خارجية هى : امارة بنى رستم بتيهرت ، وامارة بنى دمر وهم قوم

من زناتة موقعهم بين الحضنة ومتيجة ، وامارة هوارة غربى مستغانم ، وامارة بنى مسرة فى ناحية سعيدة .

تأسيس الدولة من سنة ١٤٤ ﻫ الى ٢٩٦ ﻫ :

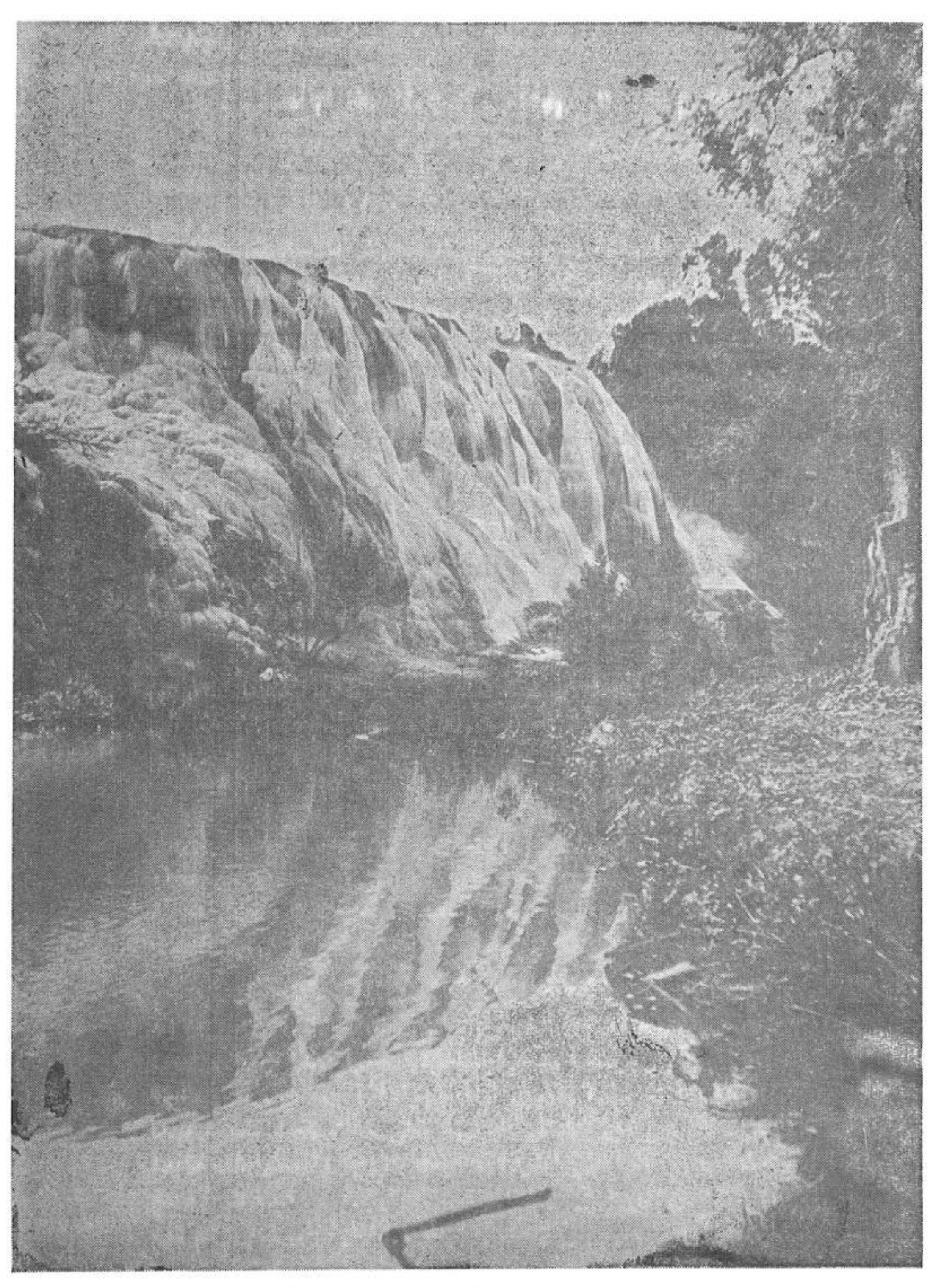
تنتسب الدولة الرستمية الى عبد الرحمن بن رستم الذى عينه أبو الخطاب واليا على القيروان سنة ١٤١ﻫ ، (٧٥٨م) لكن مقتل ابى الخطاب أثر على جيش عبد الرحمن بن رستم فتفرق عنه ، فلم يجد بدا من مغادرة القيروان وتوجه الى المغرب الاوسط . فنزل بنواحى تيهرت فى جبل منيع ، وقد حاول ابن الاشعث ، الذى كلفه أبو جعفر المنصور بمحاربة الثوار الخوارج ، أن يحاصر الجبل المذكور ، لكن دون جدوى ، وعندما سمع الاباضية بمقام ابن رستم قصدوه من كل مكان ، فاشتد ساعده وفكر مع أصحابه فى تأسيس مدينة تكون رمز استقلالهم ، فأنشأوا مدينة تيهرت التى أصبحت هى عاصمة الدولة الرستمية .

وتقع الدولة الرستمية بين امارة الاغالبة شرقا والادارسة غربا، لكنها تمتد جنوبا الى ورقلة ووادى ريغ وتتسع هناك حتى تشمل الجريد وجبال دمر الى طرابلس وجبال نفوسة .

وتتقيد الدولة الرستمية بالكتاب والسنة ، ويعين رئيس الدولة بالانتخاب مدة حياته ، أو بالعهد اليه من سلفه ، ويلقب بالامام والخليفة وامير المؤمنين ، وللامام مستشارون يقومون مقام الوزراء وقد اشتهر الائمة الرستميون بالزهد والتواضع . وعندما توفى عبد الرحمن بن رستم فى ١٦٨ﻫ (٧٨٤م) بويع ابنه عبد الوهاب الذى اتسع نطاق الدولة الرستمية فى عهده اتساعا كبيرا وتوفى عام ١٨٨ﻫ (٨٠٣م) فخلفه ابنه افلح وتوارث أبناؤه واحفاده بعد ذلك الامامة الى عام ٢٩٦ﻫ (٩٠٩م) عندما قتل آخر أئمتهم اليقظان بن ابى اليقظان على يد الشيعة .

الحضارة الرستمية :

عنى الرستميون بنقل الكتب التى تظهر بالمشرق منبع الحركة الفكرية الاسلامية ، واعتنوا خاصة بالعلوم الدينية ، وقد كان الائمة الرستميون أئمة فى العلوم والآداب قبل أن يكونوا أئمة فى السياسة . فعبد الرحمن بن رستم كان مفسرا ، كما برز ابنه عبد الوهاب فى العلوم الدينية ، ونبغ افلح فى الادب .



حمام معدني «حمام المسخوطين» قرب قالمة

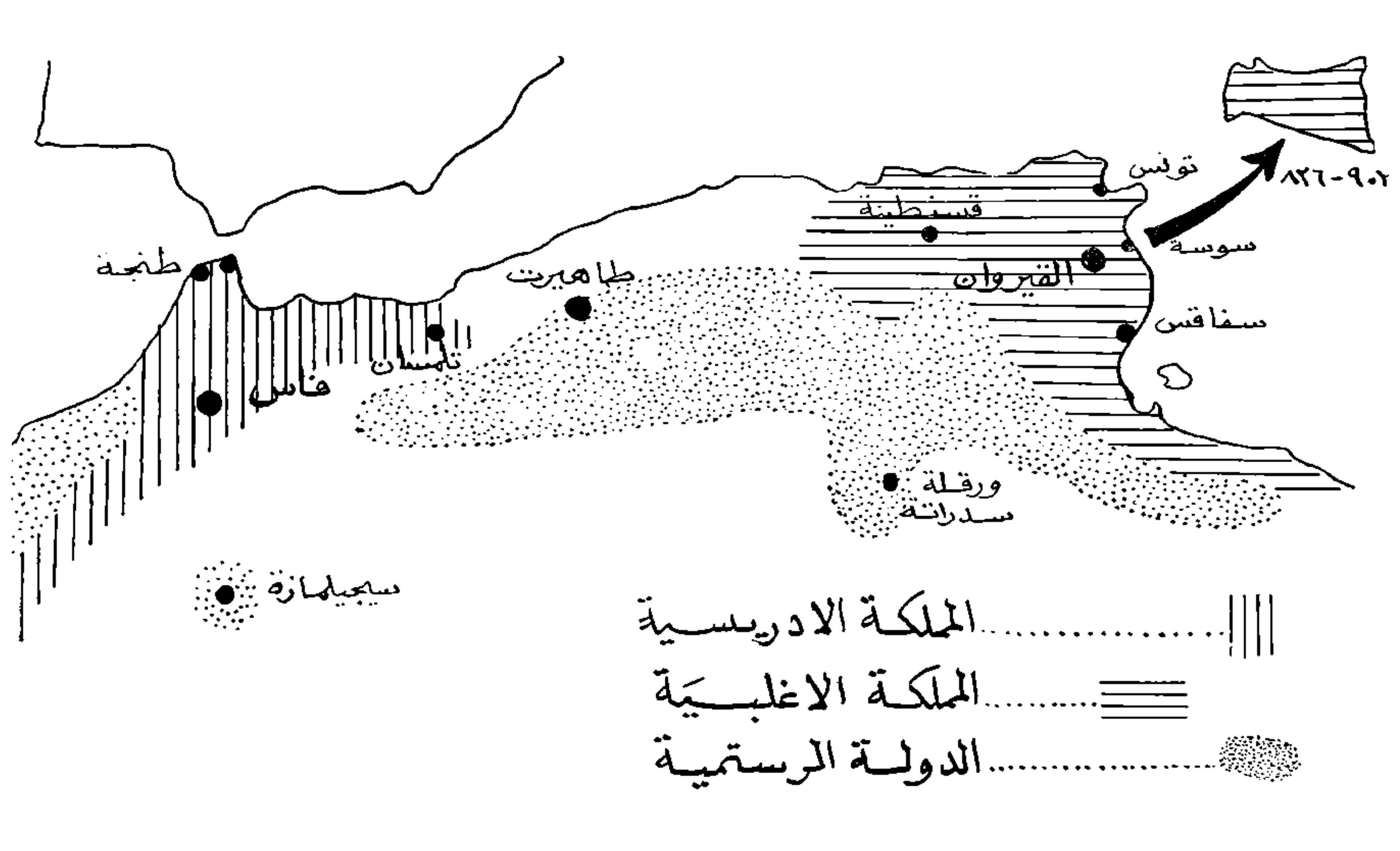
وكانت اللغة العربية هى لسان الدولة الرسمى ومن الجدير بالتسجيل ان الصرامة التى اشتهر بها الخوارج لم تكن لها نتائج سلبية داخل الدولة : فقد افسحت الدولة الرستمية الاباضية المذهب ، المجال للمذاهب الدينية الاخرى التى كانت لها مدارسها وعلماؤها . وهذا التسامح الذى اتسمت به الدولة الرستمية يؤكد الباعث الحقيقى الذى دفع البربر المسلمين الى اتباع المذهب الخارجى ، وهو البحث عن المساواة الحقة .

وقد ازدهرت دولة «تيهرت» اذ اصبحت هى العاصمة العالمية للمذهب الخارجى ، يؤمها الخوارج من جميع الارجاء التى يلاقون فيها اضطهادا. وبذلك أصبحت مركزا غنيا بالاطارات والكفاءات العلمية والخبرات التجارية والاقتصادية ، ومن بين العوامل التى اعانت على ازدهار الدولة الرستمية واستقرارها أن الظروف التى كانت تسيطر على العالم الاسلامى ساعدت على استقرارها : فدولة بنى العباس فى المشرق ، بالرغم من عدائها المبدئى للدولة الرستمية ترى ان وجودها لازم لحفظ التوازن بالمغرب العربى، حتى لا تفكر الامارة الاغلبية فى الانفصال عن السلطة المركزية بالمشرق، كما أن الاغالبة خشوا ان هم دخلوا فى حرب مع الدولة الرستمية ، أن يؤدى ذلك الى اضعافهم معنويا والى استغناء المشرق عن خدماتهم .

وبفعل هذا الازدهار ، تطورت التجارة فى ظل الدولة الرستمية تطورا كبيرا جعل من تيهرت مركزا اقتصاديا هاما تتجاوز اهميته حدود الدولة ، ومما زاد فى الاهمية الاقتصادية للمدينة ، أن تيهرت كانت تسيطر على طريق الذهب الوارد من السودان فى اتجاه حوض البحر الابيض المتوسط . وعلى الرغم من أن الآثار التى عثر عليها فى مدينة صدراته ، — قرب ورقلة — التى لجأ اليها الاباضيون بعد سقوط تيهرت — تكشف عن الصرامة التى عرف بها المذهب الاباضى قد طبعت مختلف مظاهر العمران، فان الحياة الاقتصادية تطورت بكل حرية فى ظل التسامح الذى تميزت به الدولة الرستمية التى عاشت فى ظلها عدة طوائف دينية أجنبية عن الاسلام ، فضلا عن المذاهب الاسلامية الاخرى . ويبدو أن سقوط الدولة الرستمية أمام ضربات الشيعة ، لم يكن راجعا الى وجود ضعف داخلى فى الدولة ، بقدر ما كان راجعا الى عدم اهتمام الدولة اهتماما كبيرا بتدعيم وتطوير قوتها العسكرية .

الحياة الثقافية على عهد الرستميين :

مرت الفترة الاولى من حياة الادب بالجزائر عقب الفتح العربى بمرحلة مخاض واختمار ، ولما كان القرن الثانى والثالث نبغ أهالى البلاد فى شتى



طنجة
فاس
تلمسان
طاهرت
سجلماسة
ورقلة
سدراتة
تونس
قسنطينة
القيروان
سوسة
سفاقس
٩٠٢-٨٢٦
المملكة الادريسية
المملكة الاغلبية
الدولة الرستمية

مناحى الثقافة ، وخصوصا الثقافة الدينية التى كان لها الايثار فى تيهرت ومختلف المراكز العلمية بالجزائر . ذلك لان الائمة الرستميين كانوا علماء دين ، ورؤساء مذهب يتطلب من اهله دوما أن يستعدوا للدفاع عنه بالحجة والبرهان ، فنشطت الحركة العلميـة وصارت مملكتهـم ومركز دولتهـم «تيهرت» مسرحا لاهل المذاهب الدينية والفكرية من خوارج حضرية ومعتزلة وغيرهما واشهر أعلام هذا العصر فى مختلف العلوم هم :

١ ــ ابو الفضل أحمد بن القاسم التميمى البزاز .

٢ ــ الشيخ ابو سهل البارع فى اللغتين العربية والبربرية واكبر المؤلفين بالبربرية .

٣ ــ أبو عبيد الاعرج وكان يقرىء كتب الادب بتيهرت كاصلاح الغلط لابن قتيبة .

٤ ــ ابن الصغير صاحب تاريخ الرستميين .

٥ ــ يهود بن قريش التاهرتى الذى كان متضلعا فى عدة لغات كالعربيـة والبربرية والعبرانية والارمنية والفارسية ، واهتم بالبحث المقارن فى اللغات وسعى فى انشاء اسس النحو التنظيرى «المقارن» .

٦ ــ افلح بن عبد الوهاب الذى كان أحد الائمة الرستميين وقد اشتهـر بالعلوم الدينية والشعر وله قصيدة فى الحث على العلم وشرح مزايـاه مطلعها :

العلم ابقى لاهل العلم آثـارا   يريك اشخاصهم زوجـا وابكارا

٧ ــ بكر بن حماد التاهرتى الاديب الشاعر ، هو اكبر شاعر انجبته شمال افريقية فى القرن الثالث ، وتجلت فيه عبقرية الجزائر الادبية مبكرة

ولد بتاهرت حوالى سنة ٢٠٠ هـ ونشأ بها وقرأ مبادىء العلوم على اساتذتها ثم ارتحل الى المشرق سنة ٢١٧واخذ عن علمـائه ، والتقى بفحول أدبائه من أمثال أبى تمـام ودعبل وعلى بن الجهم وصريع الغوانى وغيرهم ثم عاد الى القيروان ومنها الى تيهرت ، وتوفى بها سنة ٢٩٦ هـ .

وكان هذا الشاعر يتزعم الحركة الزهدية فى الادب بالجزائر وتونس كما كان يتزعمها ابو العتاهية بالمشرق .

وقد طرق موضوعات كثيرة غير الزهد كالوصف والرثاء وغيرهما وأجاد فيها . ومن مقاطيعه فى الوصف قوله يصف برد تيهرت :

ما اخشن البرد وريعانه
واطرف الشمس بتاهريت

تبدو من الغيم اذا ما بدت
كانما تنشر من تخت

نفرح بالشمس اذا ما بدت
كفرحة الذمى بالسبت

وقال يرثى ولده :

بكيت على الأحبة اذ تولوا ولو انى هلكت بكوا عليا
فيا نسلى بقاؤك كان ذخرا وفقدك قد كوى الاكباد كيا
كفى حزنا بأنى منك خلو وأنك ميت وبقيت حيا
ولم أك آيسا فيئست لما رميت الترب فوقك من يديا
فليت الخلق اذ خلقوا بواق وليتك لم تكن يا بكر شيا
فلا تفرح بدنيا ليس تبقى ولا تأسف عليها يا بنيا
فقد قطع البقاء غروب شمس ومطلعها على يا اخيا
وليس الهم يجلوه نهار تدور له الفراقد والثريا

وأما شعره فى الزهد فشعر ممتاز كما يبدو من المقطوعة التالية :

لقد جمعت نفسى فصدت وأعرضت وقد مرقت نفسى فطال مروقها
فيا اسفى من جنح ليل يقودها وضوء نهار لا يزال يسوقها
الى مشهد لا بد لى من شهوده ومن جزع للموت سوف أذوقها
ستأكلها الديدان فى باطن الثرى ويذهب عنها طيبها وخلوقها
سحاب المنايا كل يوم يظله فقد هطلت حولى ولاح بروقها
وللنفس حاجات تروح وتغتدى ولكن حدثان الزمان يعوقها
تجهمت حمسا بعد عشرين حجة ودام غروب الشمس لى وشروقها
وأيدى المنايا كل يوم وليلة اذا فتقت لا يستطاع رتوقها
يصبح اقوام على حين غفلة ويأتيك فى حين البيات طروقها

الفاطميون أو دولة صنهاجة المزدهرة

الدولة الادريسية ١٨٤ ﻫ الى ٢٩٦ ﻫ :

تنسب هذه الدولة الى ادريس بن عبد الله العلوى الذى فر بعد هزيمة حزبه فى معركة ضد العباسيين قرب مكة ، فتوجه الى الشمال الافريقى ، لكن الأغالبة كانوا يسيطرون على افريقيا (تونس وقسم من شرق الجزائر) لحساب العباسيين والدولة الرستمية كانت تسيطر على المغرب الاوسط ، فلم يجد ادريس بدا من التوجه الى ناحية طنجة ومنها الى مدينة وليلى أواخر عام ١٧٢ ﻫ (٧٨٩ م) حيث نزل على صاحبها اسحاق رئيس قبيلة أورابة الذى استجاب لدعوته وعززه ، وتطورت دعوته حتى أسس الدولة الادريسية ، وهى كسائر الحكومات الاسلامية لكنها تختلف عنها فى أنها كانت حكومة لامركزية ، اذ ان كل عامل من الادارسة والعلويين كان مستقلا بادارة عمله وجباية الخراج واشهار الحرب . وهذه اللامركزية اقتضتها طبيعة الوطن الذى كان اهله يكرهون الحكومة المركزية .

وقد حاول ادريس ، بعد تأسيس دولته بالمغرب الاقصى أن يتوجه لفتح المغرب الاوسط ، فأقام بتلمسان ثلاث سنوات ثم رجع الى المغرب الاقصى بعد أن ضبط الحدود بينه وبين الاغالبة .

وفى هذا العهد نشأت مملكة (هاز) ومملكة (متيجة) . فمملكة « هاز » كانت تشمل ناحية البويرة وتمتد الى نواحى قصر البخارى مشتملة على جهات عين بسام وسور الغزلان وسيدى عيسى . وقد استمرت هذه المملكة حتى ظهرت دعوة الشيعة فقوضتها ، وكانت مدينة هاز تقع فيما بين المسيلة واشير .

اما الجزائر الاغلبية ، أى اقسام الجزائر التى كانت واقعة تحت نفوذ الاغالبة ، فكانت تشمل نواحى باغية وتيجس وميلة وسطيف وبلزمة ونقاوس وطبنة ومقرة وادنة . وقد سقطت الدولة الاغلبية على يد الدعوة الشيعية سنة ٢٩٦ ﻫ (٩٠٨ م) .

ظهور عبد الله المهدى :

ذلك ان ابا عبد الله الشيعى نزل نزل بفرجيوة من ارض كتامة سنة ٢٨٠هـ (٨٩٣م) . واخذ فى تمهيد الامر لعبيد الله المهدى الذى نسبت اليه الدولة العبيدية التى أصبحت بعد انتقال مركزها الى مصر تعرف باسم الدولة الفاطمية .

ابتدأ أبو عبد الله بنشر المذهب الاسماعيلى ، من مذاهب الشيعة ، واخذ يذكر قرب ظهور المهدى . وسرعان ما قوى أمر أبى عبد الله ، حتى نجح فى اخراج عبيد الله المهدى من الاسر ، فبويع البيعة العامة وتلقب بالمهدى . وقد بادر عبيد الله المهدى فور انتصاره بتأسيس المهدية .

وقد دخلت (تيهرت) فى حكم العبيديين سنة ٢٩٦ هـ فجعلوها قاعدة المغرب الاوسط ، ودخلت وهران فى عمل تيهرت سنة ٢٩٨ هـ (٩١٠ م) .

الجزائر بين العبيديين والامويين :

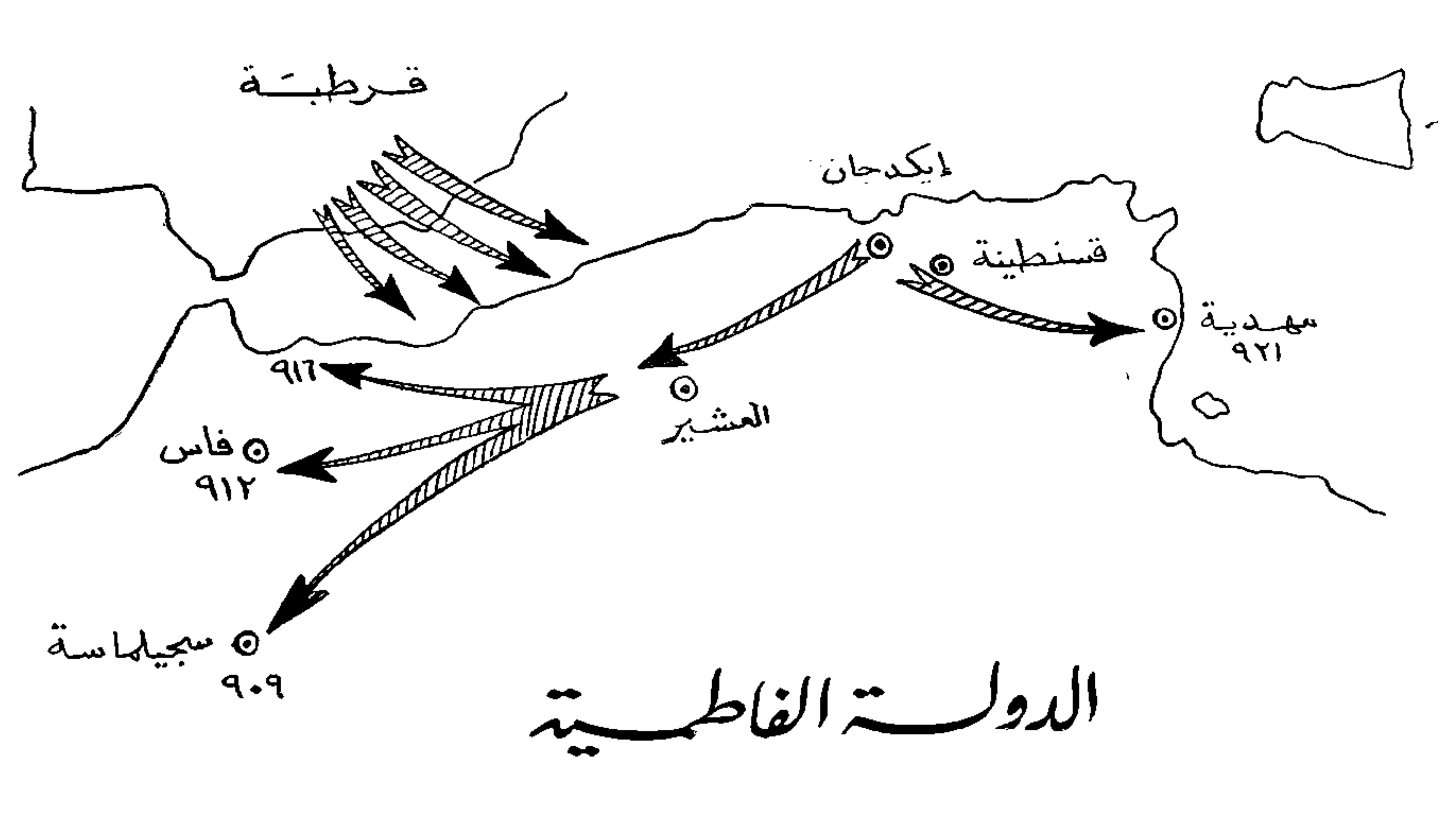
ايدت العبيديين قبيلة كتامة ثم صنهاجة ، وحاربتهم زناتة ، فاغتنم البيت الاموى المالك فى الاندلس هذه الفرصة فاتصل بزناته التى اصبحت نصيرة للامويين ، ووقعت معارك جديدة بين الجانبين لم تكن فاصلة ، الى ان تمكن بلقين بن زيرى الصنهاجى من هزيمة زناتة عام ٣٦١ هـ (٩٧١ م)، واجلاها عن الزاب ، ثم اجلاها عن المغرب الاوسط عام ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) فتفرقت زناته فى المغرب الاقصى .

(٤٠٥هـ ١٠١٤م — ٥٤٧هـ ١١٥٢م)

الجزائر الصنهاجية :

فعندما فتحت مصر للمعز الفاطمى ، قرر عزمه على الرحيل اليها ، وترك مكانه على المغرب بلقين بن زيرى الصنهاجى ، على الرغم من ان كتامة كانت اسبق فى احتضان الدعوة الفاطمية من صنهاجة، لان صنهاجة كانت موالية لزناته . وفعلا فقد جدت صنهاجة فى اخضاع زناتة .

لكن بلغ من سعة سلطان صنهاجة ، ان تخوف منها العبيديون ، فأغروا كتامة بمحاربتها ، لكن صنهاجة انتصرت ، وشعر ملوك صنهاجة بدسائس العبيديين ، فجاملوهم ظاهرا ، الى ان اعلن المعز بن باديس الصنهاجى


قرطبة
ايكدجان
قسنطينة
مهدية
٩٢١
العشير
٩١٦
فاس
٩١٢
سجيلماسة
٩٠٩
الدولة الفاطمية

قطع دعوة العبيديين سنـــة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨م) ودعا للعباسيين والواقع ان المملكة الصنهاجية تفرعت الى فرعين منـــذ ٤٠٥هـ (١٠١٤م) عندما استقل حماد بن بلقين بالوطن الجزائرى ، فأصبحت لصنهاجة دولتان : شرقيـــة عاصمتها المنهورية ثم المهدية ، وغربية عاصمتها القلعة فبجاية .

الهلاليون بالجزائر :

قـــرر الفاطميـــون الانتقـام من صنهاجـــة بعـد انفصـالها عنهـم فأرسلوا عليهم قبائل سليم وهلال التى كانت انتقلت قبل ذلك من الحجاز الى الصعيد . ودخل الهلاليون الجزائر من ثلاث جهات : جهة الساحل : القالة وعنابة وقسنطينة الى القل الى جبال بابور ، وجهة الهضاب ما بين الاطلسين التلى والصحراوى ، حتى انتهوا الى وادى الساحل والبيبان ، وجهة الصحراء ، التى تقدموا اليها عن طريق تبسة وجنوب أوراس .

وقد ترتبت عن هذا النزوح الهلالى عدة نتائج سيئة اذ انتشرت الفوضى ، وكثرت الاضطرابات ، وانقطعت المواصلات بين المدن والريف ، وانعدم الامن ، وفر الفلاحون من الضواحى المحيطة بالمراكز الهامـــة ، وانحصر العمران فى السواحل شمال قسنطينة حيث لم تقع اصطدامات بين العرب والبربر ، ذلك أن الدولة الصنهاجية الغربية ، وان كانت اسبق الى قطع الدعوة الفاطمية من صنهاجة الشرقية ، عادت الى الدعوة الفاطمية عندما قطعتها صنهاجة الشرقية وبذلك تمكنت الدولـــة الصنهاجية الغـــربية — الحمادية — من تجنيب وطنها اضرار الحملة الهلالية .

وقد دفعت الحملة الهلالية ، البربر الذين اشتهروا بتفضيل المواقع الجبلية المحصنة — دفعتهم الى تأسيس امارات بحرية فى «بجاية» ، لكن تأسيس هذه الامارات جاء متأخرا عن أوانه ، لان النورمان كانوا قد استقروا فى جنوب ايطالية وفى صقلية فحالوا دون تطور امارة بجاية .

الحماديون واستمرار عهد الاستفزاز

اسس حماد بن بلقين الدولة الحمادية عندما اعلن قطع الولاء للفاطميين فى عام ٤٠٥هـ (١٠١٤م) وتمتد المملكة الحمادية غربا الى فاس ، وامتدت شرقا الى تونس فشملت أحيانا مدينة تونس نفسها والقيروان وصفاقس والجريد ، وامتدت جنوبا الى الزاب ووادى ريغ وورقلة . وكانت عاصمتها الاولى هى اشير .

وتعتبر الدولة الحمادية اول دولة بربرية بالجزائر الاسلامية ، وكانت مستقلة استقلالا تاما ، غير أن ملوكها ظلوا مرتبطين بالولاء الاسمى للخلافة الفاطمية أو العباسية حسب الظروف .

ويتلقب رئيس الحكومة بالامير او الملك ، والطابع الغالب على تنظيم الدولة الحمادية هو الطابع الحربى نظرا لما كان يحيط بها من اخطار دائمة.

الحضارة والعمران :

لكن الحماديين عنوا مع ذلك بحفظ الامن واستثمار خيرات المملكة ، فنشطت الفلاحة ، وكثرت المزارع ، وازدهرت الاسواق التجارية ، وتعددت الصنائعوالحرف ، وما زاد فى ازدهار المملكة الحمادية أيام النزوح الهلالى ان الناس فروا اليها هروبا من الهلاليين ، كما فر اليها مسلمو صقلية وقد ساعد هذا العمران على نشوء حضارة من أرقى الحضارات قال عنها المؤرخ الفرنسى جورج مارسى : «حوالى سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٥م) صارت القلعة مدينة تجارية عظيمة وارفة الخيرات ، قصدها ارباب الصنائع من المشرق وافريقيا ، ويبدو أن صناعة الفخار بلغت حينذاك بها مبلغا عظيما . وآثار الحضارة الحمادية لا نظير لها ببقية وطن البربر . وقد كان النورمان مغرمين بالحضارة الحمادية ، فأقاموا قصور بلوم (بصقلية) على شكل قصور بجاية»

وقد أنشأ الحماديون القصور الفخمة فى مختلف المدن ، كما اسسوا المساجد ورفعوا المنائر ، وبنوا القناطر واسسوا المدينتين العظيمتين : القلعة التى اشتهرت بقلعة بنى حماد ، وبجاية التى اقاموها على أنقاض صلداى . وقد اختار الحماديون موقع القلعة على مقربة من مدينة المسيلة التى كانت مركزا تجاريا هاما تلتقى عنده القوافل الآتية من افريقيا السوداء

والذاهبة فى اتجاه تلمسان وتنس وتيهرت والقيروان . وتعتبر مدينة بجاية هى الميناء الطبيعى للقلعة . وقد تطور العمران تطورا كبيرا فى القلعة التى اشتهرت بمنسوجاتها الرفيعة وتطور العمران بعدة مدن هامة تابعة للدولة الحمادية مثل ـ بسكرة ـ المسيلة ـ سطيف ـ قسنطينة ـ بجاية ـ مليانة ـ المدية ـ ومدينة الجزائر .

وفى بداية القرن الثانى عشر الميلادى انتقلت عاصمة المملكة الحمادية من القلعة الى بجاية التى اصبحت حينذاك هى اهم مدينة فى الشمال الافريقى كما سجل ذلك الادريسى . ويرجع تطور مدينة بجاية الى موقعها على البحر من جهة ، والى العلاقات التجارية التى كانت تربط بينها وبين أروبا ، كما يدل على ذلك اطلاق كلمة «بوجى» بالفرنسية على الشمع الذى كان يستعمل فى وسائل الاضاءة وهو مستخدم من المواد الدهنية المستوردة من وادى الصومام . كما عرف الحماديون كيف يستغلون مناجم الحديد على نطاق واسع وقد ظهر فى العصر الحمادى العلماء والشعراء والكتاب ظهورا لا عهد للجزائر به من قبل .

ضعف الدولة :

لكن هذه الدولة القوية تسربت اليها عوامل الضعف بعد حوالى قرن وربع قرن بحيث عجزت عن مقاومة تيار الحركة المرابطية وقد حاول غير واحد من المؤرخين الغربيين ان يفسر هذا الضعف بأنه راجع الى حملة اعراب الهلاليين ، وضخموا نتائج هذه الحملة تضخيما لا يتناسب مع الواقع فالواقع أن تدخل أعراب الهلاليين فى الحياة السياسية بجزائر ذلك العصر، لم يكن عاملا من عوامل ضعف الدولة الحمادية ، ولكنه كان بدوره مظهرا من مظاهر ذلك الضعف . لان الذى حدث هو أن الاعراب استقروا على مقربة من المدن الهامة بطلب الامراء والملوك البربر، واصبحوا تدريجيا عنصرا اساسيا من عناصر الممالك البربرية .

ولهذا يجب البحث عن اسباب أخرى لضعف الدولة الحمادية ، تتمثل اولا فى تركيب الدولة المرابطية التى استولت فى غانا على منابع الذهب ، ثم سيطرت على طريقه ، فحرمت المدن الحمادية من مورد من اهم مواردها وحياتها الاقتصادية ، كما يجب تسجيل الدور الذى لعبته حملات القراصنة المسيحيين فى تدهور موانىء هامة مثل عنابة ، وجيجل والقل وشرشال وتنس التى تاثرت كثيرا من الحملات الصليبية ، تلك هى العوامل الاساسية التى اثرت على الدولة الحمادية واضعفتها ، ثم جاءت عوامل اخرى متولدة عنها مثل كثرة تدخل الاعراب فى الحياة السياسية بطلب مختلف الامراء

المتنازعين ، فزادت فى تفكيك روابط السلطة المركزية ، وجلبت الاعـــراب الى المزارع القريبـــة من المدن ، فحرمت الخزينة العامة من مورد هام من موارد الجباية .

« الحياة الادبية بالجـــزائـــر على عهد الحماديين »

يمكننا أن نقول بحـــق ان عصر الحماديين كان عصر انشاء وترقيـــة فى جميع مظاهر الحضارة ومنها الآداب والعلوم . ذلك أن ملوكهـــا العظام من أمثال حمـــاد (٣٨٧ — ٤١٩ هـ) والناصر (٤٥٤ — ٤٨١ هـ) والمنصور (٤٨١ — ٤٩٨ هـ) من ابنائه كانوا يغدقون صلاتهم على العلماء والادبـــاء فاقبلوا اليهم من كل جهة ، فازدهرت بذلك الحركة العلمية وانتعشت الثقافة بين جميع الاوساط المختلفة حتى كان العمى ينالون حظهم منها ، وقد يحفز الطموح ببعض الموهوبين منهم أن يصلوا الى مرتبة الاستاذية والاقـــراء بمختلف المجالس العلمية ، وهذه الدرجة لا تظهر فى وسط الا اذا كان أهله يتمتعون بمستوى ثقافى رفيع ، كما ذكر ذلك ياقوت الرومى .

واشهر مـــن نبغ فى هـــذا العهد ببجايـــة وغيرها من الحواضر العلميـــة الجزائرية هم : ١ — ابن حمـــديس الصقلى ٢ — محمد بن حمـــاد الذى ينتسب الى الاسرة المالكة وكان عالما وشاعرا واكثر قصائده فى وصف عمران الحماديين ببجاية والاشادة بأطلال قصورهم ، ومآثر عهدهم : ومن ذلك قوله يتحدث عن القصور الدائرة :

ابن العروسان لا رسم ولا طلل ؟ فانظر ترى ليس الا السهل والجبل
وقصر «بلارة» أودى الزمان بـــه فاين مـــا شاد مـــن السادة الاول

ومن قصائده أيضا قوله :

الا ليت شعرى هل ابيتن ليلـــــة بوادى الجوى مابين تلك الجداول؟
وهل أسمعن تلك الطيور عشيـــة تجاوب فى تلـــك الغصن البلابل ؟

ونبغ غير هذين الاديبين أعلام آخرون فى كل فن من أشهرهـــم :

١ — الفضل بن سلمة البجائى (المتـــوفى ٣١٩هـ) وكان فقيها محصلا وله من الكتب مختصر المدونة والواضحة والموازية وكتاب جامع لمسائل الموازيـــة والمستخرجة وكلها فى الفقه المالكى .

٢ — أبوبكر بن يحيى الوهرانى (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ) وكان محدثا كبيرا اخذ عنه جماعة كبيرة من العلماء .

٣ ــ محمد بن حسين الطبنى (المتوفى سنة ٣٩٤ هـ) كان اديبــا وشاعرا قال عنه ابن بشكوال انه لم يصل الى الاندلس اشعر منه ، ولم يصلنا من شعره الا ابيات قليلة .

٤ ــ ابو عمرون الوهرانى (المتوفى بعد سنة ٤٢٩ هـ) اخذ عن أعــلام الفقه بالقيروان كمحمد بن أبى زيد صاحب الرسالة ، وتضلع فى الرياضيات وكان بصيرا بالطب ماهرا فى العلاج وسافر الى الاندلس حوالى سنـــة ٤٢٩ هـ ومات فيها بعد سنوات .

٥ ــ أحمد الداودى التلمسانى (.... ؟) وأصله من المسيلة او بسكرة كان متضلعا فى العلوم القانونية وترك من التآليف كثيرا منها :
١ ــ كتــاب الواعى فى الفقــه ، ٢ ــ شرح الموطأ ، ٣ ــ الايضاح فى الرد على القدرية ، وكان من تلامذه محمد بن أبى زيد صاحب الرسالة .

٦ ــ أبو القاسم يوسف البسكرى (المتوفى سنة ٤٦٥ هـ) كان متخصصا فى القراءات ، وارتحل فى سبيل ذلك الى جميع البلدان الاسلامية الى أن استقر أخيرا بمدرسة نيسابور مدرسا وتوفى بها (سنة ٤٦٥ هـ) واشهــر تاليفه كتاب الكامل فى القراءات .

٧ ــ ابن الرمامة (المتوفى ٥٦٧ هـ) هو ابو عبــد الله محمد بن على ، ولد بقلعة بنى حماد سنة ٤٧٨ هـ وروى عن ابى الفضل النحوى التوزرى وتفقه عليه وعلى أبى محمد المقرى ببجاية ، واخذ عن أبى اسحاق ابراهيم ابن حماد وعن خاله أبى الحسنى بن محشوة بمدينة الجزائر وارتحل الى الاندلس فلقى ابن رشد الفيلسوف واخذ عنه ثم عاد الى المغرب واستوطن فاسا وتولى القضاء والتدريس بها الى أن توفى سنة ٥٦٧ هـ وكان يميل الى المذهب الشافعى وله من التآليف ١ ــ تسهيــل المطلب فى تحصيــل المذهب ٢ ــ وكتاب التبيين فى شرح التلقين لعبد الوهاب البغدادى .

٨ ــ ابو عبد الملك البونى (المتوفى حوالى ٤٤٠ هـ) وكان فقيهــا محدثا اخذ بتونس عن علمائها ثم عاد الى بونة « عنابة » وأقرأبها الى ان توفى حوالى سنة ٤٤٠ هـ .

٩ ــ الحسن بن على التيهرتى (٥٠١ هـ) كان لغويا نحويا اخــذ عــن شيوخ الاندلس بالقرن الرابع الهجرى ثم ارتحل الى المغرب واقام به وكان من جملة طلبته فيه القاضى عياض الشهير وغــيره . وتوفى فى المغــرب سنة ٥٠١ هـ.

١٠ ــ يوسف الوارقلانى (٥٠٠ ــ ٥٧٠ هـ) كان متبحرا فى شتى العلوم النقلية والعقلية ، ولد بمدينة وارقلان حوالى سنة ٥٠٠ هـ وقرأ بها مبادىء

العلوم ، ثم ارتحل الى قرطبة بالاندلس وأخذ من علمائها وأدبائها ، وكان لتبحره واجادته الادبية يشبه بالحافظ ، ثـم عاد الى بلاده ، واعتكف فى منزله على التدوين حتى أخرج كتبا عديدة منها :

١ ــ تفسير القرآن

٢ ــ العدل والانصاف فى أصول الفقه

٣ ــ مروج الذهب فى الفلسفة

٤ ــ الدليل لاهل العقول وهو اشبه بدائرة معارف صغيرة . وله غير ذلك من الكتب ، وتوفى ببلده وارقلان سنة ٥٧٠ .

وكما نبغ هؤلاء الاعلام من المواطنين العرب والبربر ، فقد نبغ طائفة من ابناء الجاليات الاجنبية التى كانت تتمتع بالعطف والعدل تحت حمايـة الحماديين . وتتمكن بسهولة من الاستنارة بالثقافة الاسلامية والتضلـع من علومها والاخذ عن أعلامها فى مختلف مراكزهم التعليمية واشهر مـن نبغ منهم فى هذا العهد هم :

١ ــ الاديب الكاتب « نسيم »

٢ ــ الاديب الكاتب « حنانيل »

٣ ــ الاديب الكاتب اسحاق بن يعقوب

المرابطون أو فترة الملثمين

ظهرت دولة المرابطين بالصحراء الافريقية ، ثم امتدت منها الى حدود السودان الغربى والمغرب الاقصى والاندلس ، وهم ينتمون الى صنهاجة اللثامية ، ولذلك عرفوا بالملثمين ، وسموا بالمرابطين لان رواد الدولة كانوا قد رابطوا فى ربوة لعبادة الله مع عبد الله ابن يس الفقيه المالكى والامير يحيى بن ابراهيم القدالى ، وتقع الربوة على نهر من انهار افريقيا السوداء النيجر أو السنغال .

وفى صفر سنة ٤٣٤ هـ. (١٠٤٢ م.) حمل المرابطون السلاح .

وعندما تولى يوسف بن تاشفين أمر المرابطين شرع فى تأسيس دولة مراكش التى وجه منها جيوشه لفتح بقية المغرب الاقصى وانحاء المغرب الاوسط ، فوجه عام ٤٧٢ هـ. قائده مزدلى لغزو تلمسان فعاث فى نواحيها ثم رجع ، وفى سنة ٤٧٤ هـ. ١٠٨١ م. سار يوسف بن تاشفين نفسه الى تلمسان ففتحها ثم استولى على وهران وتنس وبلغ مدينة الجزائر ، ثم رجع الى مراكش .

لكن حوادث خطيرة مالبثت ان حملته على الذهاب الى الاندلس حيث استنجد به أعظم ملوك الطوائف ، المعتمد بن عباد الذى رد على الملوك الذين لاموه على ذلك وخوفوه مغبة الاستنجاد بالمرابطين بكلمته الشهيرة : « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » وقد كسب ابن تاشفين سمعة كبيرة بعد انتصاره على المسيحيين فى موقعة الزلاقة الشهيرة

وظل محترما مهابا الى أن توفى عام ٥٠٠ هـ. (١١٠٦ م) عن سن تناهز المائة سنة .

فن العمارة عند المرابطين :

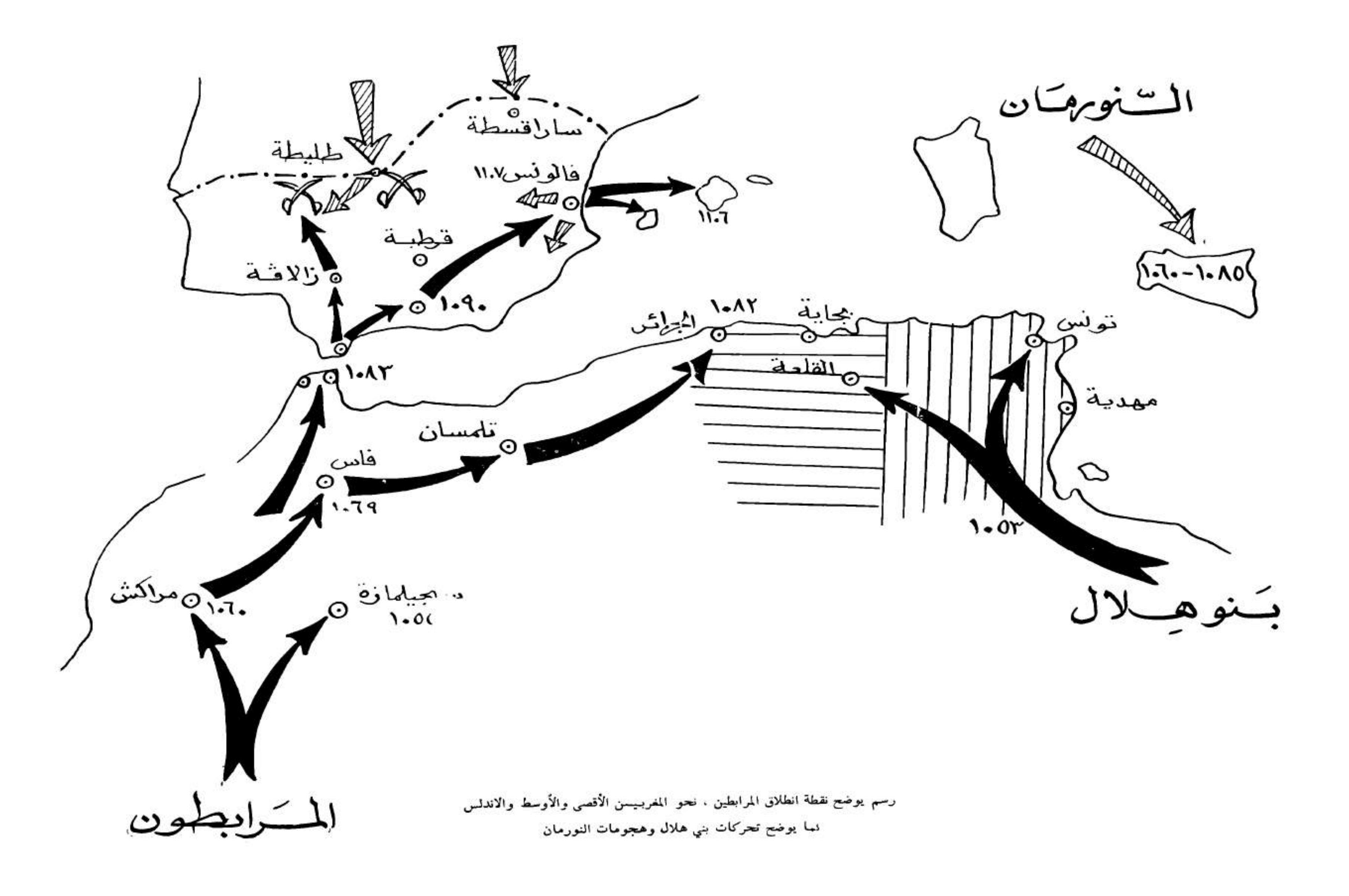
احتك المرابطون بالحظارة في الاندلس ، ورما لبثوا أن تذوقوا ترف الحضارة ، فانساقوا وهم الملثمون الذين اشتهروا بالصرامة ، فى مجرى حضارة رقيقة كشفت لهم عن ملذات أخرى غير ملذات السلاح . وهكذا دخلت الحضارة الاندلسية الى المغرب مع المرابطين فى

حركة تشبه حركــة الجزر ، بعد أن حمل المسلمون فى حركــة مدهم الى الاندلس الحضارة العربية الاسلامية . وبما ان المرابطين لــم يكونوا على اتصال بالمشرق ، فقد أخذوا من الاندلس المهندسين والصناع ، ولذلك نجد الفن المعمارى فى عهد المرابطين متأثرا بهندسة قرطبة وغرناطة .

سقـوط الـدولـة :

في ايــام على بن يوســف بن تاشفين ظهـــر بجبال المصامـــدة محمد بن تومرت واعلن الحرب على المرابطين ، وبعد وفاته خلفه عبــد المؤمن ابن على فاستولى على عدة مناطق من المغرب الاقصى ، ثم تقدم مشرقا بعد وفاة على بن يوسف بن تاشفين فبث السرايا فى منطقة تلمسان، لكن تاشفين بن على سبقه الى تلمسان فوقعت بين الجانبين معارك انتهت بانتصار عبد المؤمن بن على

وهكذا انتهت دولة المرابطين بالجزائر بعد أن عمرت بها ٦٥ سنة .



رسم يوضح نقطة انطلاق المرابطين ، نحو المغربيين الأقصى والأوسط والاندلس
كما يوضح تحركات بني هلال وهجومات النورمان

الموحدون بناة المغرب العربي

مرجع هذه التسمية المزدوجة الى رجلين هما ابن تومرت الموحدى ، وعبد المؤمن بن على . فأما ابن تومرت فهو من مواليد هرغة بجبال درن ، قام برحلات عديدة طلبا للعلم فى الاندلس والمشرق ، وعند عودته من رحلته العلمية زار العواصم العلمية والسياسية فى المغرب العربى ، وأبدى رأيه فى شؤون الحكم ، فسخط عليه الحكام وأحبته الجماهير ، وما غادر مدينة الا وترك بها سمعة واسعة وانصارا عديدين ، ثم خرج الى هلالة قريبا من بجاية فأقام بها واجتمع فيها بعبد المؤمن ابن على الكومى فاستصحبه ، وخرجا معا الى ونشريس فتلمسان وبلغ هرغة سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠م) .

وكان ابن تومرت خلال تنقلاته هذه ينشر مبادئه التى تتركب من مذهب الأشعرى فى الكلام ، ومن فكرة الامام المعصوم المأخوذة من مذهب الشيعة. وقد استغل ما كسبه من سمعة فى دعوة المصامدة ، وسمى أتباعه بالموحدين الذين شكل منهم جيشا بايعه فى رمضان سنة ٥١٥ هـ. (١١٢١ م.) وأصبح يدعى المهدى . وعندما توفى فى عام ٥١٨ هـ. (١١٢٤م.) ترك الامر لتلميذه ورفيقه عبد المؤمن بن على الكومى .

ذلك ان ابن تومرت كان له عشرة اتباع يؤثرهم على غيرهم . لكن العشرة — وكانوا من قبائل شتى — تنافسوا على خلافة ابن تومرت بعد أن سلموها لابى على عمر الصنهاجى ، ثم خافوا افتراق الكلمة ، فاتفقوا على عبد المؤمن بن على لانه كان غريبا بينهم ولان المهدى بن تومرت كان يميل اليه .

بدأ عبد المؤمن بتطبيق وصية المهدى العسكرية التى تعتبر احسن مناورة لسكان الجبال « لا تنزلوا الى السهول واتركوا العدو يصعد اليكم . »

وقد استطاع عبد المؤمن بعبقريته العسكرية والسياسية أن يقوض دعائم الدولة المرابطية واستولى على المغرب العربى كله ، خلال مراحل ثلاث : المرحلة الاولى استولى فيها على مغرب المرابطين بعد حروب دامت سبع سنوات ، والمرحلة الثانية فتح فيها بجاية التى فاجأها سنة ٥٤٧ هـ. (١١٥٢ م.) وقضى على بقايا الدولة الحمادية .

من اشياخ الموحدين الى المؤمنين :

فكر عبد المؤمن، بعد ما وطد سلطانه في طريقة يضمن بها بقاء الحكم في بنيه وقبيلته ، فجمع ثلاثة آلاف ولد علمهم ركوب الخيل والرمى والسباقة والعلوم الدينية ، حتى اذا اكتملوا تدريبهم وتكوينهم العلمى عزل بهم اشياخ الموحدين ، وكانت محاولة حقيقية لايجاد مدرسة للاطارات . وقد ظهر من بين هؤلاء ثلاثة عشر من ابنائه ولاهم على الاقاليم عام ٥٤٩ هـ. (١١٥٤ م.) وكان مع كل واحد من ابناء عبد المؤمن شيخ من الموحدين . ومن ذلك الحين نشأت التفرقة بين «السيد» الذى لا يطلق الا على أولاد عبد المؤمن والشيخ الذى يطلق على أبناء العائلات الموحدية الكبرى .

والدولة الموحدية المؤمنية هى أول دولة بربرية غير خارجية ادعت الخلافة . وقد انحصرت هذه الخلافة فى أبناء عبد المؤمن ، وقد أخذت الدولة أنظمتها الادارية من الدولة الصنهاجية وزادتها اتقانا .

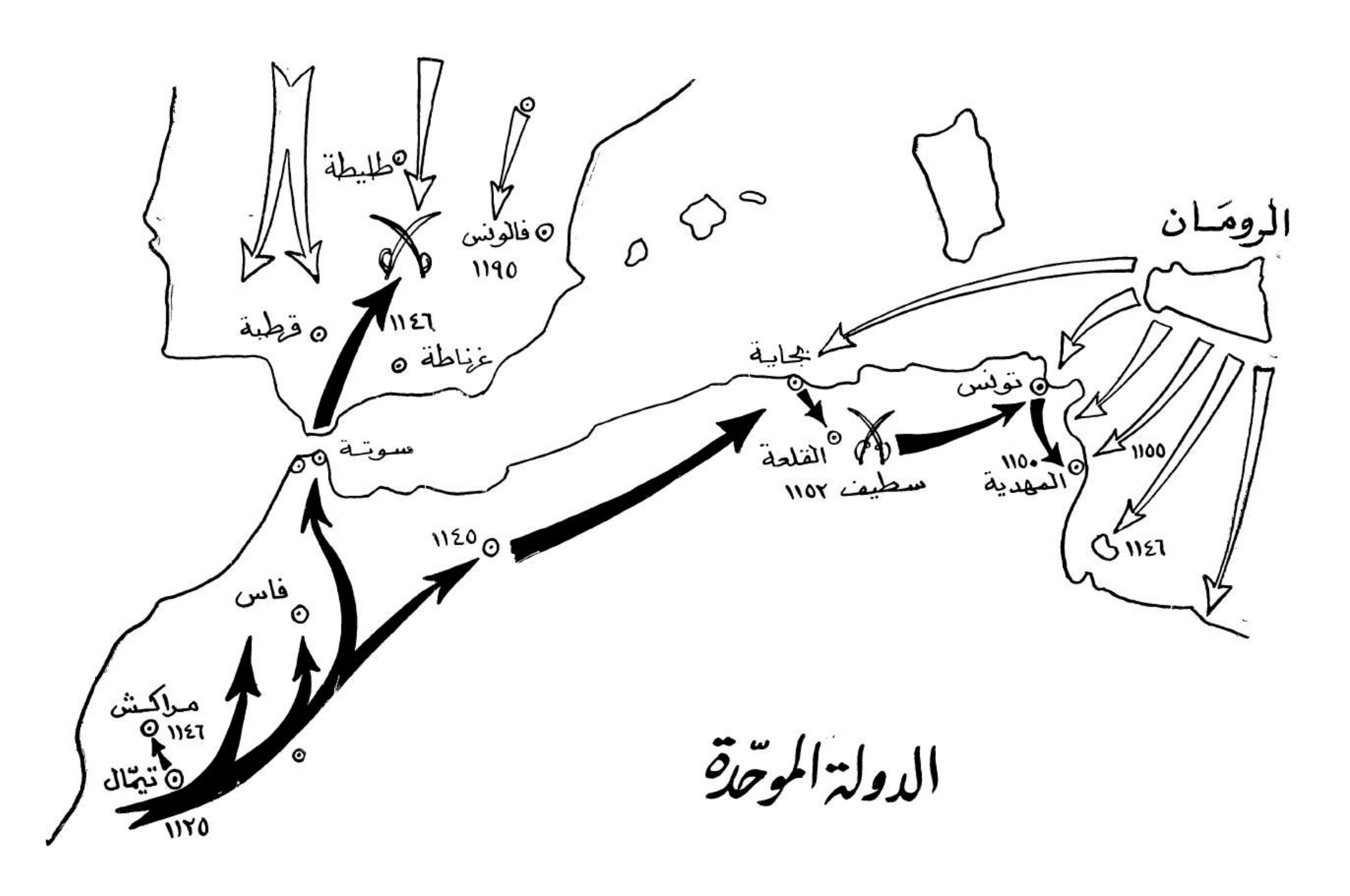
توحيد المغرب العربى :

بعد أن استولى عبد المؤمن على كامل المغرب الاوسط ، استدعى الى تونس ليرد عنها غارات النورمان ، فلبى الدعوة ، واستولى عليها سنة ٥٥٥ هـ. (١١٦٠ م.) ويعتبر استيلاء عبد المؤمن على تونس واقعة حاسمة فى تاريخ الشمال الافريقى ، اذ كانت المرة الاولى التى تحققت فيها الوحدة السياسية بين اقطار المغرب العربى كله ، بكيفية فعلية ، بعد أن كانت الوحدة بين أجزاء المغرب العربى تكتسى طابعا اقتصاديا وثقافيا فقط ولذلك يجمع المؤرخون على اعتبار هذه الفترة من حياة الشمال الافريقى ، هى الفترة الذهبية ، لكن الطريقة التى نظم بها المؤمنيون دولتهم ، بحيث تكون الاستفادة من ثروات المغرب العربى قاصرة على طبقة الموحدين دون غيرهم، وبحيث تجعل من المؤمنيين طبقة متميزة تكسبها عقلية المنتصر القاهر ، — كل ذلك حال دون ايجاد قاعدة معنوية متينة لهذه الوحدة السياسية . ولذلك ما لبثت بوادر السخط أن ظهرت .

ثورة ابن غانية :

فعندما مات عبد المؤمن في ٥٥٨ هـ (١١٦٢ م.) وتولى ابنه يوسف لم تجتمع عليه الكلمة الا بعد خمس سنوات من توليته ، اى بعد أن انتصر على الثائرين من غمارة . وبعد أن مات أبو يعقوب يوسف فى عام ٥٨٠ هـ. (١١٨٤ م.) وتولى ابنه يعقوب المنصور ، نجمت ثورات أخرى ، رغم اشتهاره بالعدل ، واعتنائه بالمنشآت الاجتماعية .

وأبرز ثورة على سلطان المؤمنيين ، هى الثورة التى قادها ابن غانية


الدولة الموحّدة
الرومَان
طليطة
فالونس
١١٩٥
قرطبة
١١٤٦
غرناطة
سبتة
بجاية
تونس
القلعة
سطيف ١١٥٢
١١٥٠
المهدية
١١٥٥
١١٤٦
١١٤٥
فاس
مراكش
١١٤٦
تينمال
١١٢٥

المرابطي الذي كان واليا على جزر البالیار ، والذي أستغل ما سمع به من سخط على سلطان الدولة المؤمنية ، فهجم على بجاية واستولى عليها من غير مقاومة عام ٥٨٠ هـ. (١١٨٤ م.) واستطاع ان يستميل اليه أمراء الحماديين والقبائل الهلالية ، وانتهى الى حصار قسنطينة .

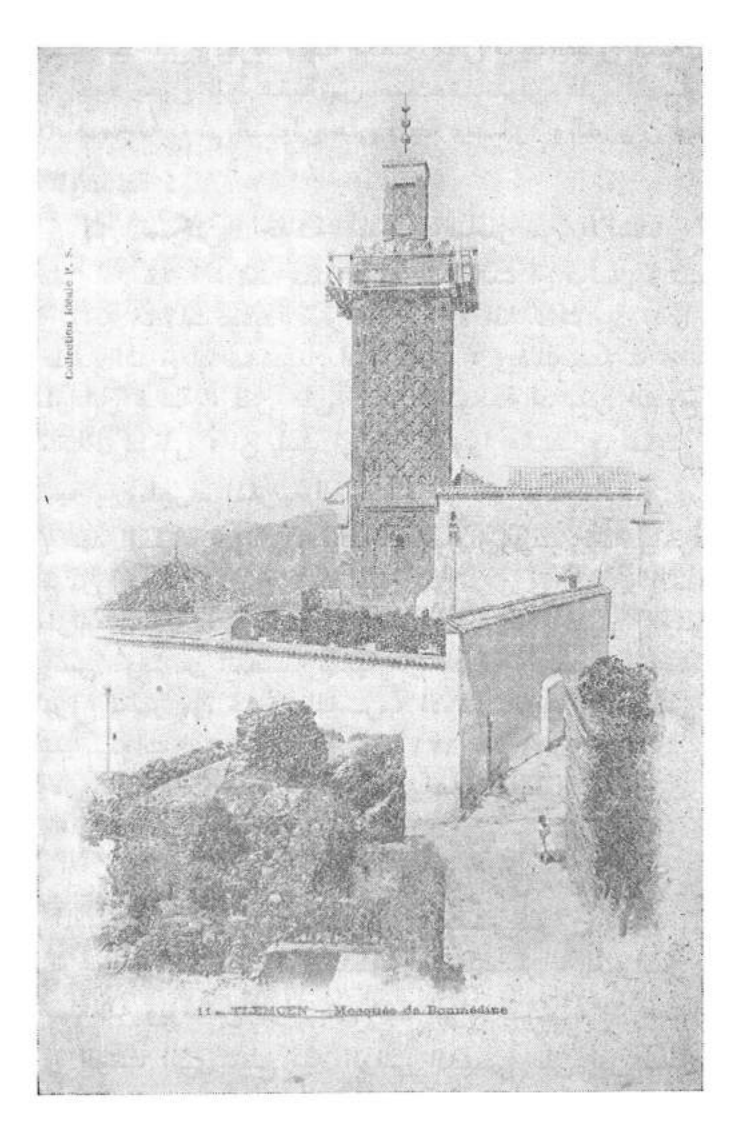
وعلى الرغم من أن الخليفة المؤمنى تمكن من قهر على ابن غانية ، فان هذا الاخير لجأ الى الجريد حيث تحصل على تأييد بعض القبائل العربية ، وانطلق أخوه يحيى ابن غانية من هناك فاستولى على المهدية وجعل قابس عاصمة له ، ثم استولى على باجة وبسكرة والقيروان وعنابة .

تفكك الوحـــدة :

ولئن تمكن الخليفة المؤمني الناصر من الانتصار فى النهاية الامر على ابن غانية ، فانه تأكد فى نفس الوقت أن تونس لا تستطيع أن تثبت فى وجه هجمات جديدة للمرابطين ، الا اذا كانت بين يدى رجل شديد دولى عليها الشيخ أبا محمد بن أبى حفص ، وبذلك صارت تونس فى مأمن من خطر ابن غانية ، لكن على حساب الوحدة اذ مكن الشيخ أبو حفص من استقلال داخلى ، لن يلبث ان يلعب دورا هاما فى تفكيك الوحدة السياسية بين اجزاء المغرب العربى .

ففى عهد الخليفة المؤمنى يوسف المنتصر ، ثارت زناتة واخرجت المغرب الاوسط من رقابة المؤمنيين ، كما كان بنو مرين فى المغرب الاقصى يغيرون على أطراف المملكة . وعندما استدعى الخليفة المؤمنى الوالى الحفصى على تونس خوفا من انفصاله نهائيا عن الدولة الموحدية ، اغتنم ابن غانية هذا الفراغ فظهر من جديد بالمغرب الاوسط حيث لبث ينشر الاضطراب مدة عشر سنوات الى أن هلك فى عام ٦٣١ هـ. (١٢٣٣ م.)

وازاء هذه الاضطرابات ، ظهرت نزاعات داخلية حادة بين الموحدين أنفسهم ، دفعتأحدهم ، المأمون ، الى الخروج عن المذهب الموحدى واعلان العودة الى المذهب السنى ، ووصل به الامر الى لعن المهدى بن تومرت ، واغتنم المسيحيون فى الاندلس هذه النزاعات فتدخلوا فى قضايا المملكة ، مما زاد فى توهين عراها ، بحيث استطاع أمير تلمسان ، يغمراسن بن زيان أن يعلن استقلاله ويؤسس دولة بنى عبد الواد عام ٦٣٠ هـ. (١٢٣٢ م.) وذلك فى الوقت الذى قطع فيه الوالى الحفصى على افريقيا ابوزكريا ، علاقته مع الخليفة المؤمنى وجعل من تونس عاصمة الدولة الحفصية الجديدة . وهكذا امتدت مدة هذه الدولة من عام ٥٤٧ هـ. الى عام ٦٢٨ ، وبولاية تلمسان من سنة ٥٣٩ الى سنة ٦٤٦ . أما مدتها الكاملة منذ مبايعة المهدى بتينملل الى القبض على اسحاق ابن اسحاق ، فهى تشمل ما بين ٥١٥ الى سنة ٦٧٤ هـ. .



مسجد سيدى بومدين بتلمسان

الحياة الثقافية على عهد المرابطين والموحدين

دخلت تلمسان تحت حكم المرابطين سنة ٤٧٤ هـ. ولبثت تابعة لهم الى سنة ٥٣٩ هـ. حيث غلبهم عليها عبد المؤمن بن على وهزم تاشفين ملكهم بها . ومنذ ذلك التاريخ صارت تلمسان والجزائر كلها تحت حكم الموحدين الى ان انفصلت عنهم سنة ٦٣٣ هـ. فاستقلت تلمسان تحت حكم بنى عبد الواد « الزيانيين » فى هـذه السنة ، واستقلت بجاية وباقى الجهات الشرقية تحت حكم الحفصيين الذين كانت عاصمتهم تونس . ودام حكم الموحدين للجزائر نحو ٩٧ سنة أى ما يقرب من قرن ، وكانت هذه المدن ذات أهمية ثقافية .

فعصر بنى حماد كان عصر انشاء وترقية وازدهار للعلوم الاسلامية ، والفنون الادبية ويضارعه فى ذلك عصر المرابطين الذى رافقه فى السير الزمنى ، وأما عصر الموحدين فانه كان عصر نضج للعلوم التى ازدهرت فى العصور السابقة . وأكبر ما اعان على ذلك النضج هو ظاهرتان هامتان وهما :

١ — استعراب قسم كبير من البربر بفضل تشجيع الحماديين للحركة العقلية والثقافية مدة عهدهم .

٢ — احتكاك البيئة الثقافية بالجزائر بثقافة الاندلس والمشرق وكانت هجرات علماء الاندلس على الخصوص — الى الجزائر وتونس والمغرب متواصلة اثر ما وقع بها من احداث وانقلابات هامة كاحتلال الاسبان لكثير من مدنها ، وضعف نفوذها السياسى وتبعيتها للمغرب على عهد المرابطين والموحدين . وكان استقرار هؤلاء العلماء بحواضرنا الكبيرة ، مثل بجاية والجزائر وتلمسان مبعث حركة ثقافية نشيطة ، وكانت مراكزنا الثقافية من مساجد وكتاتيب وزوايا تستقبل كل الوافدين عليها

وبفضل ذلك ازدهرت العلوم ، ونشطت الحركة التعليمية واتسعت المواد التى تدرس ، وكان من جملتها الفلسفة التى بلغت أوجها على يد ابن رشد وطلبته الذين كان من بينهم جزائريون ولا بأس أن نذكر قائمة صغيرة لبعض الكتب التى كانت تدرس بهذا العهد لتكون عينة للسمعة الثقافية ، ان اشهر الكتب الدراسية ثلاثة أصناف ، صنف يعود الى العلوم الدينية وأهمها هى : كتاب التهذيب للبراذعى والرسالة لابن ابى رشد والتلقينى لعبد الوهاب البغدادى ومختصر ابى زيد وموطأ الامام مالك والمستصفى للغزالى والارشاد لابى المعالى ، واحياء علوم الدين للغزالى أيضا ، وجامع البخارى، ومسلم والترمذى والاستذكار لابن عبد

البر والتفسير للزمخشرى وتفسير ابن عطيـــــة وتفسير عبـــــد الحـــق الاشبيلى .

وصنف يعود الى علوم النحو واللغة والادب . واشهر كتبه فى ذلك هى الكتاب لسيبويه والجمل للزجاجى والقانون للجزولى والمفصل للزمخشرى وزهر الآداب للحصرى والعقد الفريد لابن عبد ربه وادب الكاتب لابن قتيبة والحاشية لابى تمـــام والمقامات للحريـــرى وشروح دواوين الجاهليـــين والاسلاميين .

وصنف ثالث يعود الى العلوم العقلية واشهر كتبها كتاب القانون لابن سينا الذى كان اكبر عمدة للطب فى العالم الاسلامى والعالم الاوربى منذ قرون وكتابه الآخر « الرجز الطبى ».

مشاهر العلماء والادباء

نبغ فى هـــذا العصر جماعة كبيرة من العلماء فى كل فن ، ولكن اكثرهم لم تصلنا تفاصيل اخبارهم لضياع آثارهم العلمية ، واشهر مـــن وصلتنا معلومات عامـــة عنهم هم :

١ ــ ابو القاسم محمد بن احمد الاموى وكان يقرىء رجز ابن سينـــا وقانونه فى الطب ، وكانت الابحاث الطبيـــة من قبل هذا الاستاذ وغـــيره «جارية على القوانين النظرية، والاستدلالات الجلية »(١) وكان أبو القاسم هذا هو الطبيب الخاص لولاة بجاية .

٢ ــ احمد بن خالـــد المالقى وكان عالمـــا بالطب والحكمة والطبيعيات والالهيـــات ، وقد بث هذه العلوم فى بجاية .

٣ ــ عبد الله الحضرمى اللغوى الاديب . كان كما يقول الغبرينى احـــد الاشياخ المنتصبين للتدريس والرواية .

٤ ــ ابو عبد الله التميمى وكان لغويا اخذ فى شرح مقامات الحريرى ، فكتب عن مقدمتها نحو خمسة عشر كراسا ، خمس قصيدة التوزرى التى مطلعها :

اشتـــــدى ازمـــة تنفـــرجي ‏ ‏ ‏ ‏ قـــــد آذن ليلـــــك بالبلـــج

(١) عنوان الدراية صفحة ٤٥

٥ ــ عبد الحق الاشبيلي . كان عالما بالفقــه والحديث وترك تآليف في الزهد والتصوف وتولى الخطبة وصلاة الجمعة ببجاية وتولى كتابة الوثائق ومن كتبه : الاحكام الكبرى والاحكام الصغرى في الفقه والحديث .

٦ ــ ابو القاسم القالمي وكان من ابرع كتاب الرسائل الديوانية في هذا العصر .

٧ ــ محمد بن الابار الاندلسي نزل بجاية وافاد بها قال الغبريني عنه : رحل الى العدوة واستوطن بجاية ودرس بها واقرأ وروى واسمع وصنف والف ، وهاجر بعض الصقليين الى بجايــة وشاركوا في تنشيط الحركــة الثقافية واشهرهم في ذلك :

٨ ــ عبد الرحمن القرشي الصقلي وكان عالما فقيها محصلا في النحــو واللغة واستقر ببجاية وافاد اهلها . وممن اخذ عنه ابراهيم الوغليسي . وكما نبغ هؤلاء الاعلام في بجاية واحوازها نبغ اعلام آخرون في مختلف مدن الجزائر كقسنطينة التي انجبت اكبر شاعر جزائري هو ابن الفكون وغيره .

وتلمسان : انجبت نخبة كبيرة نذكر منها هؤلاء العلماء :

١ ــ الشيخ ابو عمر وعثمان بن علي بن الحسن التلمساني ، وكان من اهل الدين والصلاح والعلم مات بتلمسان سنة ٥٤٢ هـ.

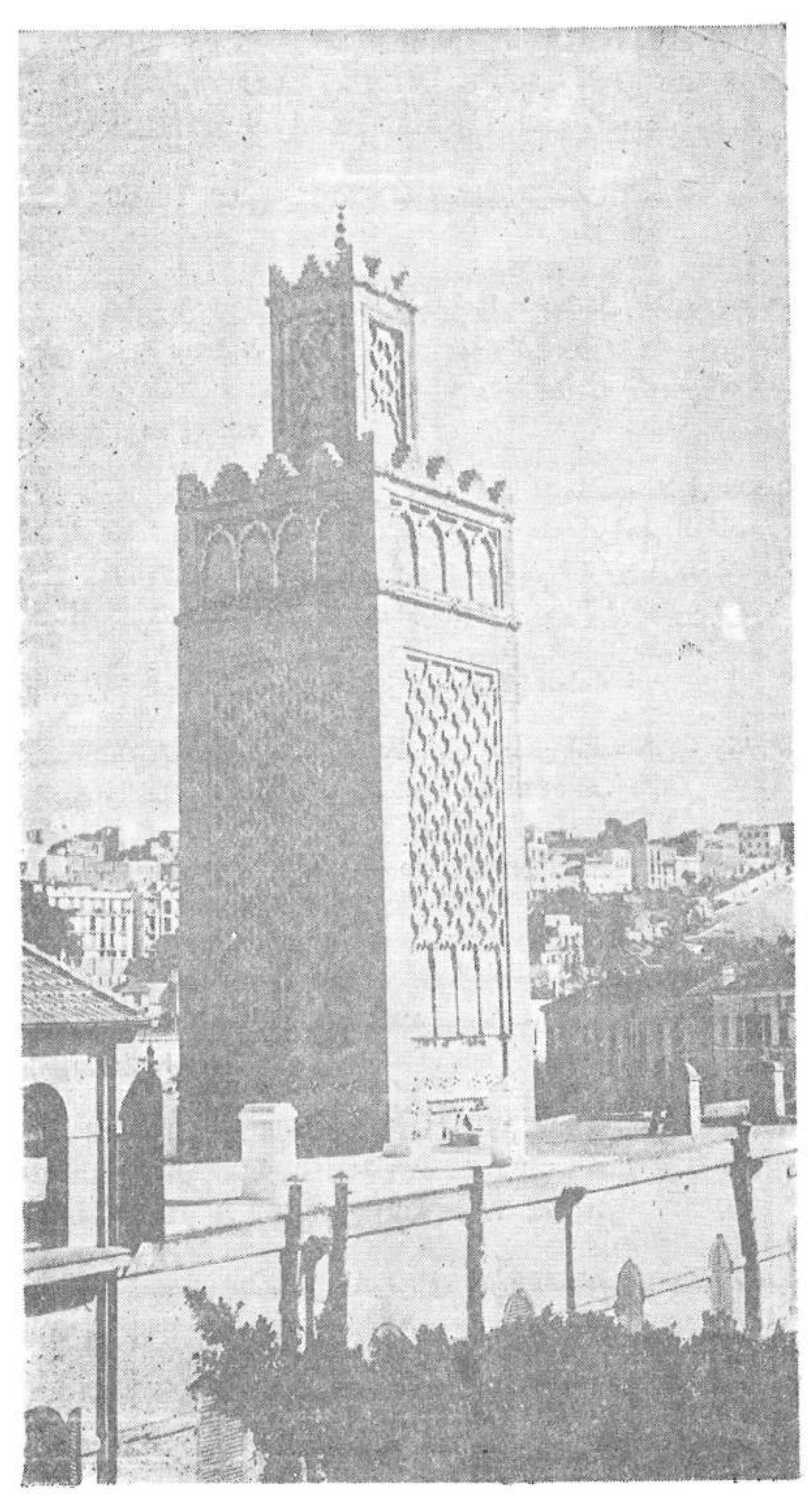
٢ ــ الشيخ ابو مدين شيخ المتصوفة كان ببجاية ثم التحق بتلمســـان ومات بها سنة ٥٩٥ هـ.

٣ ــ الشيخ ابو الحسن علي بن ابي القاسم بن قنون وكـــان متبحرا في الفقه واصوله وله تآليف منها المقتضب الاشفى في اختصار المستصفى توفي بها سنة ٥٥٧ هـ.

٤ ــ الشيخ ابو عبد الله محمد بن عبد الحق البطيوي كان فقيها حافظا متكلما متفننا في علوم جمة ولد سنة ٥٣٦ ــ وتوفي بتلمسان سنة ٦٢٥ هـ. ومن كتبه : المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار .

٥ ــ ابو اسحاق التلمساني المتوفى في القرن السادس ، وكان محصالا في الفقه .

٦ ــ الشيخ المتصوف أبو محمد عبد السلام التونسي الذى ساح في مختلف الجهات ثم استقر اخيرا بتلمسان على عهد المرابطين ومات بها في عصرهم .



مسجد سيدى الهوارى بوهران

الشعراء والكتاب

كان احتكاك ادبائنا بادباء الاندلس وافريقية وغيرهم من الوافدين على الجزائر من مختلف أنحاء العالم الاسلامى ذا تأثير كبير على الادب الجزائرى فالنثر كان قبلهم يجول فى موضوعات قليلة، وكانت عبارته عادية، ثم عاد فى عهدهم ألوانا وأقساما . منها النثر الفنى الذى يتجلى فى الرسائل الديوانية والمقامات ، ومنها النثر العلمى الذى نجده فى كتب الفقه والكلام وغيرها ، ومنها النثر المرسل الادبى ونجد ضروبا منه فى كتب التراجم ككتاب عنوان الدراية وغيره .

أما النثر الفنى فانه يمتاز بالصنعة من سجع وجناس وتورية وطباق وغيرها من ضروب البديع .

وأما النثر العلمى فيمتاز بأسلوبه السهل وبعبارته الخفيفة التى يراد منها المعنى .

وأما أغراضه فقد اتسعت باتساع مناحى القول والتفكير حيث طوع لموضوعات مذهبية وجدلية وفلسفية ولمقاصد ذاتية بحتة ولشؤون قضائية وادارية وتراجم شخصية وغيرها .

وأما الشعر فقد تنوع فى أغراضه وموضوعاته فقد نظم الشعراء فى هذا العصر فى نصرة المذاهب السياسية كمذهب الموحدين ونظموا فى المدائح النبوية وفى الابتهالات الالهية « كالمنفرجة » للتوزرى القلعى ، ونظموا فى اغراض شخصية كثيرة كما تطور الشعر فى اسلوبه بظهور الموشحات فيه بجانب الاوزان الاتباعية المعروفة واشهر من نبغ فى هذا العصر من الشعراء هم هؤلاء :

١ — ابن عمارة الشريف وكان شهيرا بقصائده وبموشحاته الكثيرة البديعة .

٢ — محمد الجزائرى وكان شاعرا فحلا .

٣ — الحسن بن الفككون وكان أكبر شاعر فى القرن السادس وأول السابع .

٤ — عائشة الشريفة بنت ابن عمارة ، وكانت الى جانب اجادتها الشعرية تجيد الخط ،

ولا شك أن وسطا تنبغ فيه فتاة فى ذلك العصر يكون من أرقى الاوساط الادبية ، ومن أزهى العصور الثقافية .

الحضـــارة فى عهد الموحديـن

تفيد بعض الكتابات التاريخية ان عبد المؤمن بن على كان يعارض فى كل مظاهر الترف حتى ولو كانت عبارة عن رسوم أو أعمال فنية ، وانه بنـــاء على ذلك أمر بأن يتم طلاء النقوش الذهبية فى مسجد فاس بالجبر .

ولا شك أن الصرامة التى عرف بها الموحدون تتماشى مع هذه النظرة الى الفن ، لكن هذه الصرامة ــ سواء أكانت الحكاية السابقة صحيحـــة أم غير صحيحة ــ سرعان ما ذابت عند اتصـالها بالواقع وبمتطلبـــات الحكم ، وعلى الاخص عند احتكاكها بالوسط الحضـارى فى الاندلس ، كمـــا يدل على ذلك الامـــر الذى أصدره عبـــد المؤمن ببناء مسجدين من أفخـــم المساجد ــ وقد كان يحلو لابن عبد المؤمن أن يقيم بمدينة اشبيلية المعروفة بالمتع ، اكثر مما تحلو له الاقامة فى قرطبة التى اشتهرت بجوها الثقافى ، على الرغم من ثقافته الواسعة ، كما يظهـــر ذلك من مقابلته لابن رشد ، ومن اندهاش هذا من سعة معارفه ، وكما يظهر من تفضيله لمجالسة ابن طفيل . وقد أمر ببناء المسجد الكبير فى اشبيلية ، ووضع تصميم قصبـــة مراكش .

وقد كان المنصور مثل ابيه متشبعا بالثقافة الاندلسية ، فلم يكن قائـــدا حربيا فقط ، بل كان زيادة على ذلك من بناةالحضـارة ، كما تدل على ذلـــك البناآت العديدة الرائعة التى شرع فى بنائها بالاندلس والمغرب .

ويرجع الفضل للموحدين فى القضاء على أنواع التبذير والاستهتـــار بميزانية الدولة ، التى كان لا يتنزه عنها ملوك الطوائف ، وقد ازدهرت فى عصرهم التجارة والصناعة ، مثل صناعة الحرير وصناعة السفن وصناعة الكاغط . ومما أعان على هذا الازدهار ما عمد اليه الموحدون مـــن اصلاح نظام العملة ، وقد اتسع نطاق المبادلات التجارية فى عهـــد الموحدين ولـــم يقتصر على الاطار الاندلسى ــ المغربى ، بل شمل مجموع العلاقات بـــين المغرب العربى من جهة ، وبين البلدان الاروبية الواقعة على البحر الابيض المتوسط من جهة ثانية ، ومع بلاد المشرق من جهة ثالثة ، وكانت التجارة مع اروبـــا تأتى فى الدرجة الثانية بعـــد التجارة مع المشرق . وقد كـــان الموحدون يملـــكون جيشا دقيـــق التنظيم كما كانوا يملكون اسطـولا هامـــا، وعـــلى الاخـــص بعـــد ان تمـــكنوا من احتـــلال مدينة قاضى بالاندلس اذ أصبح أسطول الموحدين هو أول اسطول فى حوض البحر الابيض المتوسط ، مما حمل صلاح الديـــن على ان يطلب فى عـــام ٥٨٦ هـ . (١١٩٠ م.) من أبى يعقوب أن يعينه بقطع طريـــق سوريا على الملوك المسيحيين .

وقد بلغ من قوة الموحدين الحربية ، ان سكان الاسكندرية كانوا يتوقعون احتلال مصر من طرف الموحدين .

وكان يوجد ببجاية تناصل أجانب للدول التجارية يحفظون حقوق رعايا دولتهم . وكانت مراسى الجزائر التجارية حينذاك هى هنين التى تعتبر مرسى تلمسان وطريقها الى الاندلس ، ويليها شرقا المرسى الكبير ، فوهران ، فأرزيق فمزغران ، فمستغانم ، فتنس ، فشرشال ، فالجزائر ، فبجاية ، فجيجل ، فالقل فاستورة قرب سكيكدة ، فبونة .

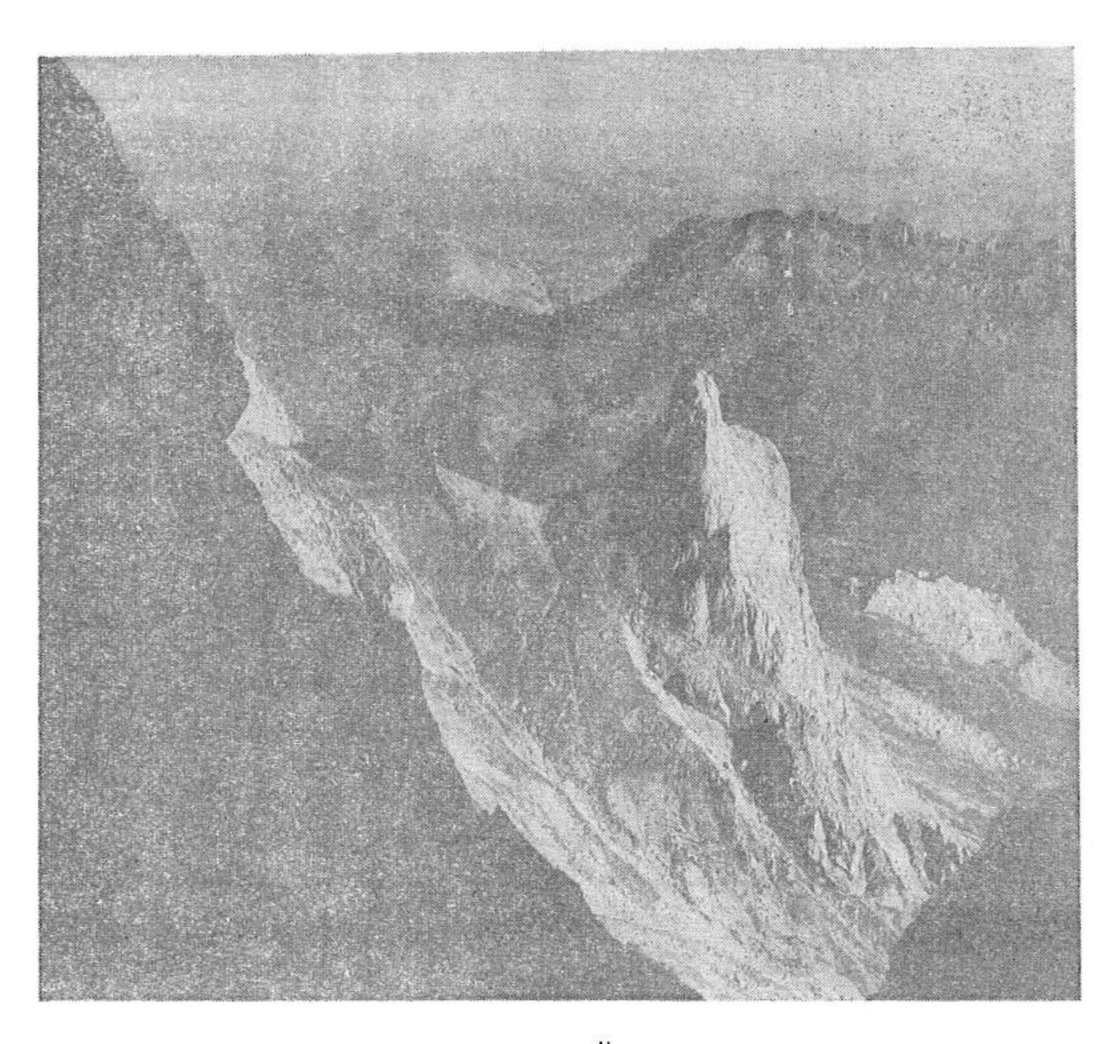
وكان تجار أوروبا يستوردون من المغرب العربى الزيت والصوف والشب وريش النعام والادم ومواد الدباغة النباتية والشمع والزبيب وسائر الفواكه الجافة ، وكانوا يصدرون اليه الملف وسائر الاقمشة والذهب والفضة والنحاس وسائر المعادن ، وبعض الادوات المنزلية ، والى هذا العهد ترجع تسمية السكين بـ « الجنوى » نسبته الى « جنوة » الايطالية .

وقد شملت النهضة المؤمنية العلوم والآداب ، وكانت مدينة بجاية تعد حينذاك هى عاصمة المغرب العربى علما وأدبا لا تفوقها الا مراكش عاصمة الخلافة اذاك . ومما زاد فى سمعة الموحدين وضاعف قيمة سلطانهم ما سجله ملكهم من ازدهار فكرى جسمه فلاسفة فى مثل قيمة ابن طفيل وابن رشد .

ولم يكن ازدهار الفنون المعمارية بأقل اهمية من ازدهار الفكر والفنون الاخرى ، ويمكن القول بأن المغرب العربى عرف فى عصر الموحدين أجمل وأروع آيات الفن الاسلامى .

ذلك أن الفنون الاسلامية فى عهد الموحدين كانت متولدة عن اجتماع عدة عناصر اندلسية وافريقية وشرقية جعلت تلك الفنون مطبوعة بطابع القوة والعظمة التى طبع بها سلطان الموحدين . وقد سجل « غسيل » اعجابه بفن الموحدين عندما قال عنه انه « يمثل آية من الاحكام المنسجم » .

لكن الموحدين ، على الرغم من أن أعمالهم كانت لها نتائج أبقى اثرا من النتائج التى خلفها المرابطون ، لم يستطيعوا ان يحتفظوا بالوحدة التى تحققت بين اقطار المغرب العربى للاسباب التى سبق أن المحنا اليها .



جبال جرجرة

القسم الرابع

عصر الانحطاط

- الدولة الحفصية وبذور الانحطاط
- بنو مرين في الجزائر
- الدولة الزيانية بين نارين
- عصر ابن خلدون
- من الحروب الصليبية الى الغزو التجاري

الدولة الحفصية وبذور الانحطاط

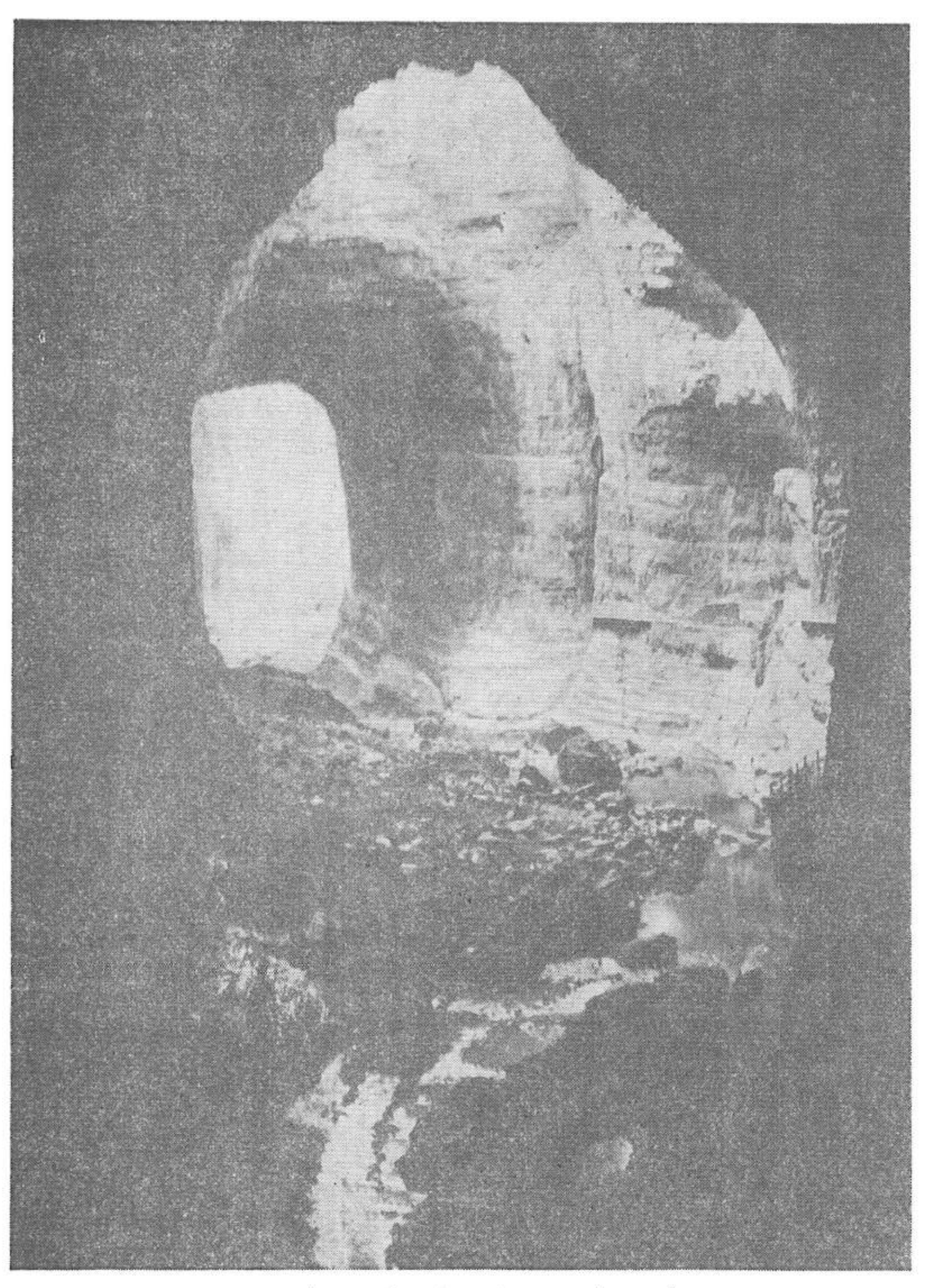
بعد ثورة ابن غانية استكانت القبائل الرحل الى الدولـــة التى عرفت كيف تسوسهم . لكن الحفصيين ، نواب بنى عبد المؤمن بتونس استقلوا عنهم ، وحاولوا بسط سلطانهم على كامل المغرب العربى ، وكانت هـذه المحاولة تضطرهم الى الاعتماد على زناتة ، فعاضدتهم هذه على أمـــل أن تتمكن بعد ذلك من الاستيلاء على السلطة لفائدتها الخاصة ، وكانت نتيجة سقوط الدولة المؤمنية هى قيام ثلاث دول مكانها هى : الحفصية والزيانية والمرينيـــة .

وبما أن كل واحدة من هذه الدول كانت تحاول أن تضم كامل المغـــرب العربى تحت سلطانها ، وبما أنها لم تكن تعترف لبعضها بعض بالاستقلال، فقد كانت تلجأ دوما الى التحالف مع القبائل العربية المتنقلة ، لكن لم تكن لهذه الدول سياسة قارة مع القبائل الرحل ، فاذا كانت الحرب استمالتهم واقطعتهم الاراضى الشاسعة وجعلت منهـــم مستشارين ، واذا استغنت عنهم فى السلم حاولت تجريدهم من امتيازاتهم خوفه أن يتطلع رؤساؤهم الى الحكم . ولئن ضمنت هذه الدول لنفسها استقرارا نسبيا بهذه السياسة المتلونة ، فان القبائل العربية الفت هذه الظروف التى تضمن لها النفوذ دون أن تقيد من حرية تنقلها .

تولد عن هذه السياسة ضعف الدول وانعدام الامن وتدهور الانتاج .

والواقع أن هذه السياسة كانت موجودة براعمها فى ظل العهد السابق، مما يفسر سقوط الدولة المؤمنية وتفكك الوحـــدة التى تحققت فى ظلهـــا ، ويمكن القول مع شارل اندرى جوليان بأن مجىء الموحدين كان متأخرا عن أوانه ، لذلك لم ينجحوا فى تأييد الوحدة التى حققوها .

وقد كان من الممكن أن لا تقف النتائج السيئة للوضع السابق عند حدود تجزئة المغرب العربى الى ثلاثة دول ، وكان من الممكن أن تفتح تلك النتائج الطريق للسيطرة الاروبية قبل أوانها بقرون ، لولا استنجاد سكان المغرب العربى بالاسطول العثمانى الذى ارجأ الاحتلال الاروبى قرونا اخرى ، وان كان قـــد اضاف فى الـــوقت نفسه عناصر انحلال جديدة مهدت للاحتـــلال الاروبى الذى تم فى القرن التاسع عشر الميلادى .



قنطـرة طبيعية بـوادى الرمـال بقسنطينـة

تأسيس الدولة :

(من عام ٦٢٧ الى ٩٨١ هـ) بعد قهـــر الناصر ابن غانية فى الجنـــوب التونسى ، اسند ولاية افريقيا فى سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م.) الى احد أبناء الشيخ أبى حفص عمر الهنتاتى الذى مارس السلطة فى ظـــل الولاء الى الحكم الموحدى الى أن توفى فى عام ٦١٨ هـ (١٢٢١ م.) فعوض بولاة من العائلة المؤمنية ، وفى عام ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م.) عين الخليفة العادل أحد افراد العائلة الحفصية رفض الاعتراف بسلطة الخليفة الجديد ، المأمون ، فعزل وعين مكانه أخوه أبو زكريا يحيى والى قابس.

كان هذا الوالى الجديد الشاب يتمتع بالسمعة التى اكتسبتها عائلته فى محاربة ابن غانية ، كما كان واسع الثقافة ، خبيرا بشؤون الحكم ، فتغلب على تونس ، ثم نقض بيعة المأمون سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م.) لانه شتـــم المهدى الموحدى .

وفى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م.) استولى أبو زكريا على قسنطينة وبجاية ثم فتح فى عام ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م.) الجزائر وشلف وسائر مواطن مغراوة وتوجين ، وبايعته الاندلس الشرقية عـــام ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م.) وفتـــــح تلمسان سنـــة ٦٤٠ هـ وتتابعت عليه البيعات من المغـــرب والاندلس .

وقد أعرب أبو زكريا عن استقلاله بالحكم عندما أمر بذكر اسمه فى خطب الجمعة والاعياد بعد ذكر اسم المهدى .

اذن فقد كانت الدولة الحفصية مستقلة استقلالا تاما . وقد كان أبـــو زكريا ملكا عظيما لكنه بالرغم من ذلك ترك لابنه المستنصر وضعية متفجره اذ أن المستنصر وجد منافسين حتى داخل عائلته ، لكنه تمكن من القضاء على اربع ثورات ، وطارد الذواودة الى الجنوب وقتل رؤساءهم ، ثم اطلق على نفسه أمير المؤمنين . وقد قلدت الدولة الحفصية الدولة المؤمنيـــة فى جميع أنظمتها .

وتتركب الجزائر الحفصية من عمالتى قسنطينة القديمة ومن عمالـــــة الجزائر القديمة الى ما بعد مليانة شمالا غربيا وما بعد ورقلة جنوبا .

وكانت عاصمة الجزائر الحفصية هى بجايـــة حتى اكثرت زناتـــة مـــن الغارات عليها فصارت الاهمية الى قسنطينة .

وعلى الرغم من أن المملكة التى تركها المستنصر كانت تبدو قوية ، فانها ما لبثت أن تفككت بعده ، فقد ورثه ابنـــه الواثق الذى نازعه عمـــه أبو اسحاق ابراهيم الاول الذى جمع كل الساخطين . والملاحظ أن ابراهيم هذا

كان قد حاول قبل ذلك الثورة على اخيه محمد المستنصر . وقد استطاع أبو اسحاق ابراهيـم الاول أن يتغلب على بجاية ، ثـم تغلب على تونس فى ٦٧٨ هـ. (١٢٧٩ م.)

لكن الامير الجديد لم يكن اسعد حظا من سلفه رغم أنه ضمن ولاء مملكة تلمسان اذ زوج ولى عهدها بابنته ، ذلك ان سياسته الداخلية ، أثارت عليه سخط قسم كبـير من السكان وعلى الاخص عـرب الجنوب الذيـن استطاع الدعى ان يجندهـم ـ سمى الدعى لانه ادعى أنه ابن الواثق ـ وسيطر بهم على كامل الجنوب ، الا انه سرعان ما اغضبهم فالتفوا حـول أبى حفص عمر الاول أخى المستنصر وبايعوه بالخلافة باسم المستنصر بالله سنة ٦٨٣ هـ. (١٢٨٤ م.)

وعندما ملك عمر الاول تونس عاد يحيى للسيطرة على بجاية بمساعدة الذواودة وتلقب المنتخب لاحياء دين اللـه ، وهـو ول من قسم الدولـة الحفصية شطرين ، فاستقل بالملكة الغربية ، وكان رجـلا حازما يتولى الاشراف بنفسه على شؤون الملكة ، وكان يقسم اقامته بين قسنطينـة وبجاية ، ومن آثاره توسيع قصبة قسنطينة وجامعها .

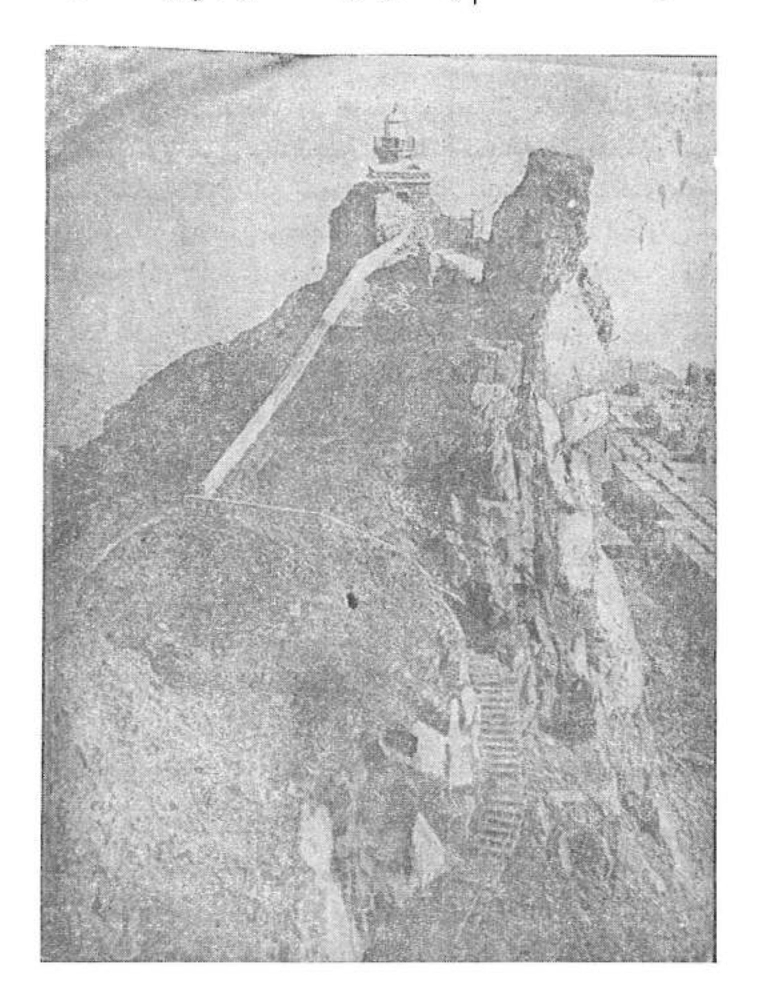
كان خالد ابنه بقسنطينة عندما نعى اليه أبوه ، فانتقل الى بجاية . وقد استمرت المعارك بين شطرى الدولة الحفصية ثلاثا وعشرين سنة ، الى أن تدخل فى الامر اشياخ الموحدين فحملوا كلا من ملك تونس وملك بجاية على التسليم بأن من يبقى منهما بعد صاحبه حيا ، يضـم الملكتين تحت سلطانه . فكان أن تمت الوحدة لفائدة ملك بجاية خالد أبى البقاء ، لكن لمدة قصيرة فقط من عام ٧٠٩ هـ. (١٣٠٩ م.) فقد تمكن ابن اللحيانى زكريا ابن أحمد من الاستيلاء على تونس بواسطة الاعتماد على القبائل الرحل ، واستمر على ملك تونس من سنة ٧١١ هـ. (١٣١١ م.) الى سنة ٧١٧ هـ. (١٣١٧ م.) وفى الوقت نفسه تمكن أبو يحيى ابو بكر ـ أخو خالد الاول ـ من الاستيلاء على بجاية فى عام ٧١٢ هـ. وتمكن أبو بكر هذا من جمـع مملكتى تونس وبجاية تحت سلطانه . وقد طالت مدته الى سنة ٧٤٩ هـ. (١٣٤٩ م.) وبعد أن خرجت بجاية عن حكمه لمدة قصيرة ، ولى عليها ابنه يحيى ، كما ولى ابنه محمدا على قسنطينة ، والفضل على بونة .

وقد كانت ولادة أبى بكر ونشأته وقراءته بقسنطينة .

ولئن تمكن أبوبكر من الاحتفاظ بشطرى المملكة الحفصية تحت نفوذه ، ولئن لم ينجح البدو الرحل فى مقاومته عن طريق خلق منافسين من العائلة، فانهم قد دفعوا بنى عبد الوادى من تلمسان الى التدخل ، طبعا فى الاستيلاء على بجاية ووجد أبو بكر نفسه أمام خطر محدق اذ تحالف ضده كل من بنى

سليم والذواودة وبنو عبد الوادى ، ولم ينج من هذه الجبهة التى تنظمت ضده الا بتحريكه لبنى مرين في المغرب الاقصى كى يهددوا تلمسان .

لكن عندما توفى ابو بكر في عام ٧٤٧هـ. (١٣٤٦ م .) تمكن ابو الحسن المريني من الاستيلاء على الممالك الحفصية وضـم اجزاء المغرب العـربى تحت سلطة واحدة ، الا انه لم يتمكن من الاستمرار في بسط نفوذه ، فـقد



دللــس

تحالف ضده رؤساء القبائل وتمكنوا من هزمه قرب القيروان ، فاضطر الى العودة الى المغرب الاقصى فى ٧٥٠ هـ. (ديسمبـر ١٣٤٩ جانفى ١٣٥٠)

الا أن هذه المنافسات والتدخلات من طرف القبائل الرحل التى أدت الى

هزم ابن الحسن المرينى ، هى نفسها التى مكنت بعد ذلك السلطان أبـــا عنان من الاستيلاء على بجايـــة فقسنطينة فعنابـــة فتونس فى ٧٥٩ هـ. (١٣٥٧ م.) ، وآنذاك واجه نفس المشكلة التى كـــان واجهها أبو الحسن وهى مشكلة السلطة المركزية . وفرض احترامها على القبائل العربيـــة الرحل ، وكما فشل أبو الحسن فى محاولة استمالتها بالوظيف ، فشل أبو عنان فى محاولة قهرها بالقوة ، واضطر الى أن يعود مثل سلفه الى المغرب الاقصى .

ترك المرينيون بعد مغادرتهم لتونس والجزائر ثلاث امارات حفصيـــة : واحدة بتونس ، وأخرى بقسنطينة ، وثالثة ببجاية . وقد كان أمير قسنطينة أبو العباس أحمد الاول ابن محمد ابن أبى يحيى ، هو الذى نجح فى بسط نفوذه على بجاية ودللس وعنابة باعانة الذواودة ، ثم استولى على تونس عام ٧٧٢ هـ. (١٣٧٠ م.) ، وظل ملكا بها الى عام ٧٩٦ هـ. (١٣٩٤ م.)

وقد حقق أبو العباس هذا النجاح بفضل مزاوجته الماهرة بين الصرامة واللين ، فقد واجه أشياخ القبائل الذين تسببوا فى اضعاف المملكة واثارة الفتن ، واجههم بالصرامة اللازمة ، والغى ما أقطعوه من أراض على عهد الخلفاء قبله ، لكنه عرف فى نفس الـــوقت كيف يستميل القلوب بالعفـــو وتوزيع بعض الامتيازات .

بفضل هذه السياسة الماهرة تمكن من فرض احترام السلطة المركزية فى الداخل ، وقد مكنه هذا النجاح الداخل من تنظيم الاسطول البحـــرى الذى كان مركزه فى بجاية ، ليخوض معركة الدفاع عن الوطن ضد بواخر القراصنة الاوروبيـــة والاساطيل المسيحيـــة التى تهدد شواطىء المغـــرب العربى ، وقد حاول الفرنسيون وامارة جينوة تنظيم حملة صليبية ضـــد المهدية ، لكنها منيت بالفشل .

فى الوقت الذى سجلت فيه مملكتا فاس وتلمسان تدهـــورا واضحـــا ، حققت المملكة الحفصية ازدهارا كبيرا ، بفضل ملكين بسطا نفوذهما لمدة طويلة طويلة هما أبو فارس عزوز الذى تولى من عام ٧٩٦ هـ. (١٣٩٤ م.) الى عام ٧٣٧ هـ. (١٤٣٤ م.) وأبو عمر عثمان ــ حفيده ــ الذى تولى من ٨٣٩ هـ. (١٤٣٥ م.) الى عام ٨٩٣ هـ. (١٤٩٤ م.)

اما الاول ــ وهو أبو فارس عزوز ــ ابن أبى العباس ، فقد صعد على العرش دون صعوبة عندما توفى أبوه ، كان عمره حينذاك حوالى الثلاثين سنة ، وقد كان قد أقام الدليل على شدته فى الحرب ، أثناء الحملة التى نظمتها القوات الصليبية ضـــد المهدية ، وقد بدأ بالقضـــاء على الامارات المستقلة فى توزر وقفصة وبسكرة التى كان اضطر أبوه الى محاباتها .

جلبت لـه تلك السلسلـة من الانتصارات سمعة كبيرة ، عمـل على تعزيزها وتغذيتها بما أبداه من تعلق بالدين وحرص على الاتصال بالعلماء، وذاع صيته خارج حدود مملكته كما تدل على ذلك السفارات والهدايا التى كان يتلقاها من غرناطة وفاس ومصر ومكة والمدينة .

أما حفيده أبو عمر عثمان ، فقد تقلد الحكم ولما يتجاوز عمره السابعة عشرة ، لكنه كان قد تمرس بشؤون الحكم ومسائل الحرب ، وقـد كانت السنوات الاولى من حكمه مضطربة خصوصا فى ولاية قسنطينة حيث لـم يتمكن من التغلب على أحد أعمامه الا بعد ما يقرب من سبعة عشر عاما .

وقد عين عثمان أبا زكريا يحيى ، أحد أحفاده ، لولاية العهد ، فخاض هذا الاخير فور امساكه بزمام الحكم معارك عنيفة ضد المتطلمين للحكـم من أفراد عائلته ، وكان قاسيا فى معاملة اعدائه واصدقائه على السواء ، فتخلى عنه انصاره ومات فى المعركة عام ٨٩٥ هـ. (١٤٨٩ م.) لكن الذى انتصر عليه سرعان ما انهزم أمام أبى يحيى زكريا ــ ابن المقتول ــ الذى مات بدوره عام ٩٠٠ هـ. (١٤٩٤ م.) بالطاعون فخلفه ابو عبد الله محمد الذى انهارت فى عهده الدولة الحفصية وأصبحت عبارة عن حكـم شكلى قضى عليه التسرب العثماني الى المغرب العربى بعد ذلك .

التطور الاجتماعى

حدثت فى العهد الحفصى تغيرات اجتماعية هامة تتمثل فى تنقل القبائل العربية بين جهات متعددة وتلاقحها مع البربر ، وكانت أبرز نتيجة لذلك هى انعدام الحدود بين المناطق العربية والمناطق البربرية التى اصبح من الصعب التمييز بينها ، باستثناء بعض المناطق التى تعزلها الجبال أو البحار مثـل قسم من بلاد القبائل ، وجبال الاوراس ، وجزيرة جربة ، كما تعد انتشار اللغـة العربية انتشارا كبيرا فى هـذه الفترة من ابرز نتائج ذلك التغـير وآثاره .

وقد ترتبت عن هذه التغييرات الاجتماعية آثار أخرى اقتصادية أهمهـا نزوح العمران الى السواحل البحرية التى لم تكن تهم الاعراب والقبائـل الرحل ، وهذا ما يفسر انقراض مدن هامـة من مدن الداخل باستثنـاء قسنطينة وتلمسان بالنسبة للجزائر . وقد لعبت هذه النتيجة دورا هامـا فى توجيه العلاقات الاقتصادية والسياسية نحو الغـرب الاروبى ، وارتخت نوعا ما العلاقات التى كانت تشد المغرب العربى ، والجزائر على الاخص، الى المشرق العربى والى افريقيا السوداء عبر الصحراء . ويمكن القـول بأن تركيز النشاط الاقتصادى فى السواحل البحرية وازدهار مدن الساحل

على حساب مدن الداخل ، وانفصالها عنها بعض الشيء ، يعتبر من بين العوامل التى مهدت لتسرب العثمانية الى الجزائر وتونس ، لان تحـــول النشاط الاقتصادى الى مدن الساحل من جهة ، وجدة هذه المدن من جهة أخرى نقل مدار المعركة وميدانها الى البحر ، فحرم الدول والحكومات التى قامت على أساس تأييد شعبى من الداخل ، من سلاح اساسى ، لانهـــا وجدت نفسها تعــدم القوة البحرية اللازمـــة التى تواجه بها المحـــاولات والحملات الاروبية المسيحية .

نظـــام الـــــدولة

الدولة الحفصية تعتبر دولة موحدية ، باعتبارها معتنقة نفس المبادىء التى جاء بها ابن تومرت ، وهى تنتسب الى أبى حفص عمرو الهنتاتى أحد العشرة من اصحاب ابن تومرت . وهناك من ولاة الجزائر الحفصية مـــن ارتقى الى عرش تونس أو ادعى الخلافة من الجزئر ثم تغلب على تونس، ومنهم من استقل عن تونس ولم يتمكن من بسط سلطانه الا على الجزائر فقط . وكان الحفصويون يقلدون نظـــام الموحدين ، فيستعملون نظـــــام المشايخ بترتيبه المعروف من عهد ابن تومرت . وكان اهم المشايخ يساهمون فى مجلس الشورى ، وكان يوجد فى عهد ابى زكريا ثلاثة وزراء : وزيـــر الجند ، ووزير المال الذى يسير ديـــوان المحاسبة وديـــوان الضرائب ، والوزير المكلف بالكتابات السياسية ورجال الامن .

ويلح ابن خلدون على اهميـــة منصب « الحاجب » الـــذى يلعب دور الوسيط بين الملك من جهة وبين الموظفين السامين من جهة أخرى .

ولاشك أن نظاما يستمد أصوله من النظام الموحدى لا يستغرب فيه أن يولى اهتماما كبيرا لنظام الحسبة الذى يكلف رجاله بمحاربة الشر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

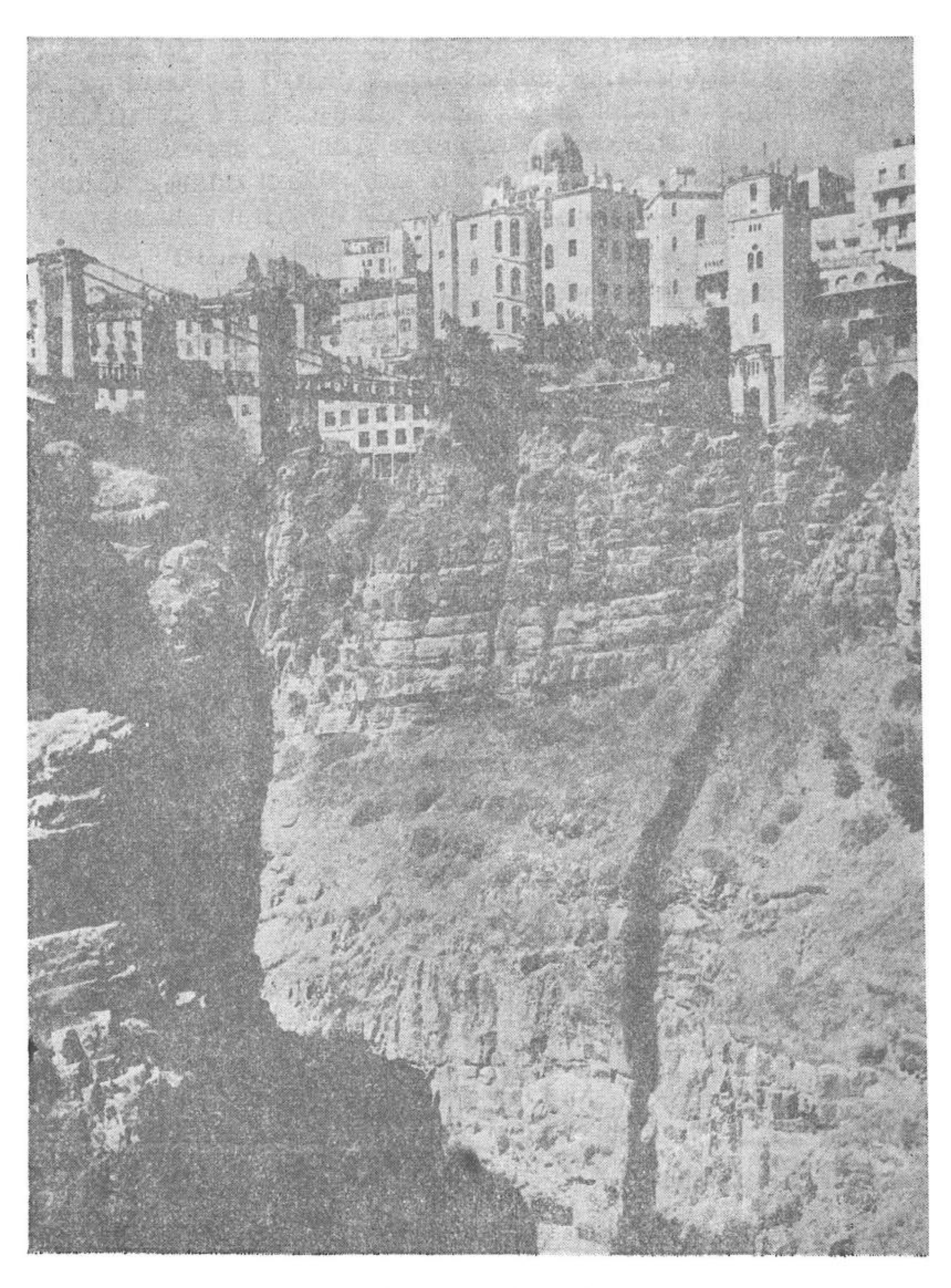
وكان اشياخ الموحدين يقبضون مرتبا ماليا اربع مرات فى السنة زيادة على الهدايا والمنح ، كما كان رؤسـاء القبائل العربيـــة يقطعون الاراضى مقابل تأييدهم للملك ، وعلى الرغم من أن الجيش كان يتـــركب من عناصر عربية ومن عناصر بربرية ومن عناصر تركية وعناصر افريقية أخرى ، فانه كان جيشا قويا يعترف المؤرخون بنظامه ودقة تكوينه وشدته فى الحرب ، على الرغم من أن الاسلحة الثقيلة كانت تنقصه فى ذلك الحين .

لكن القوة العسكرية البحرية لم تكن فى نفس مستوى الجيش البرى ، مما اعان على تدهور الدولة الحفصية .

وكانت ادارة المقاطعات تكتسى ثلاثة اشكال متميزة ومختلفة باختلاف موقع المقاطعة : ــ ١ فالقبائل العربيـــة كانت تأتمر فى معظمها بأوامـــر مشائخها الذين تؤهلهم لهذا المنصب خصالهم ومميزاتهم الشخصية ، دون أن يكون هناك نظام متبع لتقلدهم خطة المشيخة ، وعندما تتحالف القبائل العربية مع السلطة المركزية ، يلعب هؤلاء المشائخ دورا مزدوجا : دور اعوان السلطـــة المركزية ازاء افـــراد القبيلة الذيـــن يستخلصون منهـــم الضرائب ، ودور ممثلى القبيلة ازاء الملك .

ــ ٢ ــ أما مقاطعات الجنوب فقد اضطر الملوك الضعفاء الى محاباة العائلات الكبرى منها فتركوا لها نوعا من الحكم المحلى ، وقد تعب الملوك الذين ارادوا القضاء على هذه السلطات المحلية فى الجنوب ، ولم يتمكنوا من استئصال ذلك اللون مـــن الوان الحكـــم المحلى الذى استمر قائمـــا بالجزائر الى عهد الاتراك .

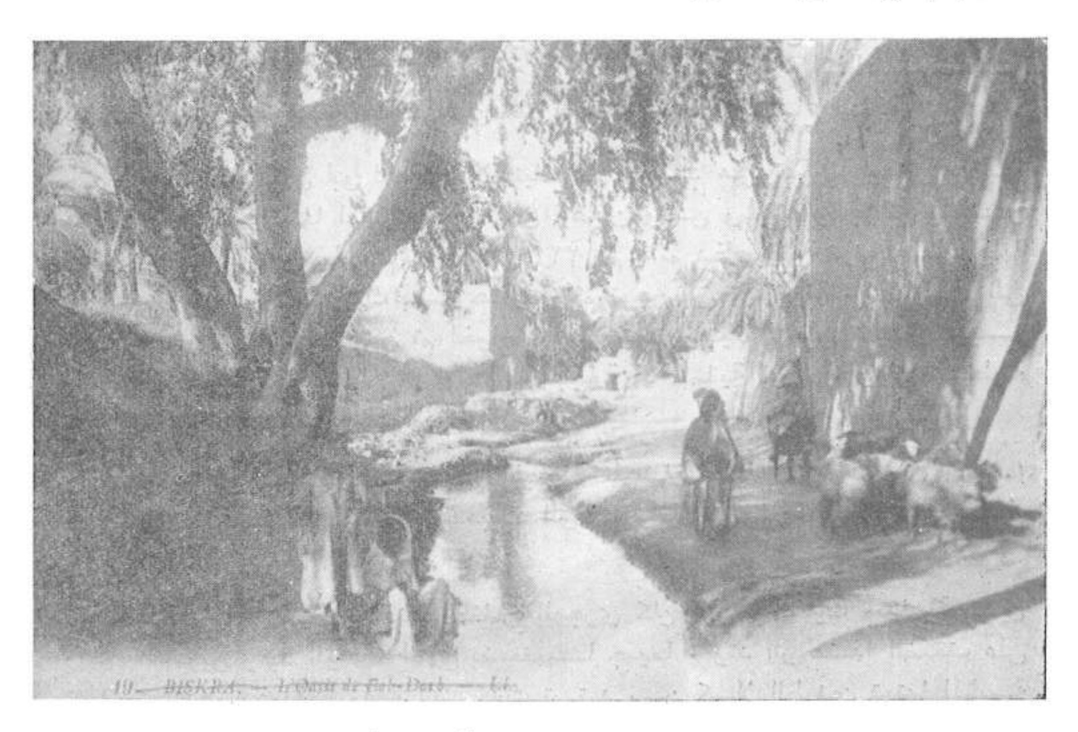
ــ ٣ ــ وهناك اخيرا المناطق والمدن التى يستطيع الملك أن يبسط عليها نفوذه مباشرة ، وفى هذه الحالة يعين عليها واليا لادارتها غالبا ما يكون من افراد العائلة المالكة ، ان لم يكن من أبناء الملك .



القنطرة المعلقة بقسنطينة

بنو مرين بالجزائر

بنو مرين من زناته ، مثل بنى عبد الواد ، كانوا يقطنون الزاب ، فى منطقة بسكرة ، ثم نزحوا عنها غربا عند مقدم الهلاليين . وعندما دعم عبد المؤمن سلطانه ، كان بنو مرين يقيمون فى سهول وهران ، وقد ساهموا حينذاك فى حلف زناته الذى تكون ضد الموحدين ، وعندما انهزموا لجأوا الى اعماق الصحراء ، ورفضوا التعاون مع الدولة المؤمنية بخلاف بنى عمومتهم بنى عبد الواد ، ومكثوا فى عزلتهم لم يخرجوا منها الا فى عهد شيخهم محيوتل الذى قتل فى احدى المعارك ، فخلفه ابنه عبد الحق الذى دخل بهم الى المغرب الاقصى سنة ٦١٠ هـ.



منظر من واحات (بسكرة)

وقد اقتفت الدولة المرينية آثار من قبلها فى النظم الادارية والقضائية والمالية والحربية ، وقد ظهر البارود فى أيام هذه الدولة .

وعلى الرغم من انشاء بنى مرين وبنى عبد الواد الى زناته ، فقد كانت الخلافات بينهم كثيرة ، وتعددت بينهم الحروب ، واثر احدى تلك المعارك تمكن المرينيون من الاستيلاء على ندرومة في رجب ٦٩٨ هـ. وفي نفس الفترة ملكت الدولة المرينية كامل مملكة تلمسان ، ماعدا المدينة التى امتنعت عليها رغم حصار شديد لم يرتفع الا بمقتل سلطان بنى مرين على يد أحد مماليكه .

كما بسطت بنى مرين نفوذها على هنين سنة ٦٩٩ هـ. (١٢٩٩م.) وكذلك على وهران ومستغانم ومزغران وتنس ومليانة والقصبات وبرشك وشرشال والونشريس ومازونة والبطحاء وتامزقدت سنة ٧٠٠ هـ. ١٣٠٠ وتفريقنت والمدية سنة ٧٠٣ هـ. (١٣٠٣ م.)

لكن سلطان بنى مرين على الجزائر لم يدم طويلا ، والواقع ان الجزائر لم تعرف من ملوك بنى مرين الا الحروب والخرائب التى تتسبب فيها الحروب . والآثار الوحيدة التى تركها ملوكهم كانت عبارة عن مشاريع مكملة لخطط الغزو والحرب ، اكثر مما كانت مشاريع عمرانية : فبناء قصبة المدينة في سنة ٧٠٤ هـ. كان لغرض عسكرى ، وكذلك بناء محلة المنصورة في مواجهة تلمسان كان الغرض منه هو اخضاع الدولة الزيانية .

وقد تمكن أبو الحسن الاستيلاء من جديد على ندرومة وهنين سنة ٧٢٥ هـ. كما استولى على مدن وهران وتنس ومليانة والجزائر وسائر المغرب الاوسط عام ٧٣٦ هـ. (١٣٢٤ م.) ثم دخل بجاية فرفع عن اهلها ربع المغرم ، وترك بها حامية ، ثم توجه الى قسنطينة ، ثم تقدم الى تونس فملكها ، لكن تم اخراج مرين بعد استيلائها على تلمسان سبع سنوات ، وبعد أن استولت على بجاية لمدة ثمانية اعوام ، وعلى قسنطينة وبونة لمدة ثلاثة اعوام .

ثم عاد بنو مرين الى مهاجمة تلمسان عام ٧٧١ هـ. (١٣٦٩ م.) فاستولى على مملكة بنى عبد الواد ، واقام بتلمسان الى أن توفى عام ٧٧٤ هـ. (١٣٧٢ م.)

والخلاصة ان القرن الثامن الهجرى كان قرن معارك مستمرة بين مرين وعبد الواد ، انتهى بضعفهما جميعا ، وقد أثر هذا الضعف على تدهور دولة غرناطة التى كانت تستمد من كلا الطرفين قوتها المالية والعسكرية ، وكان ذلك من بين العوامل الاضافية التى ادت الى سقوط الاندلس .

الدولة الزيانية بين نارين

ما ان دب الضعف الى مملكة المؤمنيـين حتى ظهرت محاولات ادت الى تجزئة المغرب العربي : فأعلن الوالى الحفصى استقلاله بتونس ، واستقل بنو عبد الواد بقيادة يغمراسن بن زيان بتلمسان وضواحيها ، واستولى بنو مرين على فاس .

لكن الظاهرة التى تستحق التسجيل فيمـا يتعلق بهذه المحاولات ، هى انها لم تنطلق من منطلق انفصالى ، بل ان كل واحد من الذين ثاروا على السلطة المركزية ، كان يحاول أن يحقق تحت ظله ، نفس الوحدة التى كانت موجودة فى عهد الموحدين ، لكـن هناك عوامل أخـرى نتبين بعضا مـن مظاهرها وجزئياتها هنا ، هى التى حالت دون ان تتحقـق هذه الوحدة ، وابرز هذه العوامل هو التكتل الذى تم بين بعض الفرق الهلالية وبين بعض القبائل البربرية التى لم تستقر فى المدن أو حولهـا ، مما حال أن يتحقـق التوازن بين الريف والمدينة ، كما منع المدينة من ان تنجح فى بسط نفوذهـا على الريف لمدة طويلة . وزاد فى اهمية هذا العامل ان الثورات التى نجمت بعد ضعف وانهيار مملكة الموحدين ، خلفت خرائب وقضت على عدة مدن هامة ، مما ضاعف من نسبة الاختلال فى التوازن بين المدينـة والريف ، واضعف سلطان المدينـة بحيث أصبحت عاجزة عـن ان تفرض احتـرام السلطة المركزية . وقد تأثر المغرب الاوسط ــ الجزائر ــ بهذا الوضـع اكثر من شقيقيه .

وليس من محض الصدفة أن تتمكن قبيلة من القبائل الرحل ، هى قبيلة بنى عبـد الواد ، فى هذه الظروف بالذات مـن أن تفـرض سلطانها على تلمسان .

وقد كان بنو عبد الواد من حلفاء الموحدين وكانوا مخلصين فى حلفهم للموحدين .

لكن ضعف الموحدين ، دفع احد قادتهم ، يغمراسن ، الى ادراك ما فى هذا الضعف من خطر على بني عبد الواد ، اذ ان تدهور وانحلال الموحدين

يؤدى حتما الى ضياع السلطة المحلية من حلفائهم . وقد عرف يغمراسن كيف يختار الوقت المناسب لاعلان استقلاله وايجاد مملكة مستقلة استمرت من سنة ٦٣٣ هـ. (١٢٣٥ م.) الى سنة ٩٦٢ هـ. (١٥٥٤ م.) وقد اصبحت تلمسان هى عاصمة المملكة الجديدة ، ولا شك ان اهمية موقع المدينة ، لعب دورا هاما فى التوطيد للمملكة الناشئة ، فهى ملتقى لعدة طرقات وعدة شبكات تجارية بين البحر والصحراء من جهة ، وبين المغرب الاوسط والمغرب الاقصى من جهة أخرى ، وقد مكنها هذا الموقع الممتاز من الاحتفاظ بنشاط تجارى هام حتى فى فترات الازمات المختلفة التى مرت بها ، فقد كانت تستورد العاج والذهب من السودان ، وتصدر الاصواف والاسلحة والكتب . وقد أدرك تجار تلمسان ما لهذا الموقع من اهمية بالنسبة للحياة الاقتصادية ، فحاولوا دائما ابقاء التجارة بعيدا عن الهزات السياسية ، ولذلك اشتهر تجار تلمسان بالصدق ، كما شهد لهم بذلك ليون الافريقى . وذلك هو الذى يفسر فى الوقت نفسه ذلك التناقض الصارخ بين الوضعية الاقتصادية ، ووضعيتها السياسية : فبينما كانت وضعيتها الاقتصادية ممتازة ، كان وضعها السياسى سيئا ، لانها كانت واقعة بين شقى رحا : المملكة الحفصية شرقا ، والمملكة المرينية غربا التى كانت تود ضمها الى فاس .

وهذا الوضع السياسى بالاضافة الى بعدها عن قلب المغرب الاوسط الذى وقعت فى طرفه ، هو الذى يفسر عدم تمكن تلمسان من اقامة مملكة واسعة قوية النفوذ .

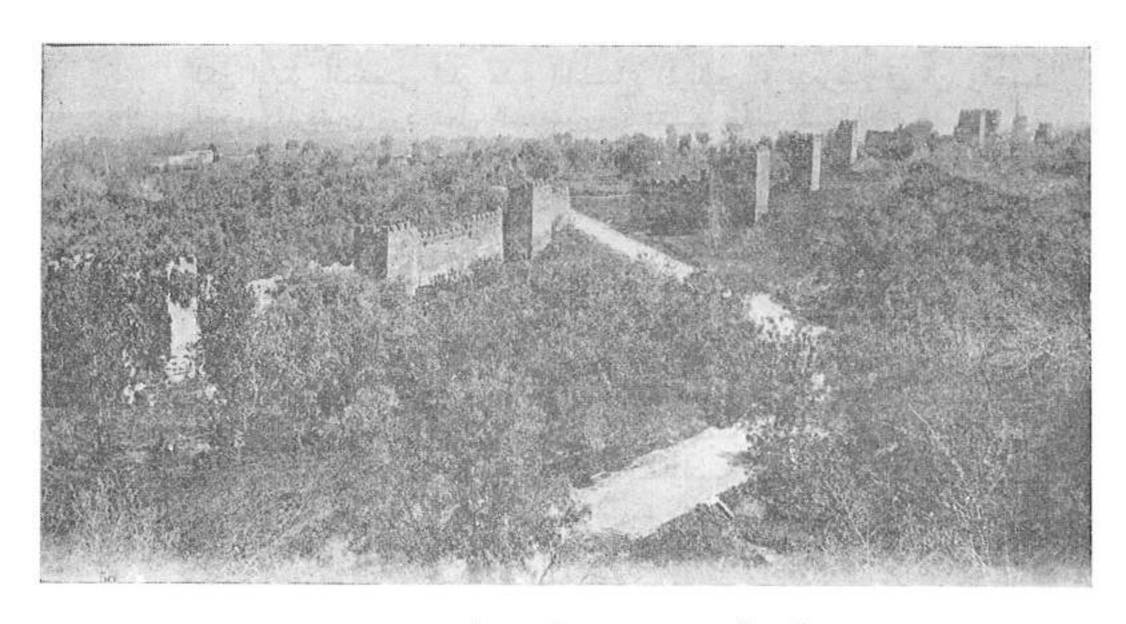
يغمراسن بن زيان :

هو مؤسس المملكة « وكلمة يغمراسن معناها المتفوق » حكم مدة طويلة استغرقت مابين سنة ٦٣٥ هـ. (١٢٣٥ م.) وسنة ٦٨٢ هـ. (١٢٨٣ م.) أى ما يقرب من خمسين سنة . وقد عرف يغمراسن كيف يستغل التناقضات التى كانت قائمة فى عهده ، كى يضمن الوجود لمملكته الناشئة ، فواجه الحلف الذى تم بين المرينيين وبين عبيد الله ، بحلف آخر عقده مع عرب السويد من قبيلة بنى زغبة .

وقد أدرك يغمراسن انه لا يستطيع ان يبسط نفوذه على المغرب الاقصى فنصح ابناءه ، عندما شعر بدنو أجله ، ان يتخلوا عن محاولة احتلال

المغرب الاقصى ، وأن يعملوا على تمديد نفوذهم شرقا ، وقد حاول أبناؤه تنفيذ وصيته ، فاستغلوا موت المستنصر الحفصى ، وحاولوا اخضاع قبائل زناتة التى كانت تقطن فى وادى الشلف ، كما حاولوا الاستيلاء على بجاية، لكن الحفصيين عرفوا كيف يردون الخطر باثارة أطماع المرينيين كما رأينا .

الا أن تلمسان استطاعت أن ترد هجومات المرينيين أربع مرات ، وعند فشل سلطان فاس فى الاستيلاء على تلمسان أراد تجويع المدينة فى عام ٦٩٩ هـ. (١٢٩٩ م.) وذلك بأن فرض عليها حصارا شديدا دام ثمانى سنوات . وشيد سلطان فاس أبو يعقوب فى مواجهة المدينة المحاصرة قصرا ومسجدا ومساكن لضباط جيشه ومديرى أمور الادارة ، وحمامات عمومية وفنادق وسوقا ، ونشأت مدينة جديدة ، هى محلة المنصورة ، وعرفت ازدهارا اقتصاديا كبيرا .



محلة المنصورة «تلمسان»

الا أن سكان تلمسان القديمة صمدوا وصبروا على الحصار ، حتى أكلوا الكلاب والثعابين ، واستمرت المقاومة بعد موت الملك فجأة فى عام ٧٠٤ هـ. (١٣٠٤ م.) واستعد ابنه أبوزيان لتنظيم رد فعل عنيف ، عندما قتل أبو يعقوب بيد أحد المماليك ، فأبرم السلم ، وتمادت الفرق المرينية الى فاس . وقد مات فى هذا الحصار ما يقرب من مائة وعشرين الف نسمة .

قرر أبوزيان الانتقام من القبائل العربية التى أيدت سلطان فاس ضده ، لكنه سرعان ما انتبه من انه لا يستطيع أن يضمن المنعة لحكمه بدون اعانة تلك القبائل ، فتحالف مع بنى يعقوب بنى عامر وشكل منهم فرقة .

بعد موت أبى زيان ، عمل اخوه أبو حمو موسى الاول على تعزيز المدينة حتى تستطيع الثبات فى وجه حصار متوقع ، كما عمل على ترقيع الخرائب التى خلفتها سنوات الحرب ، ثم قرر توسيع نطاق مملكته شرقا ، وحاول الاستيلاء على قسنطينة وبجاية ، ومات مقتولا بايعاز ابنه عام ٧١٨ هـ. (١٣١٨ م.)

ومن آثار أبى حمو موسى الاول تأسيس مدينة اقبو ، وبناء القصر المعروف باسمه على وادى تهل قرب مازونة ويعرف اليوم بعمى موسى .

خلفه ابو تاشفين الذى حاول بدوره ضم قسنطينة وبجاية الى سلطانه، لكن ابابكر الحفصى اثار عليه اطماع المرينيين ، فتعرض فى آن واحد لهجوم المرينيين ورد فعل الحفصيين ، فقد حاصر سلطان فاس ، أبو الحسن ، تلمسان ، ولم يتمكن الملك الزيانى من رد المرينيين فى هذه المرة ، اذ تخلى عنه بنو يعقوب بنى عامر ، فمات فى الميدان مع ثلاثة من أبنائه وقائد جيشه .

لكن المرينيين لم يتمكنوا من الاحتفاظ بتلمسان ، فقد تمكن الزيانيون من العودة الى تلمسان باعانة عرب الذواودة ، وانتصب ابو حمو موسى الثانى بتلمسان بعد أن كان لاجئا فى تونس ، وقد حاول بدوره ضم بجاية الى مملكته ، وكأنه كان يشعر مثل الذين سبقوه ، ان مصير المملكة رهن بتطور الوضع فى قلب الجزائر ، لكن محاولته البت عليه العرب الذين تحالفوا مع المرينيين ، فلجأ الى مزاب ، وتمكن مرة أخرى من العودة الى تلمسان التى عرفت فترة ازدهار كبير استمرت عشر سنوات من عام ٧٧٤ هـ. (١٣٧٢ م.) الى ٧٨٤ هـ. (١٣٣٢ م.) ، ومرة أخرى حاول ابوحمو موسى الثانى ان يبسط نفوذه على وسط الجزائر ، وحاول ان يجعل مدينة الجزائر عاصمة لملكه ، فتسببت هذه المحاولة فى اثارة المرينيين عليه ، الذين استعملوا ضده ابنه أبا تاشفين عبد الرحمن الثانى حتى يحولوا دون تكوين دولة قوية الى جنبهم .

ويعتبر أبو تاشفين الاول اوسع الملوك الزيانيين مملكة واكثرهم آثارا ، كما يعتبر أبو حمو الثانى اعظمهم قدرا ، ويظهر ذلك لمن درس كتابه « واسطة السلوك فى سياسة الملوك ».

غرناطة

بجاية

تونس

الدولة الحفصية

تلمسان

مملكة بني عبد الواد

فاس

بني مرين

المغرب العربي في القرن الرابع عشر الميلادي

وبعد ذلك دخلت الدولة الزيانية فى طور التدهور الى أن أجهز عليها الانحلال الذى جعل بعضا من ابناء بنى زيان يقبلون بالحماية الاسبانية من أجل الاحتفاظ بملكهم ، مما دفع الشعب الى التكتل ضدهم وفتح طريق الحكم للاتراك باعتبارهم احسن مدافع عن الاسلام فى نظر الجماهير الشعبية حينذاك .

المملكة :

تمتد المملكة الزيانية من البحر الى الصحراء طولا ، وتمتد عرضا من ناحية وادى مينة وجبال سميدة الى ملوية وفيقيق . وقد تمكن الزيانيون من فتح مدينة الجزائر ومدينة دللس سنة ٧١٢ هـ. (١٣١٢ م.) وبلغوا تيكلات قرب بجاية ، وتلمسان ، عاصمة المملكة . علم زناتى مركب من كلمة « تلسم » بمعنى تجمع ، وكلمة « سان » بمعنى اثنين ، ويعنون بذلك أنها تجمع بين اثنين : التل والصحراء .

وصفها البكرى بقوله : « هى قاعدة المغرب الاوسط ودار مملكة زناتة وموسطة قبائل البربر ومقصد تجار الآفاق » وقال عنها عبد الرحمن بن خلدون « فأصبحت أعظم أمصار المغرب ، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع ، وضاهت أمصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية » .

ومن أهم المدن الزيانية ميناء هنين الذى خربه شارلكان بعد ذلك ، وقد وصفه البكرى بقوله :

« حصن هنين على مرسى جيد مقصود ، وهو اكثر حصون ساحل تلمسان بساتين وضروب ثمر .. بينها وبين ندرومة ثلاثة عشر ميلا » .

وبالرغم من أن الدولة الزيانية كانت مستقلة داخليا وخارجيا فانها لم تدع الخلافة فى مبدا الامر ، اذ كانت تدعو لدولة الموحدين ، ثم كانت تارة تدعو للمرينيين وتارة للحفصيين . ويتألف جيش الدولة الزيانية من أربعة أقسام : الاول قسم الخاصة ، وهم وجوه القبائل ومنهم يتم تعيين قادة بقية الاقسام ، والثانى القبيل ، وهم بنو عبد الواد اقارب الملك ، ورئيس فرقتهم يدعى شيخا ، والقسم الثالث الانصار ، وهم نخبة من الجند يكونون محدقين بالملك فى الحرب . والرابع المماليك .

ويعتبر الملك هو مصدر كل السلطات .

أما الوزير فهو الواسطة بين الملك والشعب ، ونائب الملك فى قيادة الجيش ان لم يركب هو ولا ولى عهده ، والحاجب هو صاحب الباب الذى يأذن بالدخول للملك بعد صدور اذنه ، ويسميه الزناتيون « المزوار » .

وهناك الكاتب الذى يتمثل دوره فى عرض ما يرد من الرسائل على الملك والرد عليها .

وهناك صاحب الاشغال الذى يملك حق النظر فى الدخل والخرج .

الحضـارة : المملكة الزيانية فلاحية بطبيعة أرضها ، تجارية بطبيعة موقعها ، صناعية نظرا لتلاقح سكانها مع الجاليات الاندلسية والاسرى الاروبيين . وقد هضمت حضارات الدول الجزائرية الاولى واخرجت حضارة ذات طابع خاص ، كانت هى خاتمة الحضارات الجزائرية المحلية . وقد تعجب بعض المؤرخين من ازدهار تلمسان وقيام المملكة الزيانية رغم الاطماع التى كانت تحيط بها شرقا وغربا وشمالا حتى أن المؤرخ مارس قال عنها « ان وجود تلمسان يعتبر معجزة دائمة » ، والواقع أن الذى يفسر هذه المعجزة هو البنية الاقتصادية للمدينة من جهة وروح حضارتها من جهة أخرى ، مما جعل منها ممثلة لشىء أكثر من سلطة سياسية مؤقتة . وهذا هو السر فى تلك الجاذبية التى جذبت عدة مفكرين وأدباء لامعين الى تلمسان التى تجاوزت سمعتها العلمية والادبية حدود المغرب الاوسط الى الاندلس والمشرق .

كان النشاط الفلاحى للمملكة قائما على زراعة القمح فى الدرجة الاولى، ثم الزيتون ، كما كان يزرع فيها القطن والكتان وقصب السكر وسائر الحبوب والثمار والفواكه والبقول ، وقد سجلت الدولة الزيانية عناية فائقة بترقية أساليب الفلاحة واستخراج المياه واستجلابها .

وكانت تربط تلمسان علاقات تجارية مع أوربا والسودان : فقد كانت مراسيها مثل هنين تربطها بأوربا ، كما كانت مدينة تيزيل الواقعة جنوب تلمسان هى التى تنطلق منها القوافل الى سجلماسة وورقلة ومنهما الى السودان .

وقد عرف أبو تاشفين الاول كيف يعمل من أجل تعميم العمران ، ومن آثاره الصهريج الاعظم ، وبناء مدرسة رائعة جنب الجامع الاعظم .

ومن آثاره أيضا احاطة مدينة الجزائر بسور عظيم ، وانشاء قصبة سيدى رمضان جوار الجامع الذى عرف باسم جامع سيدى رمضان ، وتوسيع الجامع الاعظم وبناء منارته .

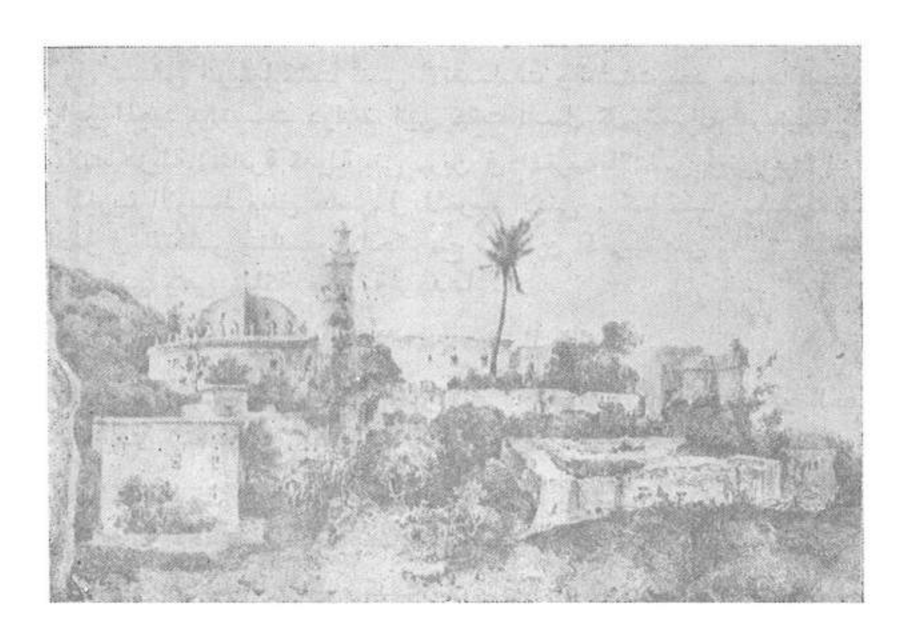
ومن دلائل التقدم الفنى أيام أبى حمو الثانى صناعة الساعة المشهورة بالمنقانة ، وهى خزانة ذات تماثيل من اللجين ، بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويصدرها أبواب مرتجة ازاء كل باب ساعة من ساعات الليل ، وينقض من البابين الكبيرين عقابان فى فم كل منهما صنجة

صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضى الى داخل الخزانة فيرن . وينهش الارقام أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، ويفتح باب الساعة الراهنة فتبرز جارية بيمناها رقعة فيها اسم ساعتها منظوما ، ويسراها على فمها .

الحركة الفكرية

نهضت الدول الجزائرية التى عرفت فى التاريخ باسم الدول البربرية ــ نهضت بالعلوم والآداب نهوضا رغب المفكرين فى الانتقال اليها ، وعندما ظهر الحفصيون والزيانيون والمرينيون ، كانت منافستهم فى تقريب العلماء من مجالسهم ، تساوى تنافسهم فى مظاهر الابهة وضخامة السلطان . فتعددت المناظرات العلمية ، وازدهرت الفنون ، وقامت مدارس جسمت عليها الاوقاف لتضمن استمرار نشاطها ، وقد استحسن ابن خلدون التعليم الذى كان قائما بتونس وبجاية وتلمسان ، ويكفى التذكير بأن الوسط العلمى للدول البربرية هو الذى أنجب رجالا مثل عبد الرحمن ابن خلدون، ولسان الدين ابن الخطيب ، وابن عصفور وغيرهم .

فقد أنجبت تنس رجلا مثل ابراهيم بن يخلف الذى استقدمه يغمراسن الى تلمسان .



مسجد سيدى عبد الرحمن الثعالبى

عصر ابن خلدون

كان عصر ابـن خلـدون من احفل العصور الاسلاميـة احداثا سياسيـة واجتماعية . كان عصرا يسوده الاضطراب العام فى كامل انحاء العالـم العربى : الاندلس وشمال افريقيا والشرق العربى . وكان ذلك الاضطراب طابعا عاما لحالة الانهيار الشامل الذى كان يعانيه وطننا العربى الكبـير بعد حضارته التى ازدهرت طيلة سبعة قرون . ففى الشرق العربى كان المغول يكتسحون معالم حضارته بعد المـآسى الرهيبة التى عاناها مـن الحروب الصليبية . ويقيمون المجازر فى شعوبه ويدمرون مدنه ويحرقون أرضه ويبثون الفوضى والرعب فى بيوته وقراه . وكانت الاندلس تعـانى اواخر أيام شيخوختها تحت ضربات المسيحيين الاسبان الى جانب ما كانت تعانيه من التمزق الداخلى بين دويلاتها وامرائها ففر عنها علماؤها وارباب عمرانها :

ممـا يزهـدنى فى ارض انـدلس   اسمـاء معتمـد فيهـا ومعتضـد
القـاب مملكـة فى غـير سلطنـة   كالهر يحكى انتفاخا صولـة الاسد

وفى شمالى افريقيا كانت نفس الانقسامات والتشتت بعد عصر الموحدين الزاهر المجيد فانقسمت دولتهم التى كانت تشمل كل شمـال افريقيـا الى دويلات هزيلة متنافرة كدولة بنى مرين فى المغرب الاقصى وبنى عبد الواد فى المغرب الاوسط وبنى حفص فى المغرب الادنى . كما كـان ملـوك بنى الاحمر فى الاندلس يتنافسون الحكم مع سلاطين المغرب على ما تبقى للعرب فى الاندلس وهى مملكة غرطانة وحدها .

وكانت مصر تعانى نفس البلاء من دول المماليك

هذا هو المسرح المؤلم الذى ظهر فيه ابن خلدون . وهـذا هو العصر المظلم الذى شعت منه تلك الشعلة النادرة من العبقرية والذكاء .

ولما كان الرجل يعيش فى مجتمعه أكثر مما يعيش فى بيته كانت حياتـه صورة طبق الاصل من حياة العصر من حيث الاضطراب والتقلب والفواجـع والمآسى وكان صورة لعصره كذلك من ناحية اخـرى وهى وحدة العالـم العربى الثقافية والاجتماعية رغم مظاهر التمزق والتشتت التى يـرتدى لباسها فى الميدان السياسى . بحيث تعتبر حيـاة ابن خلدون مثالا لهـذه

الوحدة الفكرية العجيبة التى كانت تشمل العالم العربى فى المغرب والمشرق رغم التوزع السياسى الذى كان يسود كل أقطاره . بحيث لا تستطيع ان تنسب ابن خلدون مثلا الى أى قطر من الاقطار العربية دون الاخرى .
قدمت اسرته العربية الاولى مع العرب الفاتحين واستقرت بالاندلس حيث كان اعلامها دائما « بين رياسة سلطانية ورياسة علمية » كما يقول ابن



ميناء سكيكده

حيان المؤرخ الاندلسى . ولكن عبد الرحمن نفسه ولد فى تونس سنة ٧٣٢ وقضى بها شطرا من شبابه فى التعليم بجامع الزيتونة حتى كان عام الطاعون الذى قضى على اغلب افراد عائلته وشيوخه فسافر الى المغرب الاقصى لمواصلة دراسته ، ولكنه لم يكد يصل الى المغرب حتى بدات الحياة السياسية بمغرياتها ومخاطراتها فالحق فورا بوظيفة سامية عند السلطان ولكن الحروب بين سلاطين شمال افريقيا اضطرته الى الهروب والنجاة بنفسه مدة كان يتجول فيها بين المغرب والجزائر وتونس الى أن استقر فى تلمسان ثم فى بجاية ، ثم عاد الى فاس سنة ٧٥٤ والتحق بأعمال القصر السلطانى . ولكنه كان فى نفس الوقت يواصل دراسته ، الا أن المغريات السياسية كانت تراوده من ناحية اخرى فحاول الدخول فى مغامراتها ، فرماه السلطان المغربى أبو عنان — فى غياهب السجن سنة ٧٥٨ حيث قضى نحو السنتين . ثم اسعفته الظروف بتولى دولة جديدة زمام الحكم فتولى « خطة المظالم » أى ما نسميه اليوم بالشؤون العدلية . ولكن هذه الوضعية الجديدة لم تدم أكثر من سنتين حيث عصفت التقلبات بدولته واتت بدولة جديدة لم ينل عندها ابن خلدون أى حظ فأرسل بعائلته وأولاده الى قسنطينة عند اخوالهم ورحل هو الى الاندلس وكان رجالها من بنى الاحمر ووزيرها لسان الدين بن الخطيب اصدقاءه ، فأقطعوه ارضا فى دويلة غرناطة . ولكن هذه الحياة الجديدة لم تدم هى أيضا أكثر من عامين حيث ساءت العلاقات بينه وبينهم فرحل الى بجاية حيث ولاه سلطانها أبو عبد الله أرفع منصب فى الدولة وهو « الحجابة » أو ما نسميه اليوم برئاسة الحكومة . وبعد عام واحد من توليه هذا المنصب زالت دولة بجاية واستولت عليها دولة قسنطينة ولكنها اكرمت ابن خلدون ، ولكنه آثر أن يرتحل الى بسكرة عند أميرها المستقل — وهو صديقه — فأقام ست سنوات ثم عادت به أمواج الاحداث الى المغرب من جديد ثم الى الاندلس مرة اخرى ، ولكن الجو السياسى لم يلائمه لا فى المغرب ولا فى الاندلس واخذ يسأم حياة المغامرات السياسية واضطراباتها المتلونة فعزم على اعتزال الحياة السياسية والانقطاع للدروس والتأليف .

المقدمة

وفى سنة ٧٧٦ والى سنة ٦٨٠ — اقام ابن خلدون فى قلعة بنى سلامة (نواحى تيارت) . وكان عمره اذذاك اثنين وأربعين عاما . أى فى مرحلة النضج الكامل فى حياته الغنية الحافلة . وفى هذه القلعة عزم على تدوين تاريخه الكبير أو بالاحرى كتب منه المقدمة التى كانت اساس شهرته العلمية العظيمة والتى كانت جديدة فى اتجاهها ومحتواها واعتبرت فى

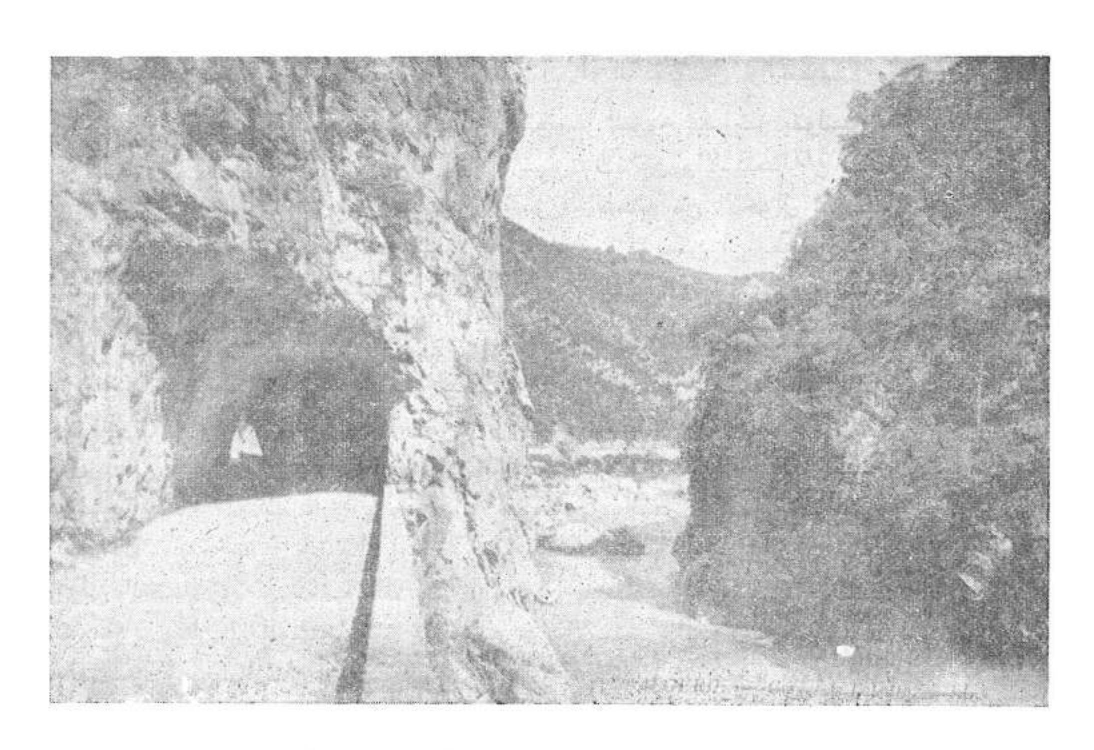
العصر الحديث اول كتاب فى فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع لانه كان أول من اكتشف خضـوع الحوادث التاريخية والاجتماعية لقوانين وسنـن ثابتة لا تختلف كثيرا عن قوانين علم الطبيعة . ولانه أول من نادى بعـدم الاكتفاء بسرد حوادث التاريخ بل ينبغى تعليلها والبحث عن أسبابها والنظر فيهـا بعين ناقدة حرة تميـز بين الاساطير والتاريخ وتقف على الخطأ والصواب فى الخبر . ثـم توسع ابن خلـدون فى هذا البحث فحلـل نواحى الحيـاة الاجتماعية ومختلف هياكلها « وما يعرض لطبيعة عمران العالم من الاحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات واصناف التغلبات للبشر بعضهـم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، ومـا ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر مـا يحدث فى ذلك العمران بطبيعته من الاحوال . »

وفعلا كان ابن خلدون فى المقدمة عالما فاحصا متجردا ينظر الى حوادث المجتمع على أنها خاضعة للبيئة الجغرافية والظروف الاقتصادية والتطـور الاجتماعى عند الامم . ويذكر بكل تجرد ما لمختلف المجتمعات من المزايـا والعيوب معللا اياها بعلل جغرافية أو تاريخية أو تطورية متخلصا من كل مركبـات الغـرور أو النقص والتحـامـل أو التستـر والتعصب أو التغاضى . وجعـل لنفسه فى كل ذلك قانونـا التزمه وشرحه بقولـه : « القانون فى تمييز الحق من الباطل فى الاخبار بالاماكن والاستحالة أن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ونميز ما يلحقه من الاحوال لذاتـه وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له ، واذا فعلنا ذلك كان لنا قانونا فى تمييز الحق من الباطل فى الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهانى » .

وبعد أربع سنوات قضاها ابن خلدون فى تأليف هذا الكتاب الخالد عاد مرة أخرى الى تونس للنظر فى بعض المراجـع والكتب . وفى سنـة ٧٨٤ سافر الى مصر واشتغل بالتدريس وكانت سمعته قد سبقته اليها فعـين قاضى القضاة المالكية . ولحقته عائلته عن طريق البحر ولكنها غـرقت . وبعد ثلاث سنوات فى القضاء استقال منه وقصد الحج . ثم عاد الى مصر وتولى القضاء من جديد مع التدريس دون أن ينقطـع عن العمل فى كتاب التاريخ . وكان فى الوقت نفسه لا ينقطع عن الاسفار والرحلات الى الشام وفلسطين ، وبينما كان فى دمشق سنة ٨٠٣ أن تعرضت لغزو تيمور لنك المغولى . ووقع ابن خلدون أسيرا فيمن وقع فتعرف على تيمور لنك فأعجب به هذا الاخير وعرض عليه مصاحبته والعمل فى بلاطه ولكن ابـن خلدون امتنع واعتذر بلباقة . وعاد الى مصر كما عاد الى منصب القضاء للمـرة الثالثة ثم استقال منها للمرة الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ، وفى يـوم ٢٥ رمضان سنة ٨٠٨ توفى فى مصر .

ومن الاسف أن التراث الفكرى الجبار الذى تركه ابن خلدون لم يواصله من بعده أحد من العلماء الذين انضموا اذاك فى العلوم الفقهية والقواعد اللغوية الميتة .

ويعتبر ابن خلدون من أعظم مفكرى الاسلام ولكنه المفكر الاسلامى الوحيد الذى شذ عن قاعدة الفلاسفة المسلمين الآخرين ، فقضوا اغلب حياتهم الفكرية والفلسفية فى البحث عن مشاكل ما وراء الطبيعة ولم يولوا الا جزءا زهيدا من مجهودهم الفكرى فى المشاكل الاجتماعية . بعكس ابن خلدون الذى كرس كل جهوده فى هذه القضايا التى أصبحت من بعد ذلك فى عصر النهضة الاوربية هى محور بحوث وجهود الفلاسفة الغربيين وعرفوا كيف يستفيدون من بحوث ابن خلدون الاجتماعية فى وقت كان فيه هذا المفكر المغربى مجهولا فى حلقات التدريس والمجامع العلمية واوساط المثقفين . ولم تكتشف قيمته الا فى أيام النهضة الحديثة .



طريق الاخضرية (باليسترو سابقا)

من الحروب الصليبية إلى الغزو التجارى

بعد أن نجحت القوات الاسلامية فى زحزحة الروم البيزنطيين عن الشمال الافريقى ، عبرت البحر الى الاندلس التى جعلتها وطنا اسلاميا لعب فيه العرب والمسلمون دورا حضاريا خالدا ، وقد تقدمت الفتوحات الاسلامية شمال جبال « البيرينى » وشرقها ، خصوصا مدة ولاية عبد الرحمن الغافقى الذى وصلت طلائع جيشه الى مدينة « صانص » التى لم تكن تبعد عن باريس الا بنحو مائة كيلومتر .

ولئن لم يكن الاسبان يدينون بالمذهب الكاثوليكى ، فان الملك « ريكارد » اعتنق المذهب الكاتوليكى عام ٥٥٧ هـ. على أن نصارى الاسبان قد ظلوا ، رغم ذلك ، لا يعترفون بسيادة البابا عليهم ، الى النصف الثانى من القرن الحادى عشر المسيحى ، أى قبل اندلاع الحروب الصليبية بالمشرق ، عندما أصبحت مملكة أرغونة تحت السيادة البابوية . وفى مقابل هـذا الاعتراف نال الملك « سانشى رامريز » اذنا من البابا بمحاربة المسلمين مـن ريع أحباس الكنائس الواقعة فى مملكته .

وفى عهد البابا قريقوار السابع سنة ٤٦٨ هـ. (١٠٧٥ م.) اعترفت جميع مناطق اسبانيا المسيحية بسلطة البابوية ، وبعد سقوط طليطلة فى عام ٤٧٨ هـ. وفد الى اسبانيا كثير من المحاربين الفرنسيين نتيجة لمساعى المطران « برنارد » الذى ارتفعت منزلتـه فمنحه البابا أوربان الثانى ، الثوب الكهنوتى ، وانتصب رئيسا أعلى للكنيسة الاسبانية .

وفى مجمع « كليرمون » الذى أعلنت فيه الحرب الصليبية بالمشرق ، أراد المطران « برنارد » وعدد من القساوسة الاسبان المشاركـة فى الحروب الصليبية بالمشرق ، فصدهم عن ذلك البابا أوربان بناء على أنه توجـد فى اسبانيا حرب صليبية ، وعلى هذا الاساس أصدر البابا المذكور مرسوما حـرم فيه على رجال الديـن والفرسان الاسبان المشاركـة فى الحروب الصليبية بالمشرق . وقد استغل عدة فرسان هذا المرسوم ، فهرعوا من مختلف انحاء أوربا الى الاندلس ليساهموا فى حرب صليبية لا تكلفهم مـن العناء ما تكلفهم اياه الحروب الصليبية فى المشرق . بل ان البعثات الصليبية التى كانت ترد من أوربا الشمالية ، على نية التوجه الى المشرق لم تكـن ترى مانعا من اعانة الملوك الاسبان فى حروبهم ضد المسلمين .

وهكذا كان مسلمو الاندلس يواجهون حربا صليبية عنيفة تجند فيها قسم هام من أوروبا ، ومن الجدير بالتسجيل انهم وجدوا ، بجانبهم ، مسلمي المغرب العربي ، يؤازرونهم ويمدونهم بالمال والسلاح والرجال والقادة الحربيين .

لكن الخلافات المذهبية التي نجمت بالمغرب العربي تسببت في توقف مدد المغرب العربي الى الاندلس ، فقد انقطع مثلا ذلك المدد عن ابن غانية ، والى المرابطين بالاندلس ، لان المرابطين كانوا مشغولين بثورة الموحدين . بل ان ابن غانية ، عندما انقطع عنه المدد المرابطي من جهة ، وعندما رأى تفوق الموحدين من جهة ثانية خشي على نفسه وتحالف مع قشتالة المسيحية ضد الموحدين ، مما أدى الى ازدياد خطر المسيحية وتجرئها على شواطىء المغرب العربي .

وقد استطاع الموحدون ، أن يردوا ذلك الخطر مؤقتا ، بتوحيد المغرب العربي من جهة ، وبتوجيه الامداد الى الاندلس من جهة اخرى . لكن ضعف الموحدين بدأ منذ هزيمتهم في معركة العقاب سنة ٦٠٩ هـ)١٢١٢ م.(وتمزق سلطانهم باستقلال الحفصيين بتونس وبني مرين بالمغرب الاقصى،

وتأثرت الاندلس بهذا الانقسام ، فسقطت مدنها الواحدة تلو الاخرى بيد المسيحيين ، وانحصر النفوذ الاسلامي في مملكة غرناطة تحت سيادة بني الاحمر ، التي سقطت بدورها في ٨٩٧ هـ.

وفور سقوط غرناطة ، شنت المسيحية حملات قمعية واسعة النطاق ضد مسلمي الاندلس ، ثم اتجهت بأنظارها الى شواطىء المغرب ، تريد أن تحتلها ، في حركة تعد امتدادا في المغرب العربي ، للحروب الصليبية التي كان المشرق ميدانا لها ، وفي هذه الصفحة الجديدة ، من صفحات المعركة بين الاسلام والنصرانية ، ظهر الاتراك العثمانيون الذين نهضوا لرد الاعتداءات المسيحية الاسبانية ، باعتبارهم هم الذين تولوا زمام قيادة المعركة ، بعد انتصارهم على الروم وسقوط القسطنطينية ، وفي غمار هذا المجال الجديد من مجالات المعركة القديمة ، ظهرت أبعاد جديدة أعطت الصراع طابعا خاصا ، ظهرت في أحد طرفيه ممالك المغرب العربي ، وفي طرفه الآخر ، أوروبا الغربية التي أرادت أن تجد في بلادنا متسعا حيويا لها ، وسوقا طيعة يسيطر عليه احتكارها .

القسم الخامس

الحكم التركي وعصر الجمود

- عروج وخير الدين
- الفئة الحاكمة : ممن تتكون
- الثورة الشعبية ضد الاتراك
- مغزى الانتقال الى القصبة
- أروبا تهدد الجزائر
- التنظيم الاداري
- الاسطول الجزائري

عروج وخير الدين

كان سقوط غرناطــة فى يد الاسبان فى غرة ربيع الاول عــام ٨٩٧ هـ. (٢ جانفى ١٤٩٢) بدء مرحلة جديدة فى تاريخ التوسـع الاستعمارى الاسبانى، وهى مرحلة تولدت عنها ردود فعل حاسمة بالنسبة لتاريخ الجزائر .

فقد عمل الكاردينال كسيمانـاس ، المشهور بتعصبه الدينى ضد المسلمين على اثارة مخاوف الملكة اليزابيت من مسلمى الشمـال الافريقى ، ودعاها الى نقل الحرب الى المغرب العربى ضد المسلمين .

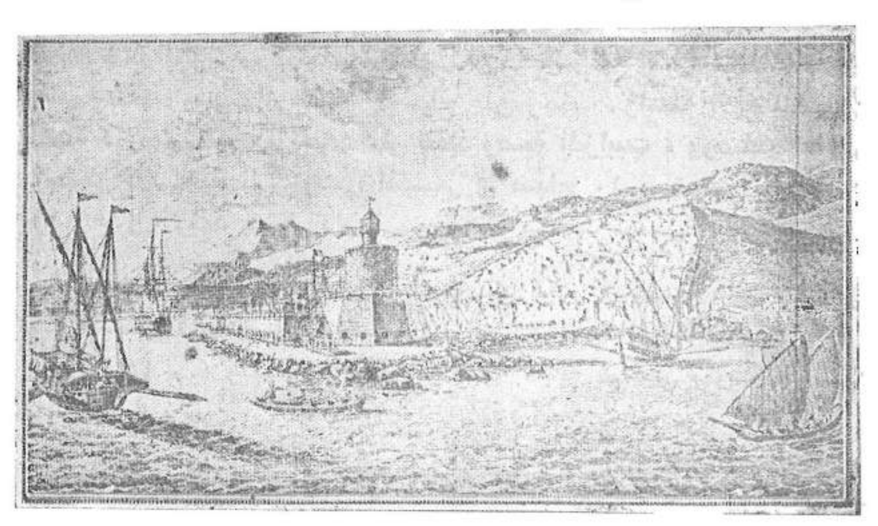
استجابة لهذه الدعوة ، شرعت الملكة اليزابيت فى اعــداد حملة واسعــة النطاق ضد الجزائر . لكنها توفيت قبل ان تحقق رغبة الكاردينال المتعصب : وعندما فتحت وصيتها وجد بها الالحاح على وجوب مواصلة الاعداد لتجهيز **الحملة ، وصمم الملك فرديناند على تنفيذ وصية اليزابيت ، ووصلت البواخر والعمائر الاسبانية الى مرسى الكبــير فى صباح ١٠ سبتمبــر ١٥٠٥ م.** (٩١١ هـ.) ، وبعد حصار دام خمسين يوما سقطت مرسى الكبير .

لكن الاسبان وجدوا انفسهم داخل مرسى الكبير فى حصار دائم ، فقرروا توسيع نطاق قاعدتهم الى وهــران ، التى هاجموها فى محــرم ٩١٥ هـ. (ماى ١٥٠٩ م.) واستولوا عليها بواسطة خيانة شخص يهودى اسمــه « ستورا » واثنين من المسلمين .

ويدل اللقب الذى منحته اسبانيا لقائد الحامية الاسبانيــة بوهران على طبيعة النوايا الاسبانية اذ سمى « قائدا عاما لمدينة وهران وحامية مرسى الكبير ومملكة تلمسـان . » : وهى تسمية تدل دلالة واضحة على ان احتلال وهران ومرسى الكبير ليس الا مقدمة للاستيلاء على مملكة تلمسـان ، كما أن احتلال بجاية وعنابة وغيرهما من المدن كان فى اعتبار الاسبان مفتاحـا فقط للنفاذ الى داخل البلاد ، وذلك خلافا لما يدعيه المؤرخون الغربيون الذين يزعمون أنه لم يكن لأسبانيا نية احتـلال المغرب العربي . فالواقع أن الأسبان فشلوا في النفاذ الى داخل البلاد بسبب عنف المقاومة الشعبية التى اصطدموا بها في الجزائر ، كما تؤكد ذلك الشهادة التالية من كتاب شارل أندرى جوليان نفسه الذى كان من بين المؤرخين الذين قالوا بعدم وجود نية احتلال الجزائر عند اسبانيا:

« عاش الاسبان طيلة فترة الاحتلال فى حالة حصـــار . وكان الجنـــود يعانون حياة شـاقة للغاية : فأكلهم ردىء ، ولا يقبضـون مرتباتهم بانتظام . ان حامية وهران كانت تتمون بواسطة المور الحلفاء ، وكانت هذه الحامية كثيرا ما تنهب أغنام القبائل المجاورة ، ومع ذلك فقد كانت كثيرا ما تتعرض للمجاعة وقـد اثبت تحقيق رسمى أجرى في عنابـــة سنة ١٥٤٠ أن الجنود (الاسبان) كانوا يريدون الدخول فى الاسلام نظرا لحالة اليأس التى كانوا عليها » .

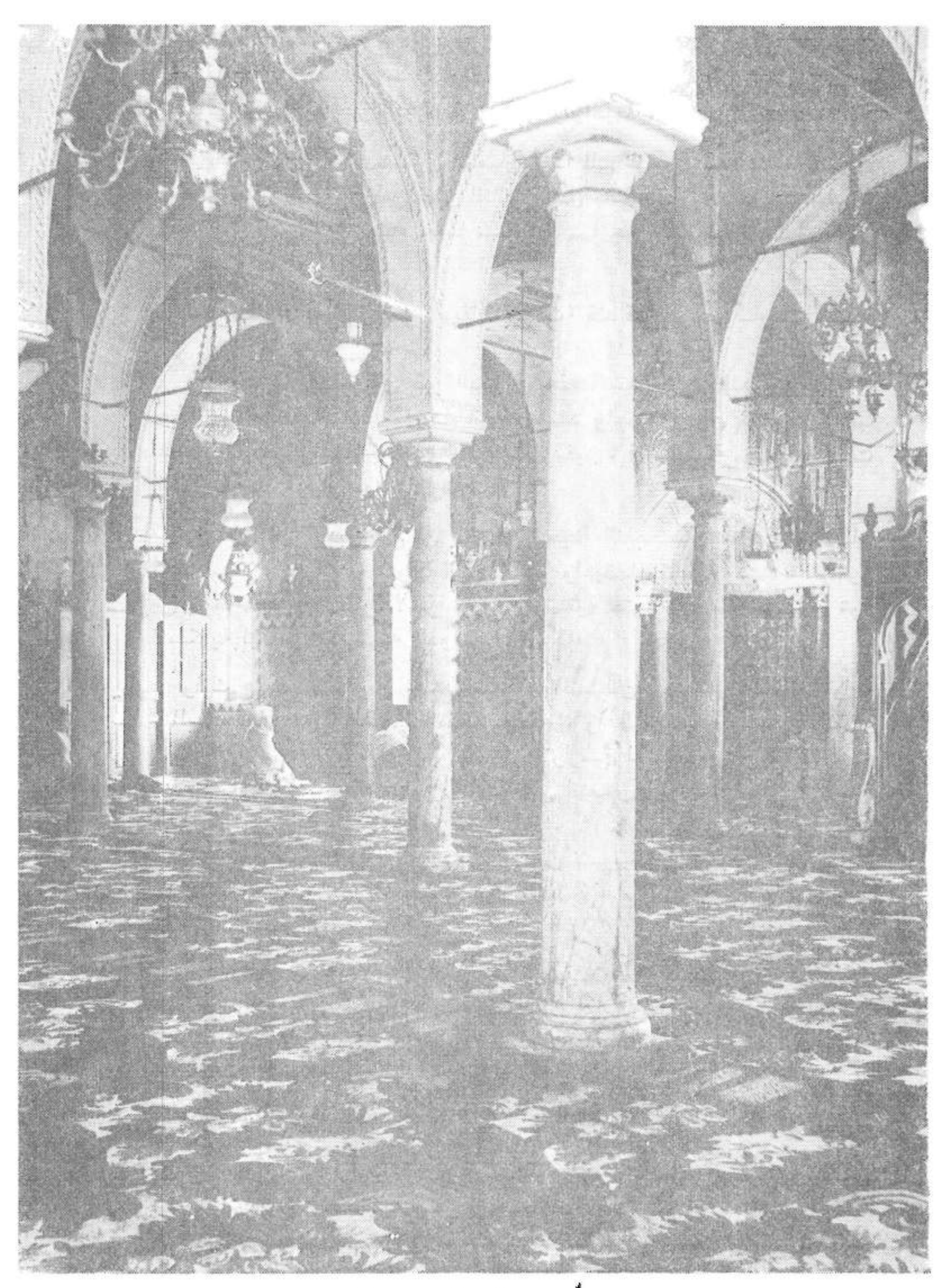
لكن المقاومة الشعبية التلقائية كانت فى حاجة الى قيادة ، ولذلك لـم تتـــردد فى الاستنجاد بالأخوين عروج وخير الدين اللـــذين لمع اسمهما فى غزوات انقاذ مسلمى الاندلس من براثن الاضطهاد العنصرى الدينى ، ومن أجل ذلـــك استنجد أبناء بجاية بهما ليعيناهم على طـــرد الجيش الاسبانى المحتل فى عام ٩١٧ هـ. (١٥١٢ م.) ، كما استنجد بهما أبناء مدينة الجزائر لطرد الاسبان من برج الفنار الذى كانوا يحتلونه فى مواجهة المدينة .



منظر عام لميناء الجزائر عام ١٧٤٩.

هذا الاستنجاد فتح أمام عروج وخير الدين باب الامل فى الاستيلاء على الجزائر ، فخفا اليها بعد أن كانا يفكران فى احتلال مصر .

الا أن سكان المدينة سرعان ما ضجروا من تصرفات الاتراك ، وظهرت بوادر تمرد ضد عروج وجنده ، استروح عروج رياحها ، فبادر بخنقه فى المهد ، وقتل بنفسه شيخ مدينة الجزائر ، سالم التومى ، وأعلـــن نفسه سلطانا على الجزائر .



مسجد صالح باي بقسنطينة

وبعد ذلك سار عروج في جوان ١٥١٧ م. (٩٢٣ هـ.) الى تنس لاحتلالها، فاستولى عليها بعد ان بسط نفوذه على المدية ومليانة ، في الوقت الذي استولى فيه اخوه خير الدين على دللس ونواحيها .

في هذه الاثناء ارسل سكان تلمسان وفدا الى عروج يطلب باسم الاسلام القضاء على السلطان ابي حمو الثالث الذي تحالف مع الاسبان ، فطار اليها عروج ، وعاث جنده بهما فسادا ، مما جعل سكانها يندمون على الاستنجاد به .

لكن أيام عروج لم تستمر طويلا بعد ذلك، فقد قتل في معركة ضد الاسبان

خطة خير الدين : كان خير الدين في هذه الاثناء بمدينة الجزائر يفكر في حبك خطة محكمة ينقذ بها سلطانه ، فقد واجهته في آن واحد مصاعب عديدة لا تحصى تتمثل بالاضافة الى مقتل اخيه ، في سلسلة من الانتفاضات الشعبية ببلاد زواوة وتنس وشرشال .

واهتدى خير الدين الى ان الخطة الوحيدة الناجحة تتمثل في ضمان تأييد سكان الجزائر ، فتودد الى علمائها واعيانها وكسب ودهم ، ثم قرر ان يربط مصيره بمصير الامبراطورية العثمانية حتى تمده بما يلزم من قوة عسكرية ليضمن لسيطرته الدوام .

وذلك هو ما تم بالفعل ، فقد استجاب السلطان العثماني ، سليم الاول، مطلبه ، واذن له ان يضرب السكة باسمه ، واعطاه لقب « باشا » وسماه « باي لارباي » افريقيا اي امير الامراء ، وارسل له نحو ستة آلاف جندي، وزوده بالمدفعية ، هذه القوة مضافة الى انتصار خير الدين على الاسبان خلال هجومهم على مدينة الجزائر في صيف ١٥١٩ م. (٩٢٦ هـ.) عززت مكانة خير الدين ، لكن ذلك لم يحل دون نشوب ثورات جديدة ضده ، ابعدته عن مدينة الجزائر خمس سنوات (من عام ١٥٢٠ الى ١٥٢٥) عاد اثرها الى الجزائر .

وأراد خير الدين هذه المرة ان يعمل عملا يعزز سمعته عند سكان الجزائر ، فطرد الاسبان من برج الفنار في ماي ١٥٢٩ م. (٩٣٥ هـ.) وكان لسقوط برج الفنار دوى كبير جعل امير تلمسان يبعث له بالولاء .

هزيمة شارلكان

بينما كان خير الدين في عزة انتصاره اذ بعث له السلطان سليمان يستقدمه الى القسطنطينية بعد أن عينه قائدا عاما للبحرية التركية ، وذلك في ١٥ اكتوبر ١٥٣٥ م. (٩٤٢ هـ.) فلبى خير الدين الطلب وترك خليفة له

حسن آغا الذى واجه الحملة الشهيرة التى قادها شارلكان ضد الجزائر فى عام ١٥٤١ م. (٩٤٨ هـ.) والتى منيت بفشل ذريع .

وقد كان لهزيمة شار لكان أمام مدينة الجزائر صدى كبير فى كامل بلاد حوض البحر الابيض المتوسط اكسبت ميناء الجزائر شهرة كبيرة بالمناعة اقترنت مع بدء ظهورها كمدينة هامة تستقر بها قوة بحرية وبرية عظيمة .

الجزائر فى عهد الباى لارباى :

يطلق المؤرخون الغربيون على النظام التركى الذى استقر بالجزائر اسم « نيابة الجزائر » . وينقسم العصر التركى بالجزائر الى اربعة اقسام : عهد الباى لارباى : عهد الباشوات : عهد الاغوات : عهد الدايات .

فعهد الباى لارباى ، يبدأ فى ١٥٤٦ . وينتهى مع قلج على الذى توفى عام ١٥٨٧ م .. اما السنوات التى تفصل بين عام ١٥١٦ وهى السنة التى بدأ فيها الاخوان عروج وخير الدين محاولتهما للاستلاء على الجزائر ، وبين عام ١٥٤٦ التى عين فيها أول باي لارباي ، فيمكن اعتبارها عهدا قائما بذاته يمكن ان يطلق عليه اسم عهد الفتح ويعتبر عهد الباى لارباى المع العصور التركية بالجزائر على ما فيه من هنات ، فاليه يرجع انشاء أول القصور الجميلة التى عرفتها مدينة الجزائر ، وكذلك الحمامات والمساجد ، كما ازدهر العمران، واستعملت الواح الرخام المستوردة من ايطاليا وصقلية فى تجميل القصور والمساجد والحمامات . وساعد على ازدهار الفنون المعمارية فى هذه الفترة ، هجرة مسلمى الاندلس الذين حملوا اليها فنون الحضارة الاسلامية بالاندلس ، وما كاد ينتهى عهد حكام الباى لارباى ، حتى أصبحت مدينة الجزائر تعد ، باعتراف المؤرخ المسيحى هايدر ، عشرة آلاف بستان اشتهرت بالخصب والجمال ، وكانت سهول الساحل والمتيجة مليئة بالمزارع التى كان اصحابها يستعملون على الاخص العبيد الذين يقال ان عددهم كان يبلغ خمسا وعشرين الفا .

ويؤكد المؤرخون لذلك العهد أن الجزائر كانت تعد حينذاك اثنى عشر الف ومائتين منزل من المنازل الجميلة الواقعة داخل سور تعلوه ثلاثة ابراج خارجية . وكان السكان المسلمون يترددون على مائة مسجد ، بينما كان اليهود يترددون على بيعتين ، كما كانت توجد كنيستان للمسيحيين .

وقد تم توزيع المياه الصالحة للشرب بواسطة ثمانية عيون عمومية كبيرة فى الاحياء الهامة من المدينة .

ويجمع المؤرخون على ان الرخاء كان يعم مدينة الجزائر فى ذلك العهد . فقد كان الصيد البحرى وحده كافيا لتزويد سكان الساحل بما يحتاجون اليه ، فكيف اذا أضيفت الى ذلك التجارة الخارجية التى كان معظمها بأيدى مهاجرى الاندلس من مسلمين ويهود ، والصناعات اليدويـــة الدقيقة التى نشطت على يد المهاجرين من الاندلس ، جلبت الى مدينة الجزائر عديـد القوافل من الداخل التى كانت تأتى لتتزود من المصنوعات الجديدة .

أما التجارة ، فيكفى لمعرفة ازدهارها التذكير بالمغانم التى كان يكسبها الرياس فى غزواتهم ضد الشواطىء الاوروبيـــة ، والتى كانت هى المحرك الاساسى للسوق بما تلقيه من كنوز ثمينة ، يضاف الى ذلك الاهمية التى اكتسبتها الجزائر تجاريا مما دفع البلاد الاوروبيـــة الى مضاعفة العلاقات الاقتصادية معها .

—— ——

الفئة الحاكمة ممن تتكون

أما الطبقة الحاكمة فتتركب من عنصرين أساسيين هما « طائفة الرياس» و« فرقة اليولداش » . فطائفة الرياس تتركب من الجنود البحرية الذين ألفوا الغزو على مراكب تابعة للحكومات الاسلامية ، أو على متن مراكب خاصة ، والى هذه الطائفة ينتمى عروج وخير الدين . وتتركب هذه الطائفة من اخلاط مختلفة : ففيها التركى وفيها الاروبى الذى أسلم وفيها الجزائرى الخ .. واللحمة التى تجمع بينها هى لحمة الجهاد ورد الاعتداآت المسيحية .

أما فرقة اليولداش فهى تتركب من الجنود الاتراك الذين استقدموا من تركيا ، وهى عبارة عن لفيف أجنبى حقيقى ، تحكمها قوانين خاصة . ويبيح لها النظام ارتكاب الفظائع ضد السكان . ولم يكن يوجد هناك أى انسجام بين هذين العنصرين ، مما ولد تمردات واضطرابات سنتعرض لها بايجاز .

توحيد الجزائر :

يمكن القول بأن الجزائر الحالية ، توحدت سياسيا بصفة نهائية تقريبا فى عهد حكام الباى لارباى . وقد تمت هذه الوحدة تحت ضغط الاخطار التى كانت تواجهها الجزائر : فلم يكن فى استطاعة القوة التجارية ، التى كانت هى القوة المنظمة الوحيدة بالجزائر ، أن تصمد فى وجه عدوان عسكرى ، والملاحظ أن الخطر الاسبانى كان واضحا تجسم فى احتلال مرسى الكبير عام ١٥٠٥ ، ثم وهران فى سنة ١٥٠٩ ، ثم بجاية فى سنة ١٥١٠ وفى احتلال برج الفنار .

وقد كان المنطق يفرض على الامارات والدويلات الجزائرية التى كانت قائمة لذلك العهد ، أن تطلب النجدة من ملوك بنى زيان فى تلمسان . لكن يجب أن نتذكر ان ملوك بنى زيان لم يترددوا — من اجل تثبيت انفسهم ازاء سلاطين فاس — فى اللجوء الى حماية الاسبان . ولئن كانت الدويلات الجزائرية الناشئة بعيدة عن السواحل تريد قبل كل شىء التمسك باستقلالها ويحاول أصحابها انشاء ممالك جديدة لصالحهم ، كما هو شأن

زناتة بنى راشد ، وبنى عباس ، واماره كوكو ، فان طبقة التجار التى كانت مستقرة بالساحل فى الجزائر ، أو فى تنس مثلا كان يهمها قبل كل شىء أن تجد قوة تحميها من خطر الاسبان . وقد وجدت هذه القوة فى أسطول عروج وخير الدين .

عصر الباشوات : (من عام ١٥٨٧ الى ١٦٥٩)

كانت مناطق الشمال الافريقى التابعة للنفوذ العثمانى تتركب من ثلاثة اقسام على رأس كل منها باشا : وهى طرابلس ، وتونس والجزائر وكانت هذه الاقسام الثلاثة مسيرة من طرف شخص واحد يعينه الباى العالى ويحمل اسم الباى لارباى الذى غالبا ما يكون مقره فى الجزائر .

لكن بعد موت قلج على ، رأت القسطنطينية ان تسير كل واحدة من النيابات الثلاث بواسطة باشا يعين رأسا من العاصمة العثمانية لمدة ثلاث سنوات .

وكان أول باشا عين طبقا لهذا التنظيم الجديد هو دالى أحمد الذى عنى كثيرا بالغزوات البحرية .

وفى هذا العصر ، وأثناء بشوية حسن فنزيانو ، نظمت الدول المسيحية حملة واسعة فى سبتمبر ١٦٠١ م، منيت بفشل ذريع .

ويعتبر غير واحد من المؤرخين أن هذا العصر كان هو العصر الذهبى للبحرية الجزائرية . لكن التناقضات التى كانت ملحوظة فى تنظيم الدولة عاقت دون أن تتطور تلك القوة الى مداها . وأبرز تلك التناقضات ، هى محاولة القسطنطينية ان تخضع المصالح الجزائرية لمصالح الامبراطورية العثمانية . فى حين أن طائفة الرياس التى كانت ممثلة داخلة الديوان الذى يملك السلطة الحقيقية ، كانت تريد استمالة سكان العاصمة وتدافع تبعا لذلك عن المصالح الجزائرية . لكن يجب التنصيص على أن التقارب الموجود بين طائفة الرياس وبين سكان العاصمة يختلف محركه هنا وهناك : فلئن كان الجزائريون مدفوعين الى معارضة الامتيازات بنخوتهم وغيرتهم الوطنية، فان طائفة الرياس كانت مثلا تحبذ استمرار الحرب مع دول اوربا نظرا للمكاسب والمغانم التى تحصل عليها من جراء ذلك .

وهذه التناقضات هى التى تفسر الثورات المتعددة التى كانت تنجم من حين لآخر فى وجه ممثلى الجنود الاتراك ، مثل ثورة تلمسان التى نشبت فى عهد خصرف باشا سنة . . .

والتى أخمدها العسكر التركى بارتكاب عـدة فظائع منها سلخ جنـود الثوار وهم أحياء وحشوها بالتبن ثم ارسالها الى مدينة الجزائـر لتكون عبرة .

وقد كان توقيع المعاهدة مع فرنسا ، فى هذا العهد ، مناسبة اغتنمهـا الجزائريون للثورة فى وجه الجنود الاتراك باعتبار أن الامتيازات التى أعطيت للمركز التجارى الفرنسى والسماح للفرنسيين بامتلاك قوة عسكرية داخل المركز ، تعد نيلا من السيادة الجزائرية .

حكم الاغوات : (من عام ١٦٥٩ الى عام ١٦٧١) .

ابتدا عصر الاغوات بالانقلاب الذى نظمه الجنود البولداش ضد طائفـة الرياس التى لم تستطع الثبات فى وجههم بعد سلسلة من الهزائم منوا بها .

ويعتبر نظام الاغوات محاولة لايجاد نوع من الديموقراطية المطلقة داخل الطبقة العسكرية الحاكمة ، اذ أن مدة الآغا كانت لا تتجـاوز الشهرين ، ويخلفه فى مهامه اكثر العسكريين اقدمية .

وهذا النظام غير العملى يتميز بظاهرتين :

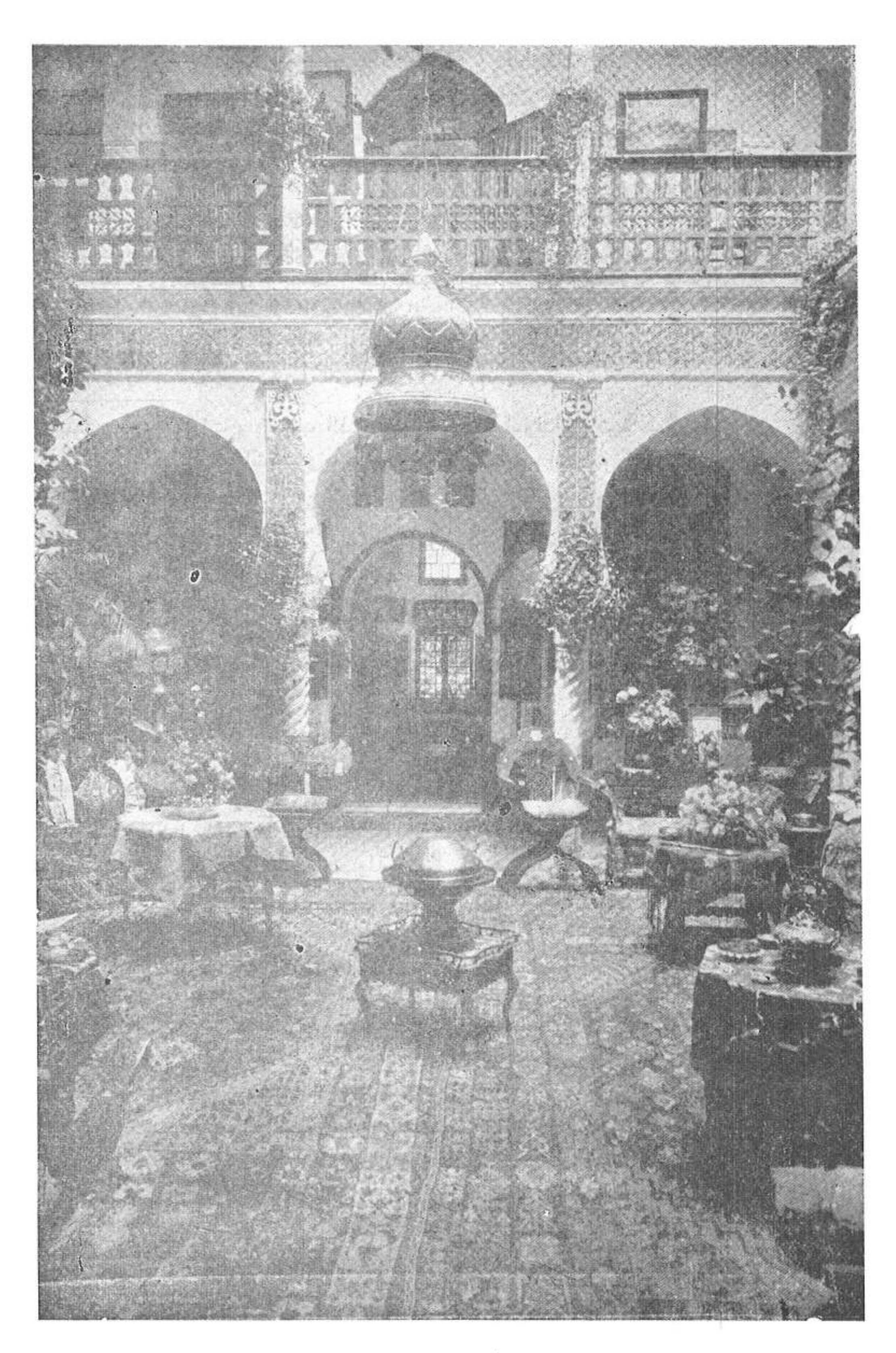
الأولى انه كان محاولة بارزة للانفصال عن السلطة العثمانية والاستقلال بالجزائر .

والثانية أن الانقلاب كان انتقاما من طائفة الرياس التى كانت كلمتها هى العليا فى عهد معظم الباشوات .

والظاهرة الاولى ذات دلالة بالغة ، اذا عرفنا ان طائفة البولداش هى التى كانت تتهم طائفة الرياس بمحاولة الانفصال عن السلطة العثمانية . ومعنى ذلك ان فرقة البولداش تأكدت بعد طائفة الرياس من استحالة اقامة نظام بالجزائر ، تأخذ القسطنطينية بخيوطه مباشرة .

نظام الدايات : (من ١٦٧١ الى ١٨٣٠) .

لم يدم نظام الاغوات الذى كان يحمل منذ تاسيسه بذور زواله الا اثنى عشر عاما (من سنة ١٦٥٩ الى سنة ١٦٧١) . كانت كلها فوضى مستمرة ، مكنت طائفة الرياس من تنظيم انقلاب جديد يكون النظام المنبثق عنه لفائدتها. فقد قررت طائفة الرياس الغاء نظام الاغوات ، وتعويضه بنظام آخر اكثر استقرارا هو نظام الدايات . وقد حاولت طائفة الرياس أن تتجنب الخطأ الذى وقع فيه البولداش عندما قيدوا مدة الآغوية بشهرين ، لكنها وقعت فى خطا لم يقل عنه خطرا اذ قررت انتخاب الداى مدة العمر .



دار آغـا الصبايحيه

وقد ترتبت نتائج عديدة عن انتصار طائفة الرياس ، أبرزها هو سكوت نظام الدايات — فى بدء تكوينه — عن الغزوات والحروب التى كان يفتعلها بعض الرياس مع الدول الاوروبية . وقد أدى هذا الامر الى تعويد السواحل الجزائرية برفاهية اقتصادية قائمة على القرصنة ، بحيث صرفها عن البحث عن موارد داخلية قارة ، وجعلها تغفل عن ملاحظة التحول الذى كان بصدد الوقوع فى الغرب الاوروبى ، والذى ادى الى ميلاد قوات جديدة فى أروبا ، تختلف فى طبيعتها السياسية والاقتصادية والعسكرية عن القوى التى كانت واجهتها الجزائر من قبل .

ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن طائفة الرياس تحولت من عقلية الجهاد الى عقلية القرصنة ، وهو تحول استتبع تغييرا اخلاقيا هاما فى العادات السياسية ، يكفى للتأكد منه ، ان نلاحظ أن الباشوات الذين تعاقبوا من عام ١٥١٥ الى سنة ١٦٥٩ ، وعددهم أكثر من ثلاثين ، لم يمت واحد منهم قتيلا باستثناء واحد سقط تحت ضربات انتقام شخصى ، فى حين أن كل الاغوات وحوالى نصف الدايات ماتوا قتلا . وقد استمر نظام الدايات من عام ١٦٧١ الى ١٨٣٠ أى الى احتلال الجزائر .

وقد تطور حكم الدايات الى ان أصبح حكما مطلقا وصار اجتماع الديوان امرا شكليا ، فالداى هو الذى يختار وزراءه الذين يتركب منهم مجلس الدولة .

استرجاع وهران ومرسى الكبير :

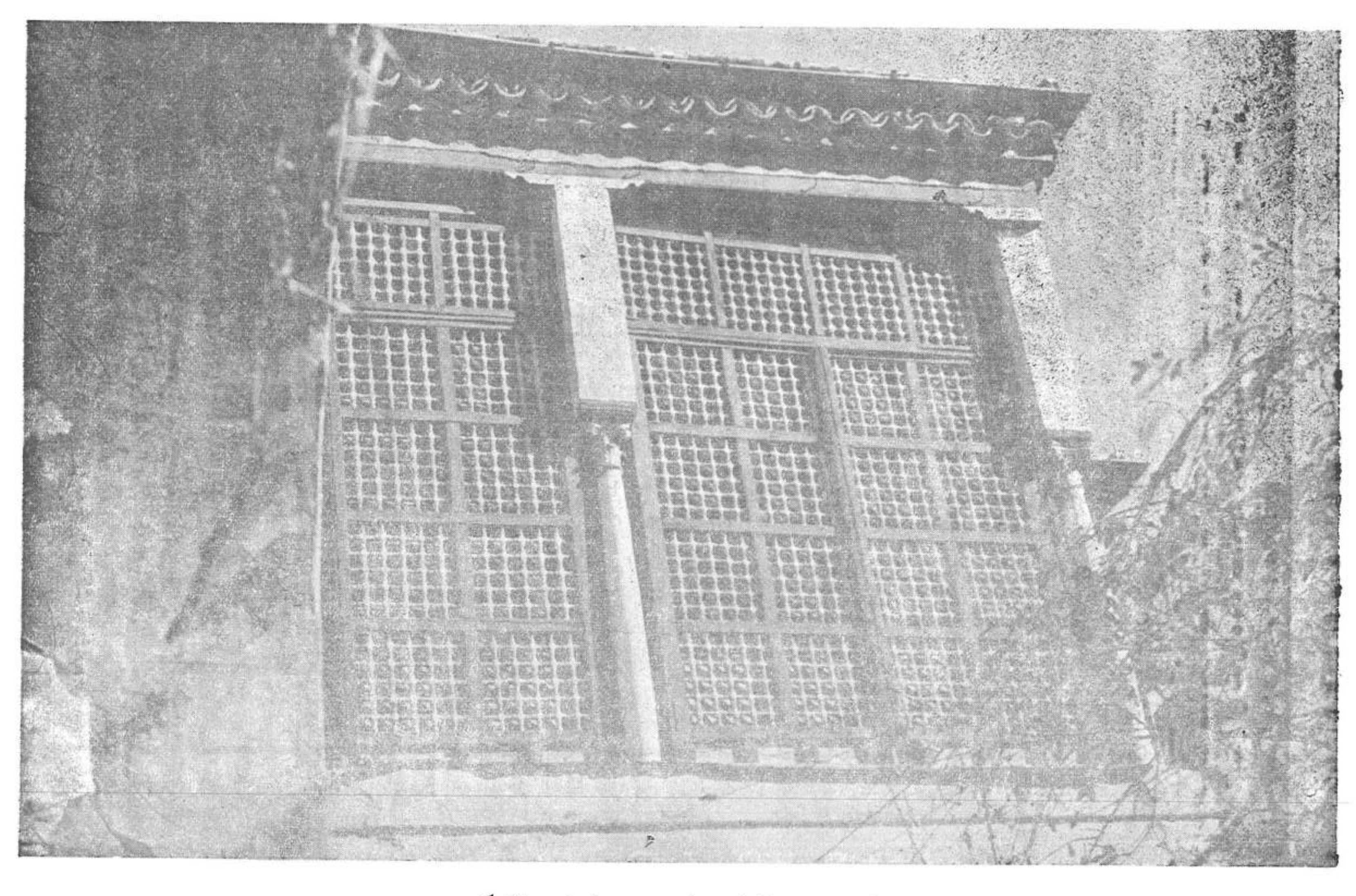
وفى عصر الدايات استرجع الجزائريون وهران ومرسى الكبير ، وهو حدث هام فى تاريخ الجزائر يتطلب أن نقف عنده ، والواقع أن العمليات ضد القاعدة الاسبانية فى وهران ومرسى الكبير ظلت متواصلة ، وعلى الاخص منذ أواخر ١٦٩٨ م. الا ان الظروف التى كانت قائمة فى الجزائر حالت دون التوجه الكلى لتطهير البلاد من المحتل الاجنبى ، وادت الى تشتيت الطاقات الوطنية ، وهذا ما يفسر استمرار هذه القاعدة كل تلك المدة الطويلة ، مع ان كل العوامل السياسية والدينية والجغرافية تجتمع فى صف واحد مؤكدة سهولة القضاء على هذه القاعدة ، بشرط أن يوجد تصميم وعزم من الدولة على ذلك ، لان وضعية القاعدة الأسبانية كانت وضعية خانقة ، وقد حاول الاسبان تحصين وضعيتها بالاستيلاء على مستغانم ، لكنهم فشلوا فى ذلك فشلا ذريعا عام ١٥٥٨ م. وليس من المبالغة فى شىء التأكيد على أن القاعدة الاسبانية كان محكوما عليها بالسقوط منذ يوم انهزام الاسبان امام مستغانم . وعلى هذا الاساس يمكن القول بأن

عدم وجود تصميم من السلطة المركزية على تطهير وهران ومرسى الكبير من الاحتلال الاجنبى هو وحده الذى سمح للقاعدة بالبقاء كل تلك المدة .

ويبدو ان باى الغرب بوشلاغم هو الذى لعب دورا كبيرا فى طرد الاسبان من الارض الجزائرية ، وعلى الاخص منذ أن نقل مركز ولايته الى معسكر تمهيدا لاقامة حصار دائم على القاعدة الاسبانية ، واشعارا لسكان المناطق المحيطة بوهران ، بوجود السلطة المركزية وهو امر له اهميته وتأثيره فى دفع السكان الى الاستعداد الكلى للجهاد ضد الاسبان .

وقد وجه داى الجزائر مددا عسكريا الى الباى بوشلاغم فى شهر أوت ١٧٠٧ ، ثم حفرت القوات الجزائرية خندقا امام حصن سان فيليب الذى استولى عليه الجزائريون صباح يوم ٩ اوت ، لكن الاسبان قاموا بهجوم مضاد ، واستمرت المعركة شديدة حول الحصن الى منتصف شهر سبتمبر حيث تمكن المسلمون من تقويض كل الابراج الدفاعية فى هذا الحصن . وقد تم جلاء الاسبان عن مدينة وهران ، بعد سقوط حصون أخرى ، فى أوائل عام ١٧٠٨ ، والتجأوا الى مرسى الكبير ، الذى حاصرته القوات الجزائرية حصارا محكما الى أن استسلم فى الثالث من شهر افريل ١٧٠٨ .

لكن الاسبان تمكنوا من العودة لاحتلال وهران ومرسى الكبير فى عام ١٧٣٢ ، وقد حاولت أسبانيا اضفاء طابع الشرعية على هذا الاحتلال بواسطة حمل نيابة الجزائر على التفاهم معها على اساس استمرار القاعدة، الا أن الجزائر رفضت ، وعادت أسبانيا الى هذه المحاولة من جديد بعد احرازها على انتصار كبير ضد الاسطول الانكليزى فى ١٧٨٣ م. وتدخلت القسطنطينية لدى الجزائر لحملها على هذا التفاهم ، لكن داى الجزائر فى ذلك العهد ، وهو محمد عثمان باشا رفض ، وأرادت أسبانيا أن تمسح عار هذا الرفض فجهزت حملة ضخمة استغرق اعدادها مدة طويلة ، لتهجم بها على عاصمة الجزائر ، لكن الحملة منيت بالفشل . وبعد فشل هذه الحملة ، عرضت أسبانيا الصلح على الجزائر ، فقبل الداى بشرط ان يتم جلاء الاسبان عن وهران ومرسى الكبير ، وأبرم الصلح فى عام ١٧٨٥ ، وشرعت أسبانيا فى الجلاء يوم ١٧ ديسمبر ١٧٩١ ، وتم الجلاء النهائى فى شهر مارس ١٧٩٢ . (رمضان ١٢٠٦ هـ) . وهكذا تم جلاء الاسبان عن مرسى الكبير ووهران بعد أن مكثوا بها ما يقرب من ثلاثة قرون .



منظر خارجى لمنزل جزائرى بني في العهد التركي

الثورة الشعبية ضد الأتراك

سجلت نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ظاهرة جديدة فى الجزائر هى سيطرة عائلتين يهوديتين ، هما عائلتا بوخريص وبوشناق ، على الاقتصاد الجزائرى واحتكارهما لاسواق القمح والحبوب . وقد اثارت هذه السيطرة سخط الرأى العام ضد اليهوديين وضد الداى مصطفى باشا الذى ربط مصيره بهما .

وفى أواخر جوان ١٨٠٥ (ربيع الاول ١٢٢٠) هجم جندى تركى على بوشناق عندما كان خارجا من قصر الجنينة ، وقتله ، وبلغ النبأ الى الداى فخشى على نفسه وبعث بالامان الى الجندى قاتل بوشناق حتى لا تتحول الثورة على اليهودى الى ثورة عليه . لكن هذا العفو لم يحل دون انفجار سخط عام عنيف أدى الى مقتل الداى وتعيين أحمد خوجة الخيل مكانه .

وظهرت فى الوقت نفسه بوادر ثورة عامة فى البلاد ضد سلطة الاتراك ، أبرزها حركة ابن الاحرش الذى نجح فى اثارة شمال قسنطينة واستولى على القالة وجيجل وبنى حصنا فى واد زهور ، وما لبث ابن الاحرش أن ضم قواته الى قوات ثائر آخر ظهر فى رجاس هو عبد الله الزبوشى .

وفى نفس الوقت الذى عمت فيه الثورة شرق الجزائر ، ثار غرب الجزائر من مليانة الى تلمسان بزعامة أحد الدرقاويين ، ولم يبق للوجاق علم قائم الا فى مستغانم ووهران ومرسى الكبير .

لكن هذه الثورة العامة لم تنجح لانه كان ينقصها التنظيم العسكرى والقيادة السياسية المتبصرة التى لا تكتفى بالاعتماد على اثارة العواطف .

ومهما يكن من شىء فان هذه الحركات المختلفة التى انتشرت كلها فى وقت واحد ضد سلطة الاتراك ، وعمت اهم مناطق الجزائر ، تستحق العناية ، نعم لقد حاول بعض المؤرخين الفرنسيين أن يشوهوا هذه الثورة بنسبة بعض حركاتها الى أيد أجنبية : فيقولون مثلا ان الانكليز هم الذين حركوا ابن الاحرش ، وسواء أكان اتصال ابن الاحرش بالانكليز صحيحا أم مفتعلا ، فان الذى لاشك فيه ، هو أن حركة ابن الاحرش كانت لها قواعد شعبية ، كما يدل على ذلك انتشارها بتلك السرعة المدهشة التى لا يمكن أن تكون مجرد صدفة . والذى لاشك فيه أيضا ان من بين العوامل

التى حركت ابن الاحرش ضد سلطة الداى ، هو ما رآه من تواطىء الداى مع الفرنسيين وابرامه لعديد الصفقات معهم ، ولئن كان ابن الاحرش يلتقى مع سياسة الانكليز فى افساد خطة الفرنسيين فى التسرب الى الجزائر ، فان ذلك لا يمنع أن تكون حركة ابن الاحرش ذات منطلق تقدمى.

يضاف الى ذلك كله ان الايدى الاجنبية ، على فرض التسليم بأنها لعبت دورا ما فى القضية ، ان كانت تفسر نقطة الانطلاق لحركة واحدة ، فانها لا تفسر نقطة الانطلاق لها جميعا ، خصوصا وان انتشار تلك الحركات يكشف بمالا مجال فيه للشك عن وجود استعداد مسبق للقيام بهذه الثورات لدى الاوساط الشعبية .

وهناك ظاهرة اخرى تستحق التسجيل فى هذه الحركات ، وهى انتسابها للزوايا الصوفية : فابن الاحرش هو مقدم مولاى العربى الدرقاوى الذى ينتمى الى الطريقة الشاذلية ، وعبد الله الزبوشى هو مقدم الطريقة الرحمانية ، فتبنى الزوايا لهذه الحركات يدل على أن لها قاعدة دينية ، والقاعدة الدينية الوحيدة التى من شأنها أن تجند الجماهير الشعبية فى الجزائر ضد الاتراك الذين هم مسلمون مثل الجزائريين ، هى قاعدة المساواة الاسلامية التى تتنافى مع التمييز الذى فرضه الاتراك ، بل ان الاتراك لم يكتفوا بذلك ، فى نظر مسؤولى الزوايا ، فتواطأوا مع التجار اليهود وممثلى المصالح الاروبية الاجنبية ، فكل ذلك جعل الثورة فى نظر الزوايا ، شرعية ضد سلطة الاتراك .

ومعنى ذلك بعبارة اخرى أن تلك الحركات كانت فى مجموعها تقدمية وطنية لانها كانت تهدف من جهة الى اقرار مساواة تجسم فى الواقع وجود امة لا فضل فيها لطبقة على اخرى ، ولانها كانت من جهة اخرى تحارب محاولات السيطرة الاجنبية على الاقتصاد الجزائرى .

مغزى الانتقال إلى القصبة

انتخب علي خوجة دايا : في عام ١٨١٧ .

وكانت أولى اعماله هي التخلص من سيطرة اليولداش هؤلاء الجنود الاتراك الذين لا يعرفون نظاما ولا يتقيدون بأي شيء . فغادر الجنينة وتحول الى القصبة ، واختار حاميته الخاصة من بين سكان الجرجرة الذين اختار من بينهم الفي رجل لحراسته وحراسة خزينة الدولة ، ونقل في نفس الوقت كنوز الخزينة الى القصبة ، التي اشتهرت بعد ذلك بكنوز القصبة. وهناك رواية تاريخية تقول ان هذه الكنوز قد نقلت ليلا ، بحيث لم يسمع الجنود الاتراك بتحول الكنوز والداي الى القصبة الا من الغد بعد أن تم الانتقال فعلا . ويبدو من بعض الوثائق التي سلمت الى لجنة تحقيق فرنسية بعد الاحتلال ، كلفت باجراء تحقيق حول كنوز القصبة ، أن هذه الكنوز بلغت حمولة الف وستمائة وخمسين حمولة بغل .

والواقع أن الانتقال الى القصبة كان عبارة عن تحول سياسي هام : فهو يسجل نقطة تحول في تاريخ الحكم التركي بالجزائر ، ويبرز بوضوح ذلك التطور البطيء الذي ظهر في فترات متفرقة ، والذي يتمثل في رغبة بعض الحكام الاتراك في الاندماج في الشعب الجزائري ، والاعتماد على القوة الشعبية والتخلص من سيطرة فرقة اليولداش .

لكن هذا التحول جاء متأخرا عن أوانه ، لذلك لم تظهر نتائجه الاجتماعية والاقتصادية كاملة ، ولم يتردد علي خوجة بعد ان تحول الى القصبة في القضاء على رؤوس الفتنة من الجند التركي . واظهر بوضوح تصميمه على حل الفرقة التركية والقضاء على امتيازاتها ، فسلح الكراغلة الذين كانوا قبل ذلك مبعدين عن شؤون الحكم والوظائف السامية ، واعاد عددا من الجنود الاتراك الى المشرق ، وأبعد البغايا اللائي كن يسكن الى جنب الثكنات التركية ، وأوقف العمل بتجنيد الجنود من المشرق .

لم ترق هذه التصرفات للجنود الاتراك الذين فوجئوا بتدابير تقضي على كيانهم العسكري وامتيازاتهم من اساسها ، فحاول بعضهم التمرد ، لكن حراسة الداي التي كانت تتكون من الجزائريين فقط قضت على محاولتهم في المهد . فقتل بعضهم وفر آخرون الى المحلة الشرقية التي تمردت وسارت

فى اتجاه العاصمة للقضاء على علي خوجة . فوجه على خوجة مبعوثين الى بلاد القبائل يطلبون من سكانها سد الطريق على المتمردين فى ناحية البيبان حتى لا يتمكنوا من الحاق بالجزائر . لكن المبعوثين وصلوا بعد ان اجتاز المتمردون البيبان ، لانهم كانوا يحثون السير ، ووصلوا الى العاصمة فى نهاية شهر نوفمبر ، وطالبوا براس الداى .

لكن علي خوجة كان قد اخذ احتياطاته ، فشكل جيشا من الكراغلة حظى بتأييد السكان .

وحاول المتمردون التفاوض ، لكن يحيى آغا الذى وجه اليهم — وهو جزائرى من زواوة — طلب منهم الاستسلام دون قيد ولا شرط .

ونشبت المعركة ، وراحت حراسة الداى المتكونة من الجزائريين، تهاجم المتمردين باعانة الكراغلة المسلحين ، ومن ورائهم كل السكان يؤيدونهم . وهزم اليولداش فى هذه المعركة التى امتد ميدانها من حصن الامبراطور الى باب عزون ، هزيمة منكرة ، وقتل منهم الف ومائتا جندى ، ومائة وخمسون ضابطا ، وفى اليوم الثانى من شهر ديسمبر طلب الباقون على قيد الحياة الامان من الداي ، فمنحه لهم . وبعد ذلك طلب عدد كبير منهم العودة الى ازمير والقسطنطينية فرخص لهم في ذلك .

وقد احتفل الداى بانتصاره على اليولداش احتفالا فخما فأقام أفراحا دامت ثلاثة أيام ، وتقبل تهانى السلك القنصلى . لكنه لم يستمر فى الحكم طويلا ، فقد مات بالطاعون ، فى أوائل مارس ١٨١٨ ، وعندما شعر بدنو أجله ، عين لخلافته حسين خوجة الخيل ، ورفض حسين هذه المسؤولية لكن محيطه الح عليه حتى قبل ، ولم يمكث بضعة أيام فى الحكم حتى حاول بعض الجنود الاتراك اغتياله ، فتحصن بالقصبة ، واعتمد مثل سلفه على الحراسة الجزائرية بعض الوقت ، ثم نشب خلاف بين الداى ويحيى آغا انتهى بعزل الآغا ، وعندما ثارت القبائل تخوف الداى من الحراسة الجزائرية فأعفى أفرادها .

ومن المؤسف أن المحاولة التى شرع فيها على خوجة لم تتم ، لانها كانت ستؤدى الى تكوين دولة جزائرية قوية ، وكانت ستقضى على امتيازات الطبقة التركية .

أوربـــا تهدد الجـــزائر

بدا التدخل الاروبى فى شؤون الجزائر يأخذ شكلا صريحا فى أوائل القرن التاسع عشر ، وعلى الاخص منذ مؤتمر فيينا الذى تم بتحريض من الانكليز والذى قرر ضرب القوة البحرية الجزائرية بعنوان اشهار الحرب ضد القرصنة .

وتعهدت بريطانيا بتنفيذ مقرارات فيينا ، وطلبت تعويضا مسبقـــا عـــن مجهوداتها يتمثل فى وضع الجزر الأيوبينة تحت حمايتها .

اثر ذلك وجهت انكلترا اللـــورد ايكسموث على رأس قوة بحريـــة الى الجزائر للمطالبة باطلاق سراح الاسرى الذين هم من الجـــزر الأيونية ، بوصفهم رعايا .

عندما وصلت القوة الانكليزية امام العاصمة ، رفعت الراية البيضـــاء التى يحملها الراغبون فى التفاوض ، فتركتها البحرية الجزائرية تتقدم دون ان تطلق عليها النار ، الا ان القوة الانكليزية عندمـــا تقدمت من المواقـــع الدفاعية ووحدات الاسطول الجزائرى ، أنشبت معركة عنيفة من غـــير سابق انذار ، أسفرت عن خسائر فادحة فى صفوف البحرية الجزائرية .

وقد تشجع الانكليز الذين انضم اليهم الهولنديون ، فطمعوا فى احتلال العاصمة ، لكن العاصمة دافعت عن نفسهـــا دفاعا مستميتـــا ، حتى أن القوات الانكليزية بلغت خسائرها ٨٨٣ جنديا . وكان ذلك فى أوت ١٨١٦ م.

وبعد ذلك بنحو عامين ، عقدت الدول الاروبية مرة أخـــرى مؤتمرا فى « ايكس لا شابيل » قررت فيه التدخل فى شؤون الجزائر وتونس والمغرب بعنوان محاربة القرصنة ، كما قررت ابلاغ الدول الثلاث أن كل نيل ومساس بتجارة احدى الدول الاروبية يتسبب فى رد فعل سريـــع من طـــرف الدول الاروبية المتحالفة . وكلف المؤتمر بريطانيا وفرنسا بأن تبلغـــا الى الدول الثلاث مقررات ايكس لا شابيل .

لكن الداى حسين عندما ابلغ هذه المقررات اجاب شفاها بأن الجزائـــر لا تستطيع ان تتخلى عن حقها فى التعرف على البواخر الاجنبيـــة ، لان هى تلك الوسيلة الوحيـــدة التى يستطيع بهـــا ان يتعرف على البواخر العـــدوة من الصديقة .

وقد لبثت انكلترا تتحين الفرصة لانشاب حرب جديدة ضد الجزائر ، الى ان تذرعت بحادث رأت فيه مسا بشخصية قنصلها ، فوجهت قوة بحرية الى العاصمة فى ١٢ جويلية ١٨٢٤ ، وأمرتها بضرب العاصمة .

لكن الجزائريين كانوا قد اتعضوا من معركة ١٨١٦ ، فأنشبوا مع الانكليز المعركة فى عرض البحر ، واستمر تبادل اطلاق النار الى يوم ١٣ جويلية ، عندما اضطر الانكليز الى الانصراف بعد أن نفذت ذخيرتهم .



دار الداي حسين في حسين داي

التنظيم الاداري

وضع الاتراك فى الجزائر ديوانين : الديوان الخاص ، وهو مجلس الدولة ، والديوان العام وهو المجلس العمومي . اما اعضاء الديوان فهم : الداي — الخزنجى آغا الهلالين أو آغا سركجى — وكيل حرج البحرية وتحت امرته أمير البحر والرياس وقائد المرسى ، واثنا عشر بلوك باشي يحملون مفاتح المخازن التى تجمع لوازم البحرية — الكاهية وهو المكلف بأمن مدينة الجزائر وحراستها — البياشين ، وهم الذين يرتقون الى رتبة الكواهى . البلوك باشين وهم الضباط السامون — آغا الصبايحية . الأوداباشين وهم ضباط كبار .

ولا يتقاضى الداى مرتبا الا ما يتقاضاه على رتبته العسكرية ، لكنه يتقاضى هدايا ضخمة سواء من البايات او من القناصل الاجانب ، ويطلق عليها اسم « العوايد » . وقد كانت تقاليد الديوان — التى تقوم مقام القانون — هى منع الداى من الزواج ، الا ان الديوان يتساهل احيانا ويبيح للداى أن يتزوج ، لكن الداى يتعين عليه فى هذه الحالة أن يسكن زوجته او نساءه خارج دار الامارة . واساس هذه الفكرة هى ان الداى يعتبر ابا لجميع الجنود فى البلاد ، فلا يحق له ان يكون ابا لأولاد آخرين ، وقد تزوج الداى على باشا ، واسكن زوجه فى منزل ملاصق لدار الحكومة (وهو المواجه لجامع كيتشاوة) وفتح بين الدارين بابا ليجتاز من احداهن للاخرى بسهولة ، فتصادم من اجل ذلك مع الديوان ، والزمه الديوان اغلاق الباب فنزل عند أمر الديوان وسد ذلك الباب .

أما خزينة الدولة الجزائرية ، التى اسالت لعاب اوروبا ، فهى عبارة عن دهاليز مقوسة تحت الارض ، وبابها يفتح فى صحن الدار التى يجتمع بها الديوان ، وعلى باب الدهاليز مقاعد خشبية يجلس عليها باستمرار

ستة عشر نوبتجيا . والخزناجي هـو وحده الذي يرخص لـه في الدخول للخزنة . ومفتاح الخزنة يوضع عند الداي ، الذي يسلمه في مطلع كـل صباح للخزناجي ، ويتولى الخزناجي تعيين موظفين من اهل الجزائر يطلق عليهما لقب « الصايجي » لعد النقود الداخلة للخزنة او الخارجة منها . وفي هذه الخزنة توضع السيوف الذهبية والخناجر والبنادق المرصعـة والحلى والجواهر واليواقيت التي ترجع للدولة عندما يموت أحد كبـراء الديوان .

ومعروف ان المداخيل القارة للدولة الجزائرية تتمثل فيما يدفعـه البايات كل عام ، وما تدره التجارة مع الخارج وجزية اليهود بالاضافة الى المغانم التي يكسبها الرياس في غزواتهم ، والى « المعاليـم » التي تدفعهـا دول اوروبا وامريكا لاتقاء هجومات القراصنة .

طبيعـة النظـام الاداري التـركي

الملخص السابق أن الجزائر احتفظت الى حد ما في عهد الاتراك بالتقسيم الاجتماعي الذي حدث في الجزائر خلال الحقب التاريخية التي سبقت العهد التركي ، لان الاتراك اكتفوا بأن وضعوا فوق ذلك التقسيم الاجتمـاعي ، تقسيما اداريا مرنا ، يتميز بمحاولتـه التكيف حسبمـا تفرضه الاحـوال المختلفة : فالنظام التركي يفضل أسلوب الادارة المباشرة عندما يكون ذلك ممكنا ، وهو ما حققه في المنطقة التابعة لدار السلطان ، وبعض مناطـق بايلك تيطري التي كانت أولى المناطق التي استقر بها الاتراك ، ويكتفي بوضع مسؤول تركي في اعلى السلم تاركا لابناء البلد حرية تصريف شؤونهم الداخلية ان اصطدم بمعارضة قوية بل ويصل الى حد التفاهم مـع بعض امراء ومشائخ القبائل التي تتشدد في التمسك باستقلالها .

ويمكن القول بأن هذه المرونة هي التي مكنت من توحيد الجزائـر دون توحيدها : أي أن مرونة الادارة التركية حققت توحيد الجزائر ترابيـا في نطاق حدود تكاد تكون هي الحدود التي وجدها عليهـا الفرنسيون ابـان الاحتلال .

لكن هذه المرونة نفسها — التي اضطر اليها الاتراك اضطرارا — هي التي حالت دون تحقيق الوحدة المعنوية للجزائر في العهد التركي ، اذ ظلت الجزائر في ذلك العهد محتفظة بأصناف اجتماعية مختلفة ، تذرع بها كثير من المؤرخين الاروبيين واعتمدوها في فكرتهم القائلة بأنه لم يكن هنـاك وجود للامة الجزائرية في العهد التركي ، وانها كانت فقط بصدد التكوين ، وانه لم يكتمل نموها عندما احتل الفرنسيون الجزائر .

والغريب أن اولئك المؤرخين يستعملون فى مجال الحكم على تكوين الذاتية الجزائرية ، مقاييس نظرية صارمة يهملونها عند الحكم على تكوين الذاتية عند الشعوب والبلدان الاروبية الاخرى .

ان ايجاد ادارة مركزية واحدة ، وتركيز السلطات فى يد الديوان الذى يتولى تعيين او انتخاب الداى ، وتعامل دول أروبا وامريكا مع هذا الداى ، والمعاهدات المبرمة بينها وبين الجزائر ، يدل على أن الجزائر قد تطورت فى العهد التركى الى أن اصبحت لها دولة بالمعنى الحديث للكلمة .

نعم لا ينكر أحد ان الاتراك لم يبذلوا اى مجهود حضارى يكون هدفه هو تذويب تلك الاصناف الاجتماعية التى وجدوها قائمة ، والتى تختلف من نظام العرش ، الى نظام الجماعة ، الى الاقطاع الى المدن الكبيرة. لكن ذلك لا يعنى ان الجزائر لم تكن لها أجهزة ادارية : فالنظام الادارى الذى وضعه الاتراك كان عبارة عن محاولة لمركزة الادارة وتحقيق وحدتها الادارية ، ولا أدل على ذلك من ان الفرنسيين انفسهم اكتفوا فى مراحل معينة من الاحتلال بالاخذ بالتقسيم الادارى التركى .

لكن الذى حال دون أن يتم التطور الذى بدأ فى عهد الاتراك ودون أن يتواصل الى مداه الكامل ، هو أن السياسة التركية كانت قائمة من اول استقرارها فى الجزائر ، على التخوف من السكان الجزائريين وحرمانهم من مناصب الادارة والحكم ، وقد بلغ هذا التخوف درجة هستيرية ، اذ أن الاتراك لم يكونوا يثقون حتى فى الكراغلة الذين يعتبرونهم جزائريين أكثر مماهم اتراك ، وعلى هذا الاساس راحوا يجندون باستمرار الجنود من الخارج ، من أزمير ومن قرمان ، مما جعل الطبقة العسكرية الحاكمة تتجدد مع كل جيل .

هذا هو السبب الذى حال دون ان يندمج الاتراك فى المجتمع الجزائرى، رغم أن العامل الدينى ــ الذى كان هو أهم محرك سياسى فى ذلك العصر وبعده ــ كان يلعب لفائدة الاندماج والذوبان فى المجتمع الجزائرى . وفى هذا المجال لا يستطيع أى ناقد ان يغفل الدور السلبى الذى لعبته القسطنطينية ، كما لا يستطيع ان يغفل عن تسجيل مسؤوليتها الضخمة فى هذا الوضع الذى كان من بين العوامل الاساسية التى مهدت للاستعمار الفرنسى المباشر .

وهذا السبب نفسه ، استقدام الجنود الاساسيين للسلطة المركزية من الخارج ، هو الذى أجبر الاتراك على اتخاذ تلك المرونة التى حالت دون أن تتحقق الوحدة المعنوية للجزائر ، ودون أن تتطور الجزائر اجتماعيا تطورا منسجما مع تطور كيانها كدولة لها وجود دولى ، لان استقدام

الجنود من الخارج ، يجعل عددهم محدودا الى درجة تجعلهم عاجزين عن أن يفرضوا سلطانهم بالقوة على كامل الجزائر ، ومـــن هنا كانت تلـــك المرونة التى ترتبت عليها عواقب وخيمة .

ان محاولة اقامة ادارة مركزية من طرف الاتراك ، على هذا الاساس، اجبرتهم على سلوك سياسة أدت فى الواقع الى لامركزية حرمت الدولة من موارد داخلية هامة : لان قسما كبيرا من الموارد الداخلية كان يذهب الى صناديق « الوسطاء » بين الشعب وبين الادارة المركزية ، الى درجة أن ميزانية بــــاى قسنطينــة أو باى وهـــــران كانــت تتجاوز ميزانيــــة الداى . فالمحفوظات والسجلات التى عثر عليها الفرنسيون بقسنطينة عام ١٨٣٧ تكشف أن مداخيل الضرائب بلغت ٩٤٠،١٣٠ بياستر ، فى حين أن الكشوف التى وجدها الفرنسيون عند خوجة الخيل عند احتلالهم للعاصمة دلت على أن مداخيل الضرائب الى خزينة الداى لم تتجاوز فى نفس الفترة ٢٩٦،٠٠٠ بياستر .

وقد أكد القنصل الامريكى بالجزائر ، شالر ، عام ١٨٢٢ أن البايات لا يدفعون للداى الا حوالى عشرين فى المئة من مداخيلهم .

ذلك أن « الوسطاء » على كل المستويات يأخذون نصيبا لانفسهم مـــن محصول الضرائب والزكوات ، مثل كبار الضباط ، ومثل القياد وشيوخ القبائل .. ومثل الموظفين السامين .. وقد أدت هذه الروح الى انتشار الرشوة ، خصوصا وان النظام التركى لم يكن يدفع لموظفيه جرايات قارة ، بل كان يمنحهم امتيازات عززت بدورها روح الرشوة والفساد .

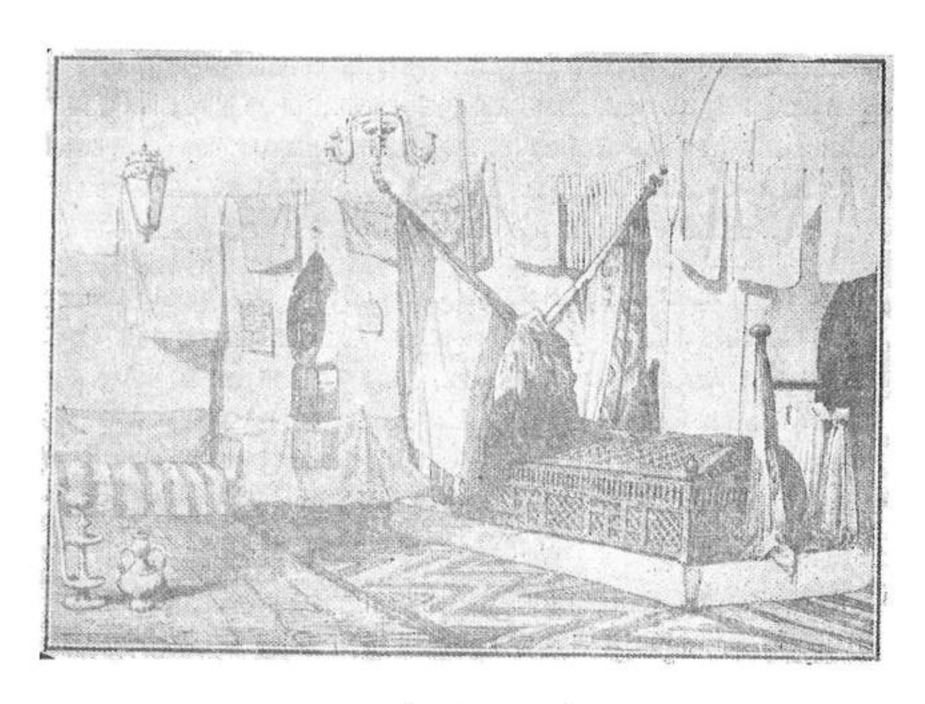
ومما زاد فى خطورة الوضع ، أن ضآلة الموارد الداخلية التى تصل الى خزينة الداى ، صرفت النظام التركى الى التفكير فى موارد خارجية ، مثل موارد الاحتكارات التجارية ومثل موارد القرصنة ، وفرض الاتاوات على دول أروبا وأمريكا ، كما صرفت ضآلة الموارد الداخلية العادية ، النظام التركى الى التفكير فى زيادة الضرائب . وقد لعب هذا الامران : التفكير فى الموارد الخارجية ، وزيادة الضرائب دورا كبيرا فى اضعاف كيان الدولـــة والتمهيد للاحتلال .

ذلك أن القرصنة وفرض الاتاوات على الدول الاجنبيـــة ، كان نظامـــا معمولا به فى فترة معينـــة من التاريخ . لكن التطور الذى حدث بعد ذلك فى أروبا جعل القرصنة وما تستلزمه من فرض الاتاوات على الدول الاجنبية طريقة لم تعد تتماشى مع الوضع الدولى الذى كان بصدد التكوين . ولئن كانت أروبا عرفت كيف تكيف أطماعها حسب اشكال تتماشى صوريا مـــع الوضع الدولى الذى كان بصدد التكوين ، فان النظام التركى غفل عـــن

هذه الحقيقة ، مدفوعا الى هذه الغفلة ببحثه الاعمى عن موارد تضمـــن وجوده . وهذه الغفلة عن ادراك هذا التطور هى التى أدت الى تأليب دول أروبا على الجزائر ومهدت للاحتلال الفرنسى .

وفى المجال الداخلى ، أدى ارتفاع الضرائب الى تعزيز السخط الشعبى على النظام التركى ، والى تهرب السكان من دفع الضرائب جملة واحدة وهو أمـــر كانت لــــه أوخم العواقب الاقتصادية والاجتماعية بالاضافة الى العواقب السياسية .

وهكذا نجد أن الوسيلتين اللتين عمد اليهما النظام التركى لتمويل خزينته وضمان استمراره ، هما بالذات اللتان لعبتا دورا أساسيا فى القضاء عليه لان السخط الشعبى فى الداخل واندلاع الثورات فى كل مناطق البلاد ، كـــان قد قضى على كيان الدولة داخليا حتى اذا جـــاءت محاولة الاحتلال الاجنبى اصطدمت بمجرد صورة ، وهذا ما يفسر الانهيار السريع للنظـــام التركى بالجزائر .



ضريح سيدى فرج

الأسطول الجزائري

من بين العوامل التي كانت حاسمة فى دفع الجزائريين الى الاستنجاد بالاتراك ضد الاسبان ، هى امتلاك الاتراك لقوة بحرية وأسطول هام . فالممالك المتفرقة التي كانت قائمة بالجزائر ، قبيل ظهور عروج وخير الدين، بالاضافة الى تشتتها وتنافرها وتطاحنها ، لم تكن تملك قوة بحرية هامة ، فى حين أن طبيعة المعركة التي طبعت ذلك العصر تجعل من القوة البحرية القوة العسكرية الاساسية للصمود فى وجه الغزوات المسيحية ضد شواطىء المغرب العربى ، ولرد عدوان القراصنة الاروبيين .

فليس من المبالغة فى شىء القول بان امتلاك أسطول بحرى قوى هو الذى مكن الاتراك من الاستقرار فى الجزائر .

وقد ادت الانتصارات المختلفة التي احرزها الاتراك فى حوض البحر الابيض المتوسط ، بالنظام التركى فى الجزائر ، الى الاعتماد الكلى على القوة البحرية واهمال جانب القوات البرية . وليس يهمنا الآن تحليل العوامل التي أدت بالأتراك الى اهمال تكوين جيش بري قوي ، لان ذلك يشكل جزءا من سياستهم القائمة على الاعتماد على الاحلاف داخل البلاد ، وعلى القوات الاضافية التي يجندونها من بين القبائل الموالية لهم ـــ لكن الذى يهمنا هو تسجيل ملاحظة موضوعية واضحة وهى : الاعتماد أساسا على قوة الاسطول البحرى فى الدفاع عن الجزائر ضد الاعتداءات ومحاولات الغزو الاجنبية .

فماذا كانت وضعية الاسطول الجزائرى عند مقدم قوات الاحتلال الفرنسية ؟

لقد رأينا فى فصل سابق كيف أن الانكليز تمكنوا بواسطة خديعة تتنافى مع التقاليد العسكرية المعمول بها فى ذلك الحين ، من تحطيم جزء من الاسطول الجزائرى فى صيف ١٨١٦ م.

بعد هذه الخسارة التي لحقت الاسطول الجزائرى ، وجه السلطان العثمانى محمود الثانى ، فى سنة ١٨٢٠ الى الجزائر يطلب منها ارسال وحداتها البحرية لتعزز القوات العثمانية ضد الثوار اليونان وحلفائهم الاروبيين ، فتوجهت من الجزائر ، فى أواخر ١٨٢١ عدة بواخر تحمل على متنها أربعة آلاف جندى .

وبعد ذلك بسنوات قليلة ، فى ١٨٢٧ وجهت الجزائر بناء على طلب القسطنطينية وحدات أسطولها لتعزز الاسطول العثمانى ضد الجبهة المسيحية المتكونة من الانكليز والروس والفرنسيين وقد نشبت معركة بحرية هامة فى نافارين أسفرت عن تحطيم معظم وحدات الاسطول التركى، فلم ينج الا نحو الثلاثين باخرة من بينها عشر بواخر جزائرية ، كما قتل من الجنود الاتراك فى هذه المعركة نحو الستة آلاف .

هذه جملة من العوامل المباشرة التى أضعفت الاسطول الجزائرى .

على أن هذه العوامل وحدها غير كافية فى تفسير ذلك الانهيار الذى لحق الاسطول الجزائرى ، اذا لم نضف اليه عاملا آخر لا يقل عن العوامل الاخرى اهمية . وفيما يلى تفصيل هذا العامل .

فى عام ١٧٩٩ منح الداى مصطفى باشا الى كل من عائلتى بوخريص وبوشناق حق احتكار تجارة الخشب واستثمار الغابات ، التى كانت أخشابها تستعمل فى بناء السفن والبواخر .

وبذلك أصبحت تجارة الخشب فى كامل المساحة الممتدة من بجاية الى القل وقفا على احتكار بوشناق وبوخريص .

وقد كان اعوان بوشناق وبوخريص يتلقون من البحرية الجزائرية اثمانا على الخشب الذى يبيعونه لها ، مضبوطة على أساس التسعيرة التى اقرها الداى حاج مصطفى فى عام ١٧٠٢ التى كان العمل بها ما يزال قائما فى ذلك الوقت ، مضافا اليها نسبة عشرين فى المائة تدفع لاحتكار بوشناق وبوخريص لقاء خدمات شركتهما .

لكن بوخريص وبوشناق لم يكتفيا بهذه النسبة من الربح ، وارادا أن يحققا أرباحا أضخم وأهم ، ففرضا اثمانا لشراء الخشب من المحتطبين فى الغابات أقل من الثمن الذى تعود المحتطبون المذكورون على البيع به . فسخطت القبائل الت ىكانت تبيع الاخشاب ، ومنعت اعوان بوخريص وبوشناق من حمل الاخشاب بذلك الثمن ، فظلت كميات هامة من الاخشاب مكدسة فوق الشواطىء ، دون أن تأخذ طريقها الى حظائر صناعة السفن.

فأحدث ذلك فجوة فى صناعة السفن الجزائرية ، ولذلك لم يكن فى الامكان تعويض البواخر الحربية التى توجهت الى بحر اليونان فى عام ١٨٢١ وفى عام ١٨٢٦ .

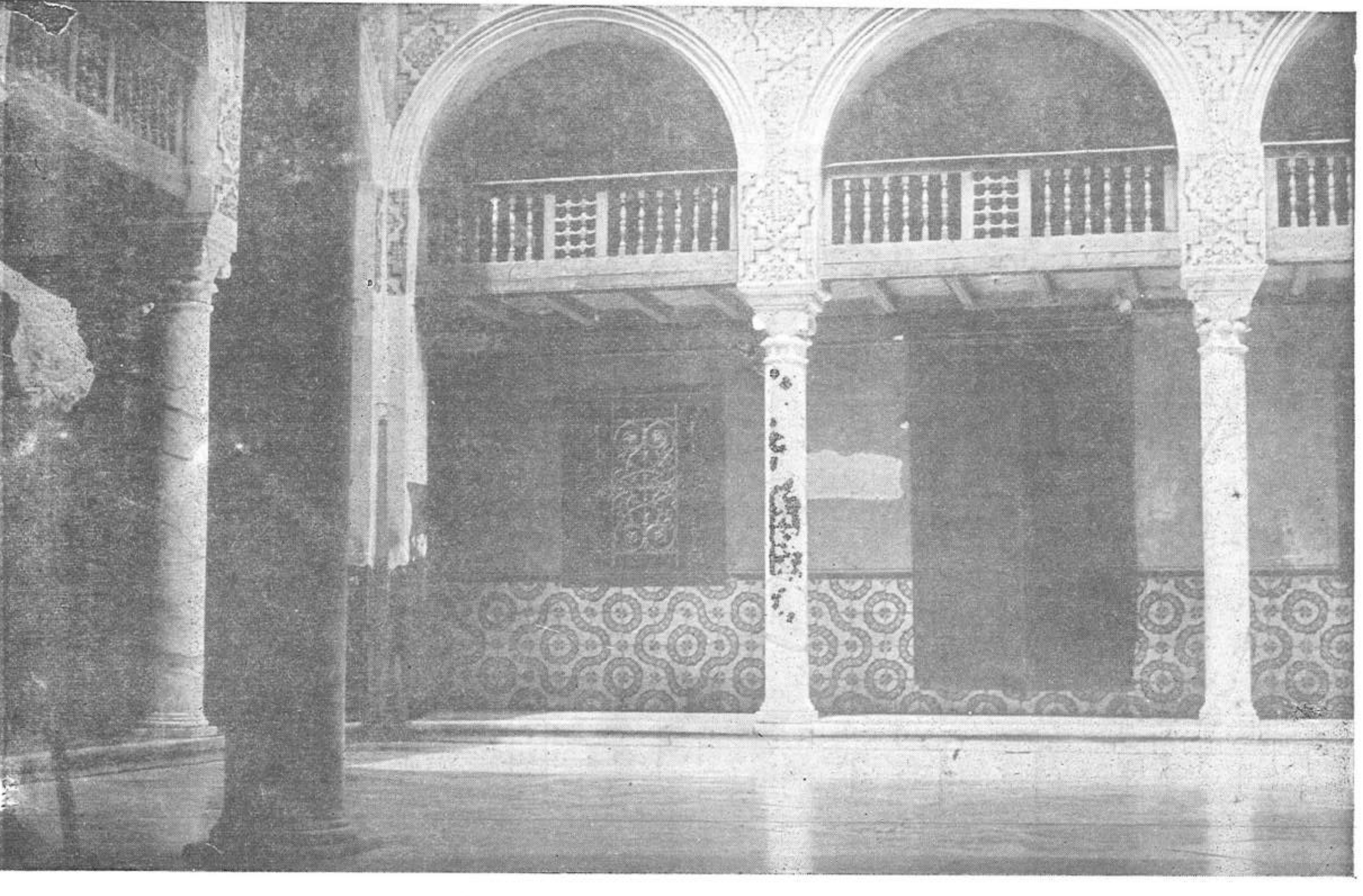
اذن فالقوة العسكرية الوحيدة التى كان يعتمد عليها الاتراك فى رد الاعتداءات الاجنبية قد لحقها الضعف للاسباب المذكورة .

ولو أن النظام التركى عمل على تلافى هذا الضعف بوسيلة أو بأخرى لامكن دفع قوات الاحتلال ، أو على الاقل الحيلولة دون اتخاذه شكل الاستعمار المباشر وطابع الحرب الابادية . لكن النظام التركى ، كان قد أصيب منذ بداية انتصابه فى الجزائر ، بمركب الغرور . فقد تولد مركب الغرور عند الاتراك منذ فشل هجوم شارلكان على الجزائر ، وتعزز بعد فشل الهجوم الاسبانى فى عهد شارل الثالث ، أى بعد الهجوم الاول بأكثر من قرنين .

وفعلا فقد ظل فشل الهجوم الاسبانى فى المرتين الاولى والثانية رادعا مدة طويلة للدول الأوروبية عن التفكير فى تنظيم حملة مماثلة .

لكن الفرنسيين كانوا استخلصوا العبرة من ذلك الفشل ، وبنوا خطتهم بالضبط على اساس مركب غرور لنظام التركى ، وهذا في الوقت الذى استنام فيه النظام التركى تحت تأثير مركب الغرور فلم يتفطن الى الخطة التى كانت تحيط لتنظيم جملة الاحتلال انطلاقا من سيدى فرج . وقد كان الحديث عن سيدى فرج بوصفه أحسن نقطة لانزال القوات التى تريد الاعتداء على الجزائر رائجا وسط الاندية القنصلية وليس هناك من شك فى ان الموظفين الجزائريين بالقناصل الاوروبية ، نقلوا الى دوائر الحكم التركي نتفا مما كان يجرى ، لكن الاتراك لم يحاولوا ان يحتاطوا للحملة ، متوهمين أن مآلها الفشل مثل الحملة الاسبانية فى عهد شارل الثالث ، ناسين أن فشل تلك الحملة يرجع الفضل فيه قبل كل شىء الى الاستعداد المحكم والى التعبئة العامة التى اعلنها محمد عثمان باشا باستقدامه الجنود والقوات الاحتياطية والقوات الشعبية من كامل جهات البلاد .

وهكذا تلاقت مجموعة من العوامل المادية والمعنوية على اضعاف الاسطول الجزائرى ، الذى ظل زمنا طويلا هو الدرع القوى الذى تحصنت به الجزائر ضد القوات الاوروبية .



منظر داخلى لمنزل يرجع بناؤه الى العهد التركي

القسم السادس

من الاحتلال الفرنسي
إلى
الاستقلال الوطني

- كيف كانت الجزائر
- الغزو الفرنسي : أسبابه
- المقاومة الشعبية
- ظهور الأمير عبد القادر
- بنـــاء الدولة
- بيجو والأمير عبد القادر
- استمرار المقاومة بعد الأمير عبد القادر
- ثـــورة ١٨٧١
- نظرة عامة في مراحل الاحتلال
- النـهـضة الوطنية
- ثـــورة أول نوفمبر ١٩٥٤ الخالدة
- تطور الارهاب الاستعماري منذ ١٩٥٤
- ميـــلاد الاستقلال

كيف كانت الجزائر

قبل ان نشرع فى تتبع عمليات حرب الاحتلال الفرنسى وما صاحبها من نهب وتدمير يجب أن نعرف فيم استعملت القوات الفرنسية الجرارة ؟ وهل حطمت وطنا قفرا عمرته وبنته من جديد كما يدعى المستعمرون ؟

التنظيم الاقتصادى والفلاحى :

كانت منتوجات الجزائر فى الميدان الفلاحى متنوعة جدا كما يعترف بذلك الغزاة الفرنسيون انفسهم عندما دخلوا البلاد . وكان أهم ما استرعى أنتباههم غزارة الاجنة والبساتين واتساع الاراضى والمراعى وخضرتها الدائمة وشبكات لا حصر لها من سواقى الرى والآبار . وكان للرى انظمة خاصة يوزع بموجبها الفلاحون المياه بصورة منظمة ودقيقة . وقد كتب عنها احد ضباط الجيش الفرنسى مثل هذا الوصف : «ان هذه الاراضى التى كانوا يقولون لنا عنها أنها قفر وبدون سكان هى فى الواقع مغطاة بأجمل الديار التى تحيط بها البساتين الخضراء . وقد بناها أصحابها فى أعالى الربى المتموجة فكانت بذلك اجمل من مساكننا نحن المبنية كلها فى الوهاد الوطئة . اما العيون والسواقى ومجارى المياه فى هذه البساتين فقد صيرت فيها الخضر والفواكه ذات كثرة عجيبة» .

وهناك نوع آخر من الاراضى يسمى «العرش» وهو ملك للقبيلة كلها تستعمله للرعى أو توزع شيئا منه على افراد القبيلة ممن هم فى حاجة اكثر من غيرهم . وبفضل هذا النظام كانت القبيلة تحافظ على التوازن بين الموسرين وضعاف الحال من افرادها .

وبهذا كان نظام الملكية فى بلادنا ــ سواء كان خاصا للعائلة أو عروشيا للقبيلة ــ يقوم فى الواقع على أسس اشتراكية يندمج فيها الفرد ، إما في افراد العائلة أو أفراد القبيلة .

على ان هذا لا يعنى ان نظام الملكية الفردية لم يكن موجودا بتاتا . فقد كان هناك اقطاعيون كبار . ولكننا لا نريد ان نقول بان نظام الملكية المشتركة لم يكن غريبا عن حياة اجدادنا قبل الاحتلال الفرنسى .

كما أن هذا النظام الاشتراكى كانت له صور اخرى يتجاوز بها النطاق العائلى والنطاق القبلى ليجمع مجموعة اكبر من المسلمين . ونعنى به نظام الاحباس أو الاوقاف الذى تذهب كل مداخيله لفائدة التعليم أوالقيام بشؤون المساجد .

والى جانب نظام الاحباس كان نظام الزكاة الذى هو ابعد ما يكون عن الصدقة وانما هو فرض يؤديه المسلم عن مكاسبه بنسبة ما تؤديه للفقراء من منطقته .

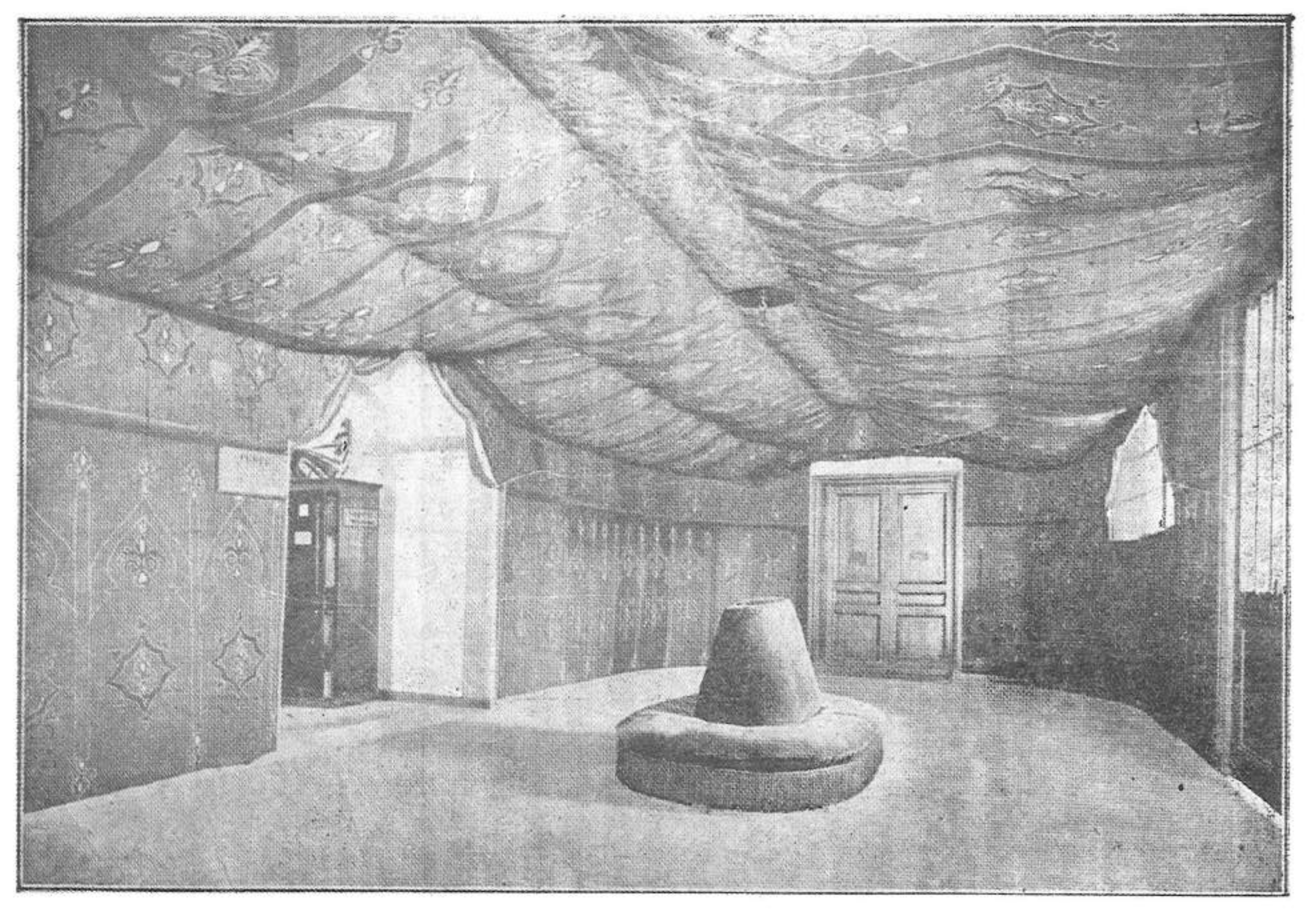
وكانت المجموعة من السكان فى القرية او الدوار تقوم بشؤون نفسها بنفسها ، أدوات الفلاحة يصنعها الرجال . والملابس ينسجها النساء . يضاف الى ذلك ما يوجد من التبادل فى المنتوجات بين القرية والدوار وبين المدينة .

والخلاصة أن الانتاج الفلاحى فى الجزائر قبل الاحتلال الفرنسى يمكن ان نأخذ عنه صورة من الاحصائيات التى قامت بها مصالح الادارة الفرنسية سنة ١٨٦٣ أى بعد ثلاثين سنة من الحرب والتدمير اذ كان المحصول السنوى فى هذه الحقبة يقدر بمبلغ ٢٥ مليون قنطار من الحبوب بينما قدر محصول سنة ١٩٥٢ ب ٢٢ مليون قنطار .

وكان عدد البقر لا يقل عن مليون راس . وعدد الاغنام لا يقل عن ٨ ملايين راس . وهذا فى سنة ١٨٦٠ أى بعد ثلاثين سنة من الحرب والتخريب تضررت فيها الماشية أكثر من الفلاحة فى حين لم يزد عدد الاغنام قبل ثورة اول نوفمبر على عشرة ملايين راس .

وابدى الضابط تعجبه بالخصوص من «التنظيم الدقيق لجارى المياه» .

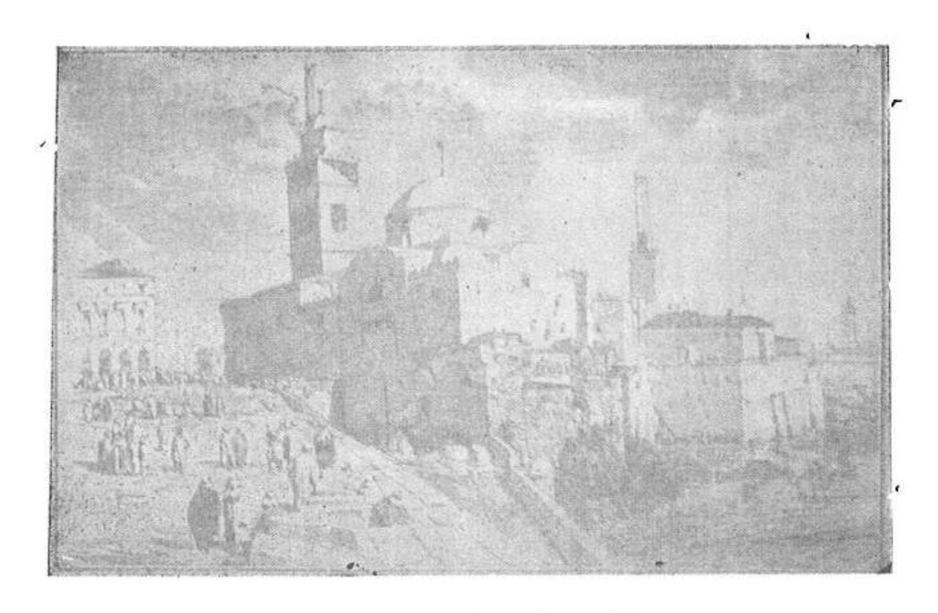
ولاحظ «روزى» من ناحيته العناية البالغة التى يوليها السكان لخدمة الفلاحة مما أعطاهم الثمار بكثرة عظمى ، ثم أورد هذه القصة : «الاشجار محظية بعناية دقيقة ، وكل جذع شجرة يحيط به حوض صغير يأتيه الماء من ساقية تمر بين صفين من الاشجار وقد رايت فى البليدة تنظيما للتشجير يفوق بكثير ما نعرفه عندنا فى اوربا ، كنا فيلقا من ثمانية آلاف جندى فى البليدة . وكان كل واحد منا يأكل او يفسد معدل خمسين برتقالة فى اليوم الواحد مما يجعل معدل ما نستهلكه ٤٠٠ الف برتقالة فى اليوم وعندما انتقلنا تركنا تلك الاشجار وكأنه لا يبدو عليها اثر مما فعلنا بها . ثم عدنا بعد شهر الى البليدة فوجدنا الاهالى يبيعون ست برتقالات بصوردى واحد» .



خيمة احمد باي ، وهي تكشف عن ضخامة الخيام العربية بالجزائر قبل الاحتلال الفرنسي

ونفس هذا الوصف أعطاه الرجل عن المدية ومستغانم حيث «توجد بساتين تبلغ مساحة بعضها ثمانية آلاف هكتار . وحيث لا توجد أرض مهملة» .

وهذا ما يقال عن شرشال وتنس وجيجل وميلة ومليانة وندرومة الى آخره . وكانت تلمسان تبيع للمغرب سنويا من الزيتون فقط بمبلغ نصف مليون فرنك بعملة ذلك العهد . وهو ما يساوى فى عصرنا مائة مليون فرنك . اما الاشجار والخضر التى كانت تغلب فلاحتها فى أرض الجزائر فهى الخضر بمختلف أنواعها وأشجار العنب والتين والزيتون والرمان واللوز . وكانت ميلة بالخصوص تنتج كل أنواع الفواكه المعروفة فى أوربا وفى قسنطينة كانت الاراضى المفلحة بالاشجار المثمرة تعد مساحتها بالكيلومترات .



الجامع الجديد في سنة ١٨٣٩

وكانت كل هذه البساتين من تلمسان الى حافة قسنطينة تسقى بنظام واحد يقوم على مجارى المياه تحت الارض . بل لاحظ الغزاة الفرنسيون وجود سد فى ذلك العهد بنواحى غليزان . ومع ذلك عندما يتكلم الفرنسيون عن الثروة الفلاحية بالجزائر يزعمون أنهم هم الذين خلقوها من العدم .

والى جانب فلاحة البساتين والخضر كانت تقوم فلاحة الحبوب وتربية

المواشى فى الاراضى الواقعة بين الصحراء والتل بصفة عامة . وكان نظام الملكية الغالب هو : اما نظام الخماسة وهو تشريك صاحب الارض للعامل بنسبة الخمس من محصول الحبوب . او نظام ملكية الارض لكل افـــراد العائلة حرصا على جمع الجهود وتكتيلها وتركيزها فى عمل يعود على كل افراد العائلة بالنفع . وكان لكل دوار مجلس يسمى «الجماعة» يتولىفض الخلافات التى قد تنشب بين هذه العائلات او تلك بسبب الحدود .

التجارة والصناعة :

لم تكن الجزائر مكتفية فى نشاطها الاقتصادى على الفلاحة فقط ، بل كانت لها نظم تجارية داخلية مضبوطة وصناعة كانت تترقى بها ببطء ولكن بخطى ثابتة .

وابرز مظهر تجارى يبدو فى نظام الاسواق الاسبوعية . ففى كل قرية او بلدة صغيرة كان — وما يزال — ينظم سوق يحدد فى يوم من أيام الاسبوع لا يكون فيه سوق فى قرية أو بلدة صغيرة فى بقية المنطقة ، وذلك حتى يتمكن كل سكان المنطقة من الاستفادة من جميع الاسواق . فينقل آهــل الريف منتوجاتهم الفلاحية الى السوق من الفواكه والخضر والحبوب والحيوانات والزيتون والعسل والجلود والاصواف الخ ... ويشترون من سكان المدن المحاريث والمناجل والفؤوس والاقمشة والاوانى والحلى والمواد الغذائية المستوردة من الخارج مثل القهوة والسكر .

وكانت هذه الحركة التجارية الداخلية تتطلب طرق مواصلات فكــانت البلاد الجزائرية باعتراف الفرنسيين مزودة بالطرق التى لم تكن معبــدة بالزفت طبعا ولكنها كانت مزودة بالجسور ، وكانت طرقها واضحة ومعروفة المسافة . مثلا كان معروفا ان المسافة بين الجزائر ووهران تستغرق عشرة أيام . وبين الجزائر وقسنطينة تسعة أيام . وكانت هناك قوافل للرحلات مضبوطة المواعيد .

والى جانب هذا التبادل التجارى الداخلى كان يوجد تبادل خارجى حتى في سنوات الحصار الفرنسي للجــزائرالذي دام ثلاث سنوات مهد بها للاحتلال. وكان هذا التبادل بـين الجزائر وتونس ، والجــــزائر والمغرب . وكان ثمــن السفر من قسنطينة الى تونس مثلا بمائة فرنك . أما نقل البضائع بــين البلدين فكان يزيد من قيمة البضاعة بنسبة خمسين فى المائة . واما تلمسان في فترة الحصار هذه فقد لعبت دورا كبيرا فيالتعامل التجارى مــع الخــارج. فكانت تستورد عن طريق المغرب القطن والحرير وخشبا معينا لصنــع البنادق . كما تستورد من اقطار افريقيا ريش النعام وبعض المتوجــات

الاخرى . وكانت موانىء مقاطعة وهران – فى ايام الحصار – تتعامل من ناحيتها مع أوروبا عن طريق اسبانيا فتصدر كل عام نحو الثلاثمائة باخرة من القمح . وفى سنة ١٨١٤ مثلا صدرت أربعين الف رأسا من البقر الى الجيش البريطانى فى أسبانيا .

وكان ايضا من نتائج هذا الحصار ان تحركت الصناعة فى البلاد ولا نقول ازدهرت لانها ظلت صناعة .

وكانت صناعة ذلك العهد هى دبغ الجلود وصنع الاحذية والسروج ونسج الاصواف والقطن والحرير وصنع الاوانى والزجاج ومواد البناء وآلات الطحن والصناعة الخشبية والحدادة والصياغة . وما يصحب كل ذلك من نوع فاخر من تلك المصنوعات كالجلود المطرزة والحرائر المذهبة والزرابى الجميلة . ومنها ما هو مصنوعات شعبية كالبرانيس والخيام والاغطية والقندورة وأوعية السفر كالتلاليس ونحوها . ويضاف الى كل ذلك اعمال الابنية العمومية وبناء السفن فى الموانىء .

وكل هذه الصناعات بالرغم من انها بقيت فى مستوى الصناعة اليدوية الا أنها كانت تغنى البلاد عن الواردات الاجنبية وتشغل اليد العاملة وتدير عشرات المليارات من النقود فى الاسواق فينتفع منها الجميع .

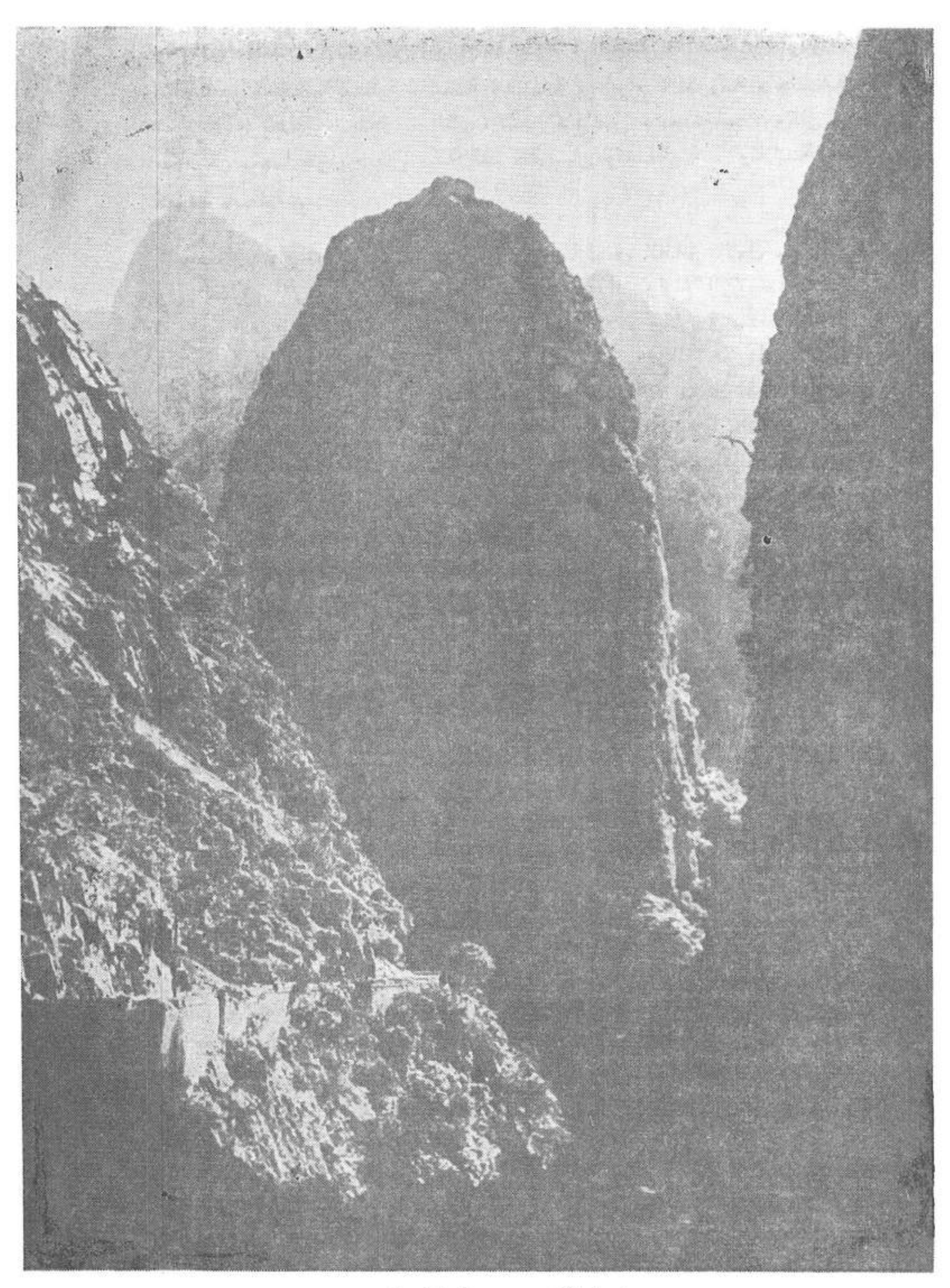
«كانت الصناعة اليدوية وأعمال البناء تحتل مكانة كبيرة من العناية فى الجزائر لا تقل عما كانت عليه فى عدة أقطار اوروبية مثل ايطاليا الجنوبية واسبانيا او الامبراطورية النمساوية . وكانت فرنسا نفسها فى ذلك العهد لا تنتج سنويا أكثر من مليون و ٥٠٠ الف طن من الفحم الحجرى (١)»

السكــــان :

ولكن مهما تكن الصناعة هامة فان الطابع الغالب على الحياة الاقتصادية فى البلاد كان هو طابع الفلاحة . وكانت أغلبية السكان تسكــن البوادى والجبال والقرى الصغيرة . اما المدن الكبرى فقد كانت العناصر البارزة من سكانها هم من الاتراك «الكراغلة» ومن اليهـــود والعبيد والحبش . وكان التمييز الاساسى بين السكان لا يقوم على أساس العرب أو القبائل أو سكان الصحراء والتل أو نحو ذلك بل على أساس سكان البادية وسكان المدن . وكانت نسبة سكان المدن الى سكان الارياف نسبة ٥ ٪ وكان مجموع سكان الجزائر وقت الاحتلال لا يقل عن ثلاثة ملايين نسمة بدون سكـــان الصحراء الذين لم تستطع السلطات الفرنسية أن تحصيهم الا فى اوائـــل القرن العشرين . واشهر المدن المعروفة اذ ذاك هى : الجزائر العاصمة

---

(١) الجزائر : ماضيها وحاضرها



شعبة الآخرة « بالقبائل الصغرى »

وهران ، تلمسان ، معسكر مليانة ، المدية ، البليدة ، المسيلة ، زمورة ، ميلة ، بوسعادة ، بسكرة ، تبسة ، القلعة ، البرج ، ندرومة ، عنابة ، شرشال ، بجاية ، جيجل ، القل ، تنس ، دللس ، مستغانم . وكان عدد سكان كل منهما يتراوح بين مائة الف كتلمسان وقسنطينة . وثلاثة آلاف كعنابة وبجاية .

وهيكل المدن بصفة عامة هو ان تكون منازل فى الطابق الاول من البناية وفى الطابق الارضى اسطبل للحيوانات . وفى الشوارع الرئيسية كانت تصطف الحوانيت والمطابخ والمقاهى والحمامات . وكان فى مدينة الجزائر ستون مقهى . وكان شارع باب عزون فى مدينة الجزائر هو ملتقى الطرق الآتية من الداخل . وفى مدينة قسنطينة كان يوجد ٣٣ معملا لدباغة الجلود و ٧٥ معملا للسروج و ١٦٧ معملا للاحذية . وكانت هذه الصناعات وحدها تستوعب ١٥٪ من اليد العاملة ويوجد بها ١٨ فرنا لطهى الخبز و ٢٢ طاحونة مائية ومصنع كبير لصنع ذخيرة السلاح .

وفى تلمسان كان يوجد ٥٠٠ معملا لصناعات النسيج والجلد والخشب والحديد . وكان الدخل المتوسط للفرد الجزائرى فى المدن أكثر بعدة مرات مما أصبح عليه فى عهد الاحتلال الفرنسى الى ايام الثورة . وكان العمال يرتدون بدلة تتكون من سروال وسترة (فيستة) وشاشية . وطعامهم الكسرة والحليب والسمن والفواكه والقهوة واللحم بقلة . ومتوسط دخلهم اليومى ٥ صوردى و٤ خبزات سمراء وهو ثمن ٥ نعاج فى الشهر . وكان دخل المعلم أكثر بثلاث مرات من دخل العامل . ومستوى الحياة العامة بناء على ذلك كان ارفع مما أصبح عليه فى عهد الاحتلال الفرنسى .

وبمدينة تلمسان كانت توجد ١٠٤٣ عمارة للسكنى . كل واحدة منها تؤوى ١٤ ساكنا . وفى معسكر ٨١٢ عمارة . وفى بجاية ٢٦٥ . الخ ... وكانت كل عمارة مزودة بالعيون أو الآبار أو النوارات . وقل أن يخلو منزل من الزرابى وأدوات الاكل التى تأتى بها الزوجة عند العرس .

وكانت الشوارع فى مدينة البليدة مثلا اوسع من شواراع الجزائر وشوارع المدية مجهزة بالارصفة وفى كل رصيف قناة للمياه أما سقوف المنازل فقد وجد الفرنسيون أنها هى بالضبط الموجودة فى بلادهم . وبالجملة فقد كانت المدن الجزائرية قبل الاحتلال وحسب رواية مشاهدات الفرنسيين هى نفس مدن أروبا فى القرن التاسع عشر .

أما سكان البوادى فان الكثيرين منهم فى المناطق الجبلية كانوا يسكنون دورا حقيقية مبنية بالاحجار أو بالطوب المجفف . والسقوف مختلفة منها

رسم بياني يوضح المراحل التي مر بها المغرب العربي والأندلس ابتداء من العهد البيزانطي إلى ما قبيل الأحتلال الفرنسي
مع ذكر البيوت المالكة في فرنسا في نفس الوقت ؛ مع ملاحظة أن التاريخ المذكور في الرسم هو التاريخ الميلادي

إفريقيا
البيزنطيون ٦٩٧
الأمويون
الأغالبة ٩٠٩
الفاطميون
صنهاجة ١١٦٠
الدولة الحفصية ١٢٣٦ – ١٥٧٤
نيابة تونس

المغرب الأوسط
مملكة جدار
تيهرت ٩٠٩
الحماديون ١٠٠٧ – ١١٥٢
بنو عبد الواد
الوادي
١٥٥٤
نيابة الجزائر

المغرب الأقصى
الدولة الإدريسية ٧٩٠ – ٩٢٠
إمارة زناتة ١٠٦٩
المرابطون ١١٤٧
الموحدون ١٢٦٩
بنو مرين ١٤٦٥
بنو وطاس ١٥٥٤
السعديون ١٦٥٩
العلويون

أسبانيا
الفيزيغوط ٧١١
الأمويون ١٠٠٩
ملوك الطوائف
غرناطة ١٤٩٩

فرنسا
الميروفاجيان ٧٥٢
الكارولاجيان ٩٨٧
الكابيسيان ١٣٢٨
الفالوا ١٥٨٩
البوربون

٦٠٠
٧٠٠
٨٠٠
٩٠٠
١٠٠٠
١١٠٠
١٢٠٠
١٣٠٠
١٤٠٠
١٥٠٠
١٦٠٠
١٧٠٠
١٨٠٠

ما هو بالديس أو بالقرمود كما فى جبال القبائل الكبرى . وغرف العائلة منفصلة عن اصطبل الحيوانات بالعكس مما كان موجودا فى أوربا فى ذلك العهد بالذات . وثروة السكان هى أرضهم وما تنتجه من غلة أو حيوانات.

والخصومات التى تنشأ تسوى فى دائرة القبيلة نفسها بواسطة مجلس للجماعة مؤلف من وجوه القبيلة وشخصياتها المحترمة ومعينة من طرف أفراد القبيلة نفسها .

ويتنقلون حسب الفصول من منطقة الى أخرى بحثا عن الاعشاب للحيوانات . وفى حالة التنقل هذه يسمون «العشابة» . ولكل عرش أو قبيلة بالاضافة الى الاراضى الخاصة ـ منطقة واسعة فى الارض هى ملك للعرش كله تستعمل للمرعى أو الحرث ـ

والى جانب الديار المبنية توجد ايضا الاكواخ وبيوت الشعر التى تتكون منها المشتى أو الدوار . ولكن هذا النوع من المساكن الشعبية فى البادية كان محروما من جميع المرافق . وطعامهم يتكون من «الكسكسى» والكسرة والزيت والفلافل والسمن والدلاع والقهوة والتبغ واللحم بقلة والحليب بكثرة .

وباختصار فان حياة الفلاح كانت أبعد ما تكون عن البذخ ولكنه كان بها مطمئنا .

الحياة الاجتماعية والثقافية :

هذه المجموعة من سكان المدن والارياف كيف كانت تعيش من الناحية المعنوية وماذا كان مستواها الخلقى والثقافى ؟ وماذا كانت التقاليد التى تتحكم فى وسطها ؟

كانت العلاقة المعنوية والثقافية والفكرية التى تجمع بين المجتمع الجزائرى هى الحضارة الاسلامية بما فيها من دين وثقافة وتقاليد وقوانين وأحكام . وهذه الحضارة عنصر انسجام بين ٩٩٪ من مجموع السكان . اذ ان الواحد فى المائة المتبقى كان يتمثل فى اليهود الذين لم يكن عددهم يزيد عن ثلاثين الف شخص بحيث كان الاسلام ليس مجرد دين أو مادة للعبادة فقط عند الناس . وانما كان ايضا مصدرا للثقافة والنظم القانونية والعلاقات الاجتماعية والتقاليد الوطنية وكان هو أهم عنصر من مقومات الشخصية الجزائرية .

ومن الناحية الثقافية لم يكن الشعب الجزائرى أميا ، وفرنسا هى التى اتته بالثقافة والعلم بل كان أغلب الرجال يقرأون ويكتبون . ومما يؤكد

ذلك ان التوقيعات فى السنوات الاولى من الاحتلال الفرنسى كان اغلبها يقع بالكتابة لا بالاصبع كما صار الامر فيما بعد عندما تركز نظام الاستعمار الفرنسى . وكان فى مدينة الجزائر وحدها عند دخول الفرنسيين مائة مدرسة لتعليم القراءة والكتابة والحساب . وكانت مداخيل المدرسة ونفقة المعلمين تؤخذ من الاحباس التى وقفها أصحابها قبل وفاتهم . وكانت مدن قسنطينة وتلمسان خصوصا مراكز حقيقية للثقافة المتوسطة وفى كل من هاتين المدينتين حوالى ٢٠٠٠ طالب و ٦٠٠ مدرس . والدراسة فيها تتناول قوانين الفقه واصول التشريع واللغة العربية . أما فى البوادى فان «الزوايا» هى التى كانت تتولى نشر التعليم . وفى نواحى تلمسان وحدها أكثر من ثلاثين زاوية للتعليم . والنفقات فى هذه الميادين الثقافية كلها من املاك الاحباس . كما كانت هذه الاحباس تنفق ايضا عن المشاريع الخيرية لفائدة العجزة والمرضى والفقراء الذين لا مورد لهم ولا أقارب وبذلك كانت تحفظ كرامتهم من التسول ومد اليد .

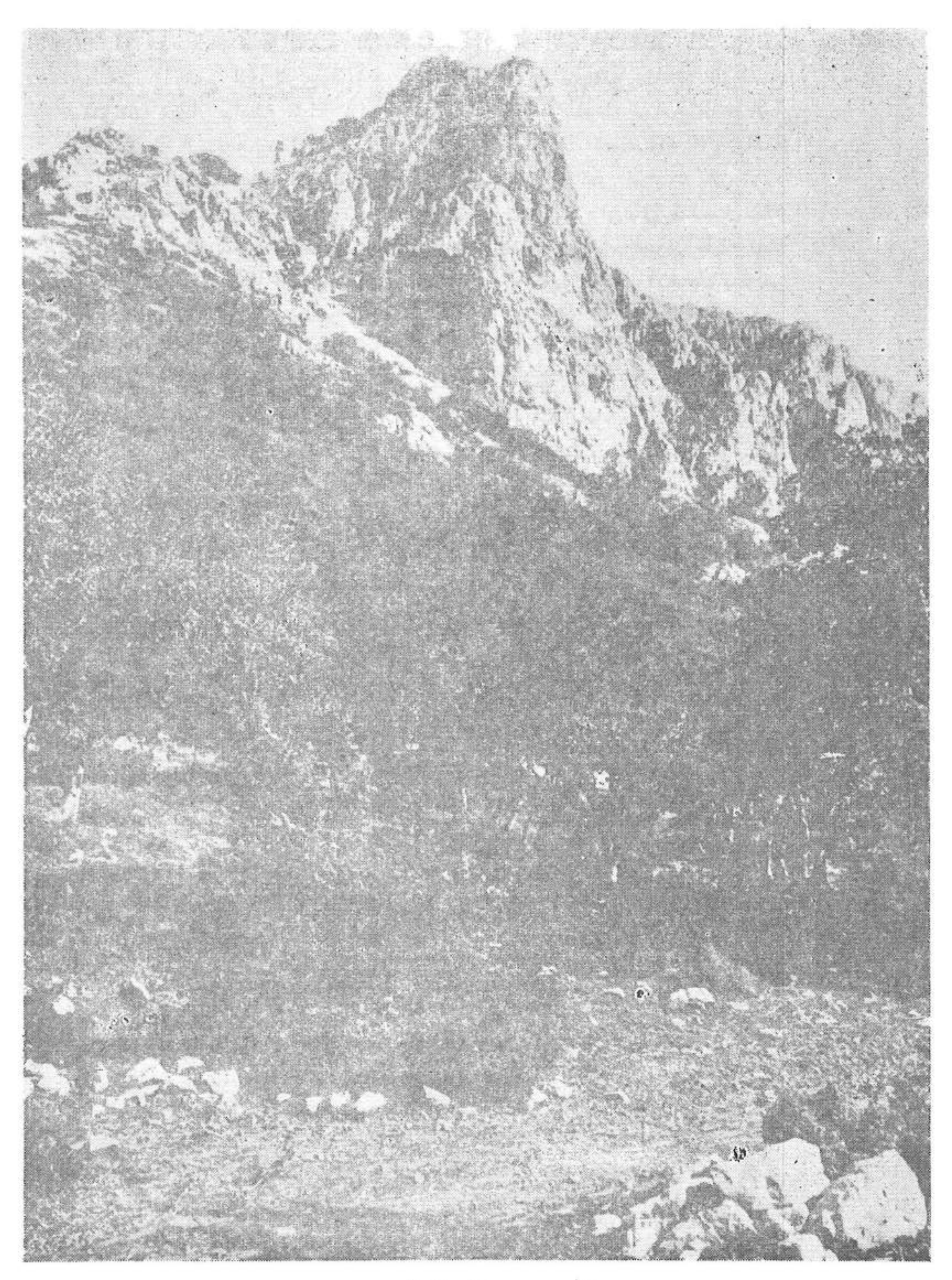
والكثيرون من متخرجى هذه المدارس يتمون تعليمهم العالى فى القيروان او القاهرة وكثير من بينهم يتولون مناصب رفيعة فى الدولة وخاصة القضاة والايمة والاطباء . ومهما كانت درجات هذا التعليم وانواعه مختلفة ومتنوعة فقد كان هناك مبدأ مشترك يجمع بينها ويلقن فيها لجميع روادها وتحرص كل مدرسة على اشباع تلاميذها به : وهو مبدأ التسامح والاخوة الذى كان يعتبر هو روح الحياة الدينية والثقافية فى البلاد (١) . ومن أبرز علامات هذا التسامح أن كل طائفة تحتكم لدى قاض من مذهبها : الحنفية والمالكية ، والميزابية . وحتى اليهود يحتكمون لدى الحبر . وكان لليهود مدارسهم الخاصة يعلمهم فيها رجال دينهم . وللعبيد السود ما يسمى «قائد الوصفان» . ولم تكن أية فئة من هذه الفئات تشعر بالضغط من طرف فئة الاكثرية وهى فئة المالكية .

أما المرأة فحياتها فى المدينة تختلف عما هى عليه فى البادية . فى المدينة هى سيدة بيتها ولكنها محرومة من الشارع ومن مشاركة الرجال فى الحياة العامة . أما فى البادية فهى سافرة وعلاوة على ذلك تقاسم الرجل كل متاعب العمل بالاضافة الى أعمالها البيتية وانجابها للاولاد . ولكن المرأة فى كلا الحالين كانت تتمتع باحترام خاص من الرجال .

والخلاصة أن هذه الجزائر التى دخلها الفرنسيون سنة ١٨٣٠ لم تكن تعيش بدون قانون وبدون ثقافة وبدون حضارة ومدن ومساكن وفلاحة منظمة وتجارة نامية واسواق قائمة وطرق وجسور وصناعة واسطول الخ..

(١) الجزائر : ماضيها وحاضرها.

ان هذه الوضعية العامة التى أتينا عليها لحد الآن فى مختلف الميادين قد طبعت المجتمع الجزائرى بطابع من الانسجام فى مختلف مناطق الوطن فتوثقت فيها روابطه طيلة قرون وتوحدت فيها الخطوط العامة الثقافية الاسلامية العربية وتقاليده وعاداته الوطنية ومقومات شخصيته الاجتماعية وأنظمته الاقتصادية والقانونية بحيث أن الاحتلال الفرنسى لم يأت بأى ثروة اقتصادية للسكان أو ثقافة شاملة أو عمران جديد . ان كل ما فعله الاستعمار الفرنسى هو أنه دمر ثروة البلاد الاقتصادية فى الحرب طيلة ثلث قرن . ودمر ثروتها الثقافية طيلة قرن وأشاع البؤس ونظم الاضطهاد واقر العنصرية الدينية والجنسية فى مجتمع كان لا يعرف الا التسامح بين الاجناس والطوائف . وأثقل كاهل البادية بالتأخر والتفقير والتجويع والاستغلال ، وسلب منهم الاراضى الخصبة وأسكن فيها أبناءه المتشردين. واقام المغامرين على رأس الادارة ، واستباح الحرمات وعلمنا القسوة والانانية والاستهتار بالمثل الاخلاقية وقوض معالم شخصيتنا وصيرنا الشعب العربى الوحيد الذى تعيش فيه العربية لغة اجنبية .



منظر من جبال الونشريس

الغزو الفرنسي : أسبابه

اذا كانت حالة بلادنا قبل الاحتلال الفرنسي بعيدة عن الهمجية والخراب والفساد فان ذلك لا يعنى انها كانت فى عهد نهضة توازى ما كانت عليه أوروبا وخاصة فى ميادين العلوم والصناعة .

ان هذه الحالة اذا قيست بأوروبا تكون اقرب الى التدهور السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى كامل منطقة شمال افريقيا والعالم العربى والاسلامى عموما فى هذه الحقبة من التاريخ . بل قد زاد من خطورة هذا الوضع وجود عالم أوروبى كان يتكون بسرعة ويتقدم بخطى واسعة فى طريق الرقى الصناعى والازدهار الاقتصادى ووسائل المواصلات والاكتشافات العلمية وتقدم العتاد الحربى الى آخره .

وكانت أروبا بسبب هذا التضخم فى ازدهارها تشعر بالحاجة الى التوسع واستغلال الآخرين من وراء البحار . وكان يزيد من اغرائها لذلك وجود دول مستضعفة متنازعة تكمن فيها خيرات واسعة وامكانيات لا حد لها . ومما زاد فى هذا الاغراء تنافس الدول الاروبية — وخاصة بريطانيا وفرنسا — على استغلال القطر الجزائرى بالوسائل التجارية ، وتسابق كل منهما لوضع يدها على خيرات البلاد . كان كل ذلك من الاسباب التى عجلت بعزم فرنسا على احتلال الجزائر بالقوة والاستئثار بخيراتها .

ان التفكير فى استغلال الجزائر قديم عند الساسة الفرنسيين ، وقد تأكد وظهر فى شكل مشاريع عدوانية صريحة على الارض خلال الخمسين سنة التى سبقت الاحتلال الفعلى .

ففى سنة ١٧٨٢ اقترح القنصل الفرنسى «كيرس» على حكومته احتلال الجزائر ، وجدد هذا الاقتراح عام ١٧٩١ وقد جاء فى المذكرة التى رفعها الى الخارجية الفرنسية فى ١٧٩١ قوله على الاخص :

«ان الفكرة المنتشرة عن أحسن مكان للنزول هو المكان المسمى سيدى فرج» .

وفى جويلية ١٧٩٧ نشر تاليران دراسته تحمل العنوان التالى : «محاولة

حول الامتيازات التى يمكن الحصول عليها من جراء انشاء مستعمرات جديدة فى الظروف الراهنة» .

وفى هذه الدراسة نص تاليران على أهمية الاستيلاء على شواطىء المغرب العربى .

وبعد ذلك بأيام قلائل عين تاليران وزيرا للعلاقات الخارجية فى فرنسا . ومن الواضح ان تاليران لن ينسى ما كان كتبه قبل ذلك بقليل .

وقد تعززت فكرة احتلال شواطىء المغرب العربى بعد ذلك عندما احتل بونابارت جزيرة مالطا التى تشكل منطلقا صالحا لشواطىء المغرب العربى . لكن الهزيمة التى منى بها الاسطول الفرنسى فى واقعة ابو قير اجلت بعض الشىء تحقيق ذلك المشروع .

وقد طلبت حكومة نابليون بونابارت من قنصلها فى الجزائر ان يوجه لها تقريرا ضافيا وأن يجيبها باسهاب عن سلسلة من الاسئلة ضبطتها حول تحقيق مشروع احتلال الجزائر . وقد اشار القنصل الفرنسى فى اجابته الى سيدى فرج كأحسن مكان لنزول قوات الاحتلال . وان كان لم يسمه صراحة.

وفى ١٨٠٨ وجه نابليون الاول الى الاميرال ديكوسى بطلب يقول له :

«فكروا فى حملة ضد الجزائر سواء من ناحية البحر او ناحية البر» .

وعلى أساس هذا الطلب وجه الاميرال المذكور ضابطا من سلاح المهندسين الى الجزائر لضبط خريطة مفصلة عن احسن موقع تنطلق منه قوات الاحتلال . وقد اشار المهندس المذكور — واسمه بوتان — بالنزول فى سيدى فرج .

وفى سنة ١٨١٩ ، ثم ١٨٢٧ ، لفت القنصل الفرنسى دوفال نظر حكومته الى تقرير الضابط المذكور لاعتماده فى تنفيذ خطة الاحتلال ، التى نفذت بعد ذلك بثلاث سنوات .

على أن هناك سببا آخر يذكره بعض المؤرخين من ذوى النزعة الصليبية الدينية . وهو ان احتلال الجزائر من طرف فرنسا لم يكن الا امتدادا للنزاع المسيحى الاسلامى فى البحر الابيض المتوسط . ويذكر هؤلاء المؤرخون أن الغارات البحرية على الشواطىء الاوروبية الآتية من شمال افريقيا وعلى الشواطىء الافريقية الآتية من أوروبا لم تنقطع منذ قرون وكان ضحايا هذه الغارات المتبادلة هم الاسرى الذين يتم اختطافهم ويباعون فى الاسواق فيصبحون عبيدا . وكانت انشط الدول الاوروبية فى هذه الغارات هى فرنسا

والبرتغال واسبانيا . أما من الجانب الاسلامى فبالطبع الدول المواجهة للبحر وهى المغرب والجزائر وتونس وطرابلس . وقد كان عدد العبيد من الطرفين فى القرن السابع عشر يعد بعشرات الآلاف . ويقول المؤرخون المسيحيون أن أكبر معتقل فى شمال افريقيا للاروبيين كان يوجد فى الجزائر.

ولكن ابتداء من القرن الثامن عشر اخذت هذه الغارات تخف نظرا لتزايد قوة الاروبيين البحرية واستعداداتهم للانتقال من الغارات المتقطعة الى الحرب الحاسمة .

أما المؤرخون التقدميون من الفرنسيين فان لهم نظرية اخرى فى أسباب الاحتلال الفرنسى للجزائر وهى ان الدولة الفرنسية فى ذلك العهد كانت رجعية واقطاعية راسمالية . وكانت تبحث عن وسيلة تسحق بها الافكار التحررية المتفاقمة فى الراى العام الفرنسى . وكان هم الدولة ليس هو التحصيل على هيبة جديرة بفرنسا . بل التحصيل على هيبة للجيش الفرنسى يمكن بها للجيش ان يكون أداة النفوذ الحقيقى فى فرنسا . وذلك عندما يتمكن ضباط الجيش من ملء جيوبهم بواسطة النهب الذى يقومون به فى الجزائر فيصبحون أداة طيعة فى يد الحكومة توجهها فيما بعد لقمع الحركة التقدمية فى فرنسا نفسها . وقال أحد الساسة الفرنسيين اذ ذاك وهو (ميتيرنيك) «ليس حادث المروحة هو الذى ننفق من اجله مائة مليون فرنك ونضحى فيه بأربعين ألف رجل» . وقال الجنرال (بيرتيى) «اننا ذاهبون الى مناوشة صغيرة مع الداى اما الحرب الحقيقية فستكون عند عودتنا الى فرنسا» .

هذه مجموعة من الاسباب البعيدة العميقة التى دفعت فرنسا الى احتلال القطر الجزائرى . وقد أوردناها حسب نزعات أصحابها . ومن الخطا أن نعد هذا السبب او ذاك هو وحده الجدير بالاعتبار . بل الحقيقة هى أن كل هذه الاسباب قد تجمعت من آفاق مختلفة كالسحب لتشترك فى شن العاصفة . ان التجار اليهود كانت لهم اسباب تجارية ، والسياسيون الفرنسيون كانت لهم غايات توسعية والراسماليون كانت تدفعهم مصالحهم المالية ، والعسكريون كانت لهم أحلامهم فى المغامرات ، والرجعيون كان همهم التسلط على الشعب الفرنسى بواسطة جيش حربى متوحش ، ورجال الكنيسة كانت تدفعهم أحقادهم الانتقامية فيجمعون اتباعهم ضد «الكفار» المسلمين .

وهكذا تلاقت كل هذه الغايات المختلفة فى نقطة معينة تحقق اطماع الجميع وهى شن الحرب على الجزائر .

حادث المروحة :

تضخمت الديون التى فى ذمة فرنسا نحو شركة بوخريص وبوشناق ، الى درجة دفعت اصحاب الشركة الى التلويح للوزير الفرنسى الداهية تاليران والقنصل الفرنسى فى الجزائر ديفال باعطائهما نصيبا من الديون ان نجحا فى حمل الحكومة الفرنسية على تسديدها . وقد تدخل بالفعل تاليران فى القضية ، وحمل الحكومة الفرنسية على تسديد الديون – لكن فرنسا دفعت عدة اقساط الى عائلة بوشناق وبوخريص (الذى تجنس بالجنسية الفرنسية فى هذه الفترة واصبح يدعى باكرى) دون أن تدفع شيئا الى الخزينة الجزائرية ، وابقت نصيبا من الديون تحت الرهن فى حالة ما اذا كان هناك اشخاص او شركات لهم دين على بوشناق وباكرى . وهذا الاجراء الذي عمدت اليه فرنسا كان من الممكن أن يكون عاديا لو أن الامر تعلق بدين عادى ، لكن الامر خلاف ذلك ، لانه يتعلق بدين بين دولتين : لان المبالغ التى اقرضت الى فرنسا ونصيبا هاما من القموح التى دفعت لها ، دفعت من الخزينة الجزائرية ، يضاف الى ذلك ان كلا من باكرى وبوشناق كانت عليهما ديون للداى ولخزينة الدولة ، فالاجراء الطبيعى فى هذه الحالة هو ان تصفى الديون فى الجزائر وان تعطى فرنسا ما عليها من مبالغ الى الداى مباشرة ، لا بواسطة وفى فرنسا كما حدث.. وليس خافيا أن الطريقة التى دفعت بها المبالغ المدفوعة الى باكرى وبوشناق كانت تهدف الى تهريب هذين من أن يدفعا ما عليهما للخزينة الجزائرية .

وباختصار ان هناك مبالغ ترجع قانونا وواقعا للخزينة الجزائرية ، لكن فرنسا دفعتها لباكرى وبوشناق : وقد فر بوشناق بعد تسلمه المبلغ الى ليفورن ، بينما تجنس باكرى بالجنسية الفرنسية ولم يرجع الى الجزائر .

وقد اتضحت للداى المؤامرة ، وعرف ان خيطها فى الجزائر هو القنصل ديفال ، وراسها فى باريس هو تاليران . وادرك أن الاتصال بالحكومة الفرنسية عن طريق قنصلها لن يؤدى الى نتيجة مادام القنصل طرفا فى القضية . (وقد اتهمت الصحافة الفرنسية المتحررة آنذاك القنصل ديفال بانه اخذ مليونى فرنك من المبالغ التى دفعت لبوشناق وباكرى) . ولذلك لم يتردد الداى فى اتهام القنصل بالتواطىء مع اليهوديين الذين خانا الداى والخزينة الجزائرية واستحوذا لانفسهما على المبالغ التى هى من حق الخزينة الجزائرية . وبناء على ذلك طلب الداى من الحكومة الفرنسية سحب قنصلها فى الجزائر وتوجيه اليهوديين الموجودين بفرنسا الى الجزائر، لانهما ليسا الا وسيطين بين الدولة الجزائرية والدولة الفرنسية .

وقد صادف فى هذا الوقت ان كانت احسن البواخر الحربية الجزائرية فى المشرق حيث ذهبت لنجدة القسطنطينية ويطلب منها ماارادت الحكومة

الفرنسية أن تستغل هذه الفرصة وأن تنفذ خطتها القديمة لاحتلال الجزائر فى هذا الوقت بالذات . فأرسلت الى قنصلها ديفال تأمره بأن يستغل كل فرصة ممكنة لاستفزاز الداى وافتعال حادث يكون مبررا لقطع العلاقات واعلان الحرب على الجزائر . وقد كانت فرنسا حريصة على افتعال حادث مع الجزائر فى هذا الوقت بالذات لانها — زيادة على ما سبق ذكره — كانت تعرف أن الانكليز كانوا يعدون العدة لاحتلال الجزائر .

اتصل القنصل ديفال بهذه التعليمات قبل عيد الفطر (سنة ١٢٤٣ هـ) . وفى عيد الفطر ذهب الى تهنئة الداى كما جرت التقاليد بذلك . وكان ديفال يتقن اللغة التركية لانه نشأ فى القسطنطينية ، فكان تبعا لذلك ، يتحدث مع الداى دون واسطة مترجم . وبعد أن قدم ديفال التهانى حدثه عن حجز الرياس لباخرة تحمل العلم الفرنسى ، فأثار الداى مسألة التحصينات العسكرية التى قامت بها فرنسا فى المركز التجارى بالقالة والتى تهدف حسبما سجله الانكليز حينذاك للداى الى اعداد نقطة احتلال فرنسى فى الجزائر . ثم سأل الداى ان كان لم يتلق جوابا على الرسالة التى كان وجهها الداى الى الحكومة الفرنسية حول قضية بوشناق وباكرى ، فما كان من القنصل الا أن أجابه : بقصد الاستفزاز .

«ان ملك فرنسا لا يتنازل لمراسلة داى الجزائر» .

وكان الداى جالسا ، والقنصل ديفال واقفا على بعد مسافة محترمة ، فصرخ فيه : أخرج يا رومى .. وتحرك الداى حركة غضب وسخط لمست من جرائها ريشة فى طرف المروحة القنصل ، فاغتنم القنصل هذه الفرصة وانسحب مهددا بأنه سيبلغ كل شىء لحكومته .

وادرك الداى حينذاك الفخ الذى نصبه ديفال ، فقال لمحيطه :

«ماذا عملت له ؟ لقد لمسته ريشة فقط» . ثم استدعى بعض الفرنسيين الموجودين بالجزائر ، وقال لهم : انه لم ينو أبدا اهانة فرنسا ، وأكد لهم ان محادثته مع القنصل محادثة شخصية ، وانهم يستطيعون المكث بالجزائر دون أن ينالهم أذى ، وانه يحميهم ويحمى مصالحهم .

لكن كان واضحا لكل أحد انه استفزاز مقصود ، فلم يكن فى حديث الداى ما يستوجب مثل ذلك الجواب ، فوجهت فرنسا فور اتصالها بتقرير القنصل الكابتان كولى على رأس قوة بحرية لمطالبة الداى بتقديم اعتذارات علنية .

وصل الكومندان كولى الى الجزائر فى الحادى عشر من جوان ووجه الى الداى بعد ذلك بأربعة أيام انذارا عن طريق قنصل سردانيا طالب فيه :

٣ : «توجيه وفد يتركب من وكيل الحرج وزير البحرية والشؤون الخارجية والقائد العام للبحرية وقائد الميناء ، صحبة أربع خوجات من قصر الداى ، ويجب أن يتوجه الداى الى الباخرة الفرنسية ويقدم وكيل الحرج علانيـــة وباسم الداى اعتذاراته الى القنصل العام» .

وبعد هذه الاجراءات التى لا تقبل اى تعديل،فى عباراتها ولا فىأشخاصها يرفع العلم الفرنسى فوق حصون مدينة الجزائر ، وعلى الاخص فوق قصر الداى ، وفى مقر البحرية ، فى أبرز مكان ، ثم توجه له التحية بمائة طلقـــة مدفعية جزائرية .

وفيما اذا لم تستجب هذه المطالب فى ظرف أربع وعشرين ساعة ، تبـــدأ الحرب ضد الجزائر .

هذا ما جاء فى المطلب الفرنسى .

وواضح انه مطلب مستحيل التحقيق .

وطبعا رفض الداى .

واعلنت الحرب فى ١٦ جوان ١٨٢٧ .

وفرضت فرنسا الحصار على الشواطىء الجزائرية ، وكانت مهمـــــة سهلة نظرا لتغيب معظم وحدات الاسطول الجزائرى فى اليونان .

وقد أثر هذا التغيب تأثيرا كبيرا ، اذ لم تستطع البواخر القليلة الباقيـــة وحدها أن تفك الحصار كما تبين ذلك من خلال فشل محاولة قام بها الرياس الجزائريون قرب رأس كاكسين فى أوائل اكتوبر ١٨٢٧ .

قبل أن تشرع فرنسا فى ارسالها قواتها الاحتلالية ضربت حصارا عـــلى الجزائر دام ثلاث سنوات ، أى منذ حادث المروحة فى افريل ١٨٢٧ الىنزول القوات الغازية فى ميناء سيدى فرج فى جوان ١٨٣٠ .

وكان الغرض من هذا الحصار هو اضعاف الجزائر وخنقها اقتصـــاديا حتى لا تقوى على المقاومة والحرب عندما يحين وقت الغزو . فلم تعـــد الجزائر قادرة على التعامل مع الخارج لضعف اسطولها البحرى . ونتج فعلا عن هذا الحصار تقهقر فاجع فى الحياة الاقتصادية بالموانىء الجزائرية ومن ثم فى بقية انحاء القطر ، وضعفت خزينة الدولة لعدم الموارد الماليـــة كما لم يعد فى امكانها أن تتلقى الاعانات العسكرية من الخارج .

بدء العمليـــات

لكى نعطى فكرة عن الاستعدادات التى هيأتها فرنسا لغزو الجــزائر يكفى أن نذكر الارقام التالية لعدد القوات التى ارسلتها فى فترات مختلفــة تبعا لتطور سير العمليات الحربية .

اشترك فى الهجوم الاول على الجزائر سنة ١٨٣٠ أربعون الف رجــل . ٣٦٫٠٠٠ من المشاة و ٤٫٠٠٠ من الخيالة .

وفى سنة ١٨٣٩ أرسلت ٥٤٫٠٠٠ جندى

وفى سنة ١٨٤٠ أرسلت ٦٣٫٠٠٠ جندى

وفى سنة ١٨٤٤ ارسلت ٩٠٫٠٠٠ جندى

وفى سنة ١٨٤٧ أرسلت ١٠٧٫٠٠٠ جندى .

ولكى نتصور ضخامة هذه الارقام فى ذلك العهد يجب أن نقارنها بعــدد القوات التى استعملتها فرنسا فى وجه الزحف الالمانى سنة ١٨٧٠ وهى لا تتجاوز ٢٥٠ الف جندى .

نزلت أول هذه القوات يوم ١٩ جوان سنة ١٨٣٠ فى ميناء سيدى فــرج. وفى يوم ٥ جويلية استولت على مدينة الجزائر واستسلم الداى فيهــا للقوات المغيرة وأمضى عقدا معهم ضمن به المحافظة على حياته وأرزاقه الخاصة . وهى معاهدة لم يحترم منها الفرنسيون شيئا لانهم استولوا على كل أملاكه الخاصة مثلما استولوا على أملاك الدولة . كمــا لم يحترموا تعهداتهم بعدم المس برجال الدين والمؤسسات الدينية وبممتلكات الاشخاص ومتاجرهم ومعاملهم وحرماتهم . لقد كان استيلاؤهم على مدينة الجــزائر عبارة عن عملية نهب عام ونهب لكل شىء : أموال الرجال والنســاء والحيوانات والاراضى والمتاجر والمعامل وتراث التاريخ والدين ومقومات الدولة والشخصية الاجتماعية والعادات الوطنية والثروات الفنية ، ومع ذلك كان الفرنسيون فى أول الامر يصورون عمليات الغزو بأنها اقرب الى السياحة منها الى الحرب .

ومما زادهم اغترارا أن المدة التى تفصل بين نزولهم فى ميناء ســيدى فرج وبين استسلام حسين داى فى العاصمة لم تزد عن عشرين يوما «كان هذا الاستسلام يوم ٥ جويلية» . ولكن الفرنسيين كانوا مع ذلك قــد أخذوا فكرة عن مبلغ المقاومة التى تنتظرهم من الشعب الجــزائرى . اذ انهم خسروا خمس القوات التى انزلوها فى سيدى فــرج باعترافاتهم الرسمية ، أما ما أعلنوا عنه فى بلاغاتهم اذ ذاك فهو ٥٧ قتيلا و ٤٧٣جريحا.

وعندما استسلم حسين داى فكر فقط فى ضمان مصالح جنوده من «المخازنية» وما سمى فى وثيقة الجنرال دى بورمون «حرية السكان المسلمين فى ممارسة شعائرهم الدينية وحرية املاكهم وتجارتهم وصناعتهم التى لم يقع مسها بسوء» .

وبالرغم من أن العرف الدولى حتى فى ذلك العهد لا يسمح لدولة غازية بالقضاء على كيان الدولة المغزوة ولو احتلتها بقوة السلاح ، فان فرنسا كانت منذ البداية تضمر القضاء على كيان الدولة الجزائرية بدليل انها لم تتعرض للحديث عنه فى الوثيقة التى سلمتها للداى مقابل استسلامه وهذا فضلا عن أن فرنسا فى ذلك العهد لم تحتل الا العاصمة ، أما بقية البلاد فقد كانت فى حالة حرب ضدها وكان حسين يظن ان الجنرال « دى بورمون » سيبقى على هيكل دولته وعلى نفوذه فى الجزائر ، ولم تظهر فرنسا اذ ذاك نواياها الحقيقية . بل فضلت أن تبقيها غامضة . وفى نفس الوقت حاولت أن تغرى باى وهران بأن تبقيه فى منصبه اذا أعطاها محصول الاداءات التى كان يدفعها الى داى الجزائر . اما باى قسنطينة كما سنرى فيما بعد ، فقد حاولت أن تتغلب عليه بتأليب باى تونس ضده فى مقابل منح هذا الاخير سلطة صورية على مقاطعة قسنطينة ، وذلك حرصا منها على ان تحكم البلاد فى أول الامر بواسطة حكام مسلمين ولو كانوا أتراكا ، وهو ما تظاهرت به فيما بعد للامير عبد القادر أيضا فى معاهدة «تافنة» ثم بعد ان يستتب لها حكم البلاد بواسطة اولئك الحكام وتتفادى بهم خسائر الحرب تنتقل الى الحكم المباشر وتتخلص من الحكام الذين أبقت عليهم فى أول الامر . لان ما كان يهم الفرنسيين الغزاة فى النهاية هو الاستفادة من احتلالهم العسكرى الى أقصى حد والسيطرة الكاملة المباشرة على كل اجهزة البلاد وكل ثرواتها الحية . والدليل على ذلك أن فرنسا لم تعترف بأية ضمانات ولا بأية غاية أو هدف رسمى لهذه الحرب ولا بأية سيادة لبلاد تحتلها بدون موجب .

لقد عانت الجزائر سبعا وعشرين سنة من الحرب المتواصلة تسبب لها فى انهيار ماحق لحياتها الاقتصادية . ومع ذلك فان الجزائر استطاعت أن تنتفع بشىء واحد من هذه الحرب ، وهو أنها كانت لها عاملا آخر جديدا من عوامل الشعور بوحدتها الوطنية ، كما أن وقوع الحرب بالفعل وحد الطبقات الفرنسية وقضى على تردد الذين كانوا محجمين عنها فى أول الامر مثلما جعل بريطانيا تؤيد الاحتلال الفرنسى ظاهريا بعد ان كانت تعارضه قبل وقوعه .

احترام المعاهدات :

ولم تكد تنتهى الحملة على الجزائر العاصمة حتى بدأت فرنسا تخــرق تعهداتها لحسين داى فاستولت على الخزينة وكان فيهــا ٥٢ مليون فرنك ذهبى «ما يساوى حوالى ١٢ مليارا» وهذا حسب الاعتراف الفرنسى ، أما كنوز القصبة الحقيقية فقد كانت أهم من ذلك . وسرحت عناصر جيشه من



جامــع كتشاوه

«الوجق» وهى ثلاثة آلاف رجل وأخرجتهم من العاصمة حتى تتخلص من أى ظل للنفوذ القديم ، وحجزت أملاكهم كما حجزت كل الاحباس الدينية التى كانت بمثابة ميزانية للتعليم والشؤون الدينية وكان كل ذلك فيما بين شهرى جويلية وأوت من سنة ١٨٣٠ ، وبعد عامين أى فى سنة ١٨٣٢ استولت

على مسجد كتشاوة نفسه وصيرته الكنيسة الكبرى للجزائر . وهكذا اخذ الجزائريون الفكرة الاولى عن معنى احترام فرنسا لتعهداتها. ان احترام الممتلكات والاشخاص والديانة معناها الاستيلاء عليها جميعا .

بعد أن استولى الفرنسيون على العاصمة بدأوا يتسربون الى الداخل . ولكن باية طريقة ؟ هذا ما يجب على الاجيال الجزائرية أن لا تنساه ابدا :

فى يوم ٣ أوت ١٨٣٠ أعرب القائد الاعلى للجيش الفرنسى الجنرال دى بورمون عن اغتباطه العظيم بالسهولة التى يجدها عملاؤه فى زرع بذور الخلافات بين الجزائريين فى الداخل ، ثم قال :

«ان مثل هذا العمل هو الذى يعجل لنا التسرب الى الداخل ويمكننا من تشتيت صفوفهم شيئا فشيئا حتى ينفجر بينهم الشقاق» .

ومع ذلك فان دى بورمون كان مخطئا فى تعويله على خلافات الجزائريين فقد انطلق الى احتلال مدينة البليدة فواجهته بمقاومة اجماعية متراصة الصفوف وعاد أدراجه فاشلا . كما وجد نفس المقاومة العنيدة المتراصة فى قسنطينة وعنابة وبجاية والمدية التى حوصرت فيها قواته ولم يستطع انقاذها من الحصار الا بالنجدات المتوالية .

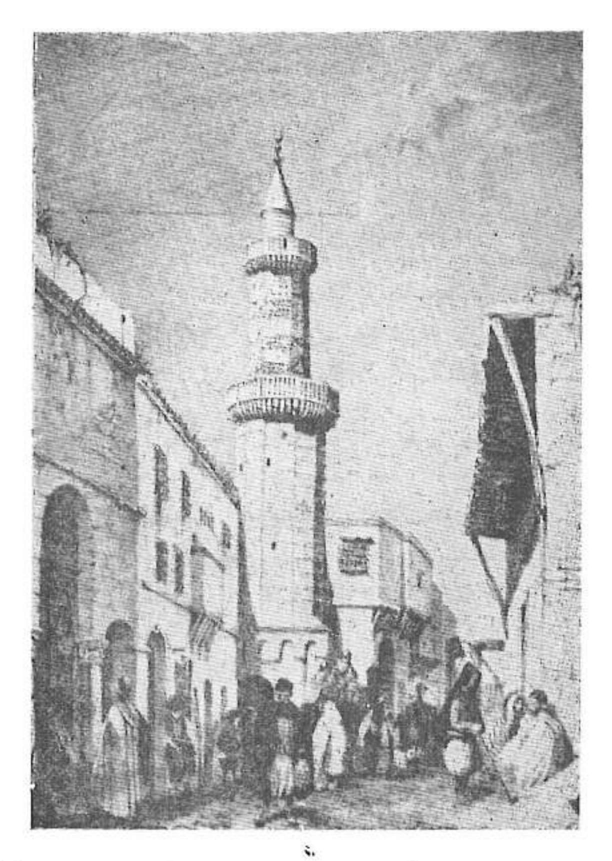
أما ما فعله حاملو المدفعية فى هذه المعارك الفاشلة فقد كان شيئا رهيبا . لقد دمروا «باب الواد» و «باب عزون» فى العاصمة . وخربوا قنوات المياه فيها ليوردوا خيلهم وبقى السكان بدون ماء . وحطموا «أبواب الديار الجميلة» التى أعجبتهم ليطبخوا بها طعامهم . وسحقوا البساتين — لماذا — ؟ لانها مظلمة متراصة الاغصان متشابكة الورق حتى تتسرب اليهم منها اشعة الشمس التى يعشقونها .

وكل هذا لم يكفهم فقال ضابط قيادة الجيش : قد لا يكون شيئا قبيحا جدا ان نقدر مستقبل السكان على الصورة التالية ، ان نبيدهم من جبال بني مناد .

وسنرى فى الصفحات التالية كيف أن هذه الكلمة لم تكن خاطرة عابرة . بل برنامجا نفذ فى الجزائريين الذين أحرقوا فى ديارهم . كما أحرقوا النباتات على سطح الارض .

ففى الصباح الباكر يوم ٦ أفريل ١٨٣٢ دخلت القوات الفرنسية تحت قيادة الجنرال «روفيقو» الى مشاتى قبيلة «العوفية» وهم ما يزالون فى نومهم ونظم فيهم مجزرة عامة لم يبق فيهم حي يتحرك . ولم يراعوا فى هذه المجزرة لا السن بالنسبة للشيوخ والاطفال ولا الجنس بالنسبة للرجال

والنساء «وفى العودة كان جنودنا المتطون ظهور الخيل يحملون الرؤوس البشرية على نصل سيوفهم . أما حيواناتهم فقد بيعت للقنصلية الدانماركية وأما أجزاء الجسم الملطخة بالدماء فقد صنع منها معرض فى شارع باب عزون وكان الناس يتفرجون على حلى النساء وهى فى سواعدهن المقطوعة وآذانهن المبتورة» (١)



مسجد حسين ميزو مورتو فى باب عزون وقد هدمه الفرنسيون بعد الاحتلال

ثم أصبحت هذه الطريقة الحربية هى المتبعة بانتظام . وأطلق عليها الفرنسيون منذ ذلك العهد اسم «السلم الفرنسى» .

وجاء فى تقرير لجنة افريقيا سنة ١٨٣٣ : «اننا اجرنا مبانى عمومية للجزائريين وطلبنا أن يكون الدفع مسبقا ففعلوا ثم من الغد هدمنا تلك

---

(١) كتاب الجزائر الفرنسية : (من اعترافات الجنرال روفيقو)

المبانى التى أجرناهم اياها . وانتهكنا حرمات المساجد والمقابر والمساكن التى تعتبر مقدسة عند المسلمين . وبعبارة مختصرة فقد تجاوزنا فى البربرية والتوحش أولئك الذين جئنا نمدنهم» .

هذا شيء مما تم بعد ثلاث سنوات فقط ، وكانت الحرب ما تزال فى بدايتها حتى من الناحية الجغرافيةاذ لم تتجاوز بعض النقاط الستراتيجية من السواحل . والجدير بالذكر أن ماجاء فى هذا التقرير ليس المقصود منه هو التنديد بأعمال التوحش الفرنسى بل فقط هو تفسير لفشل الفرنسيين فى حمل الجزائريين على الخضوع لهم والاستكانة لغزوهم الوحشى . وليستنتج منه المسؤولون الفرنسيون أن الاحتلال بالقوة لايجدى ، وان الانفع منه هو التفاوض مع من يمثلون السكان ليسهلوا عليهم فرض السيطرة الفرنسية على البلاد بواسطة معاهدات يخرقونها فيما بعد .

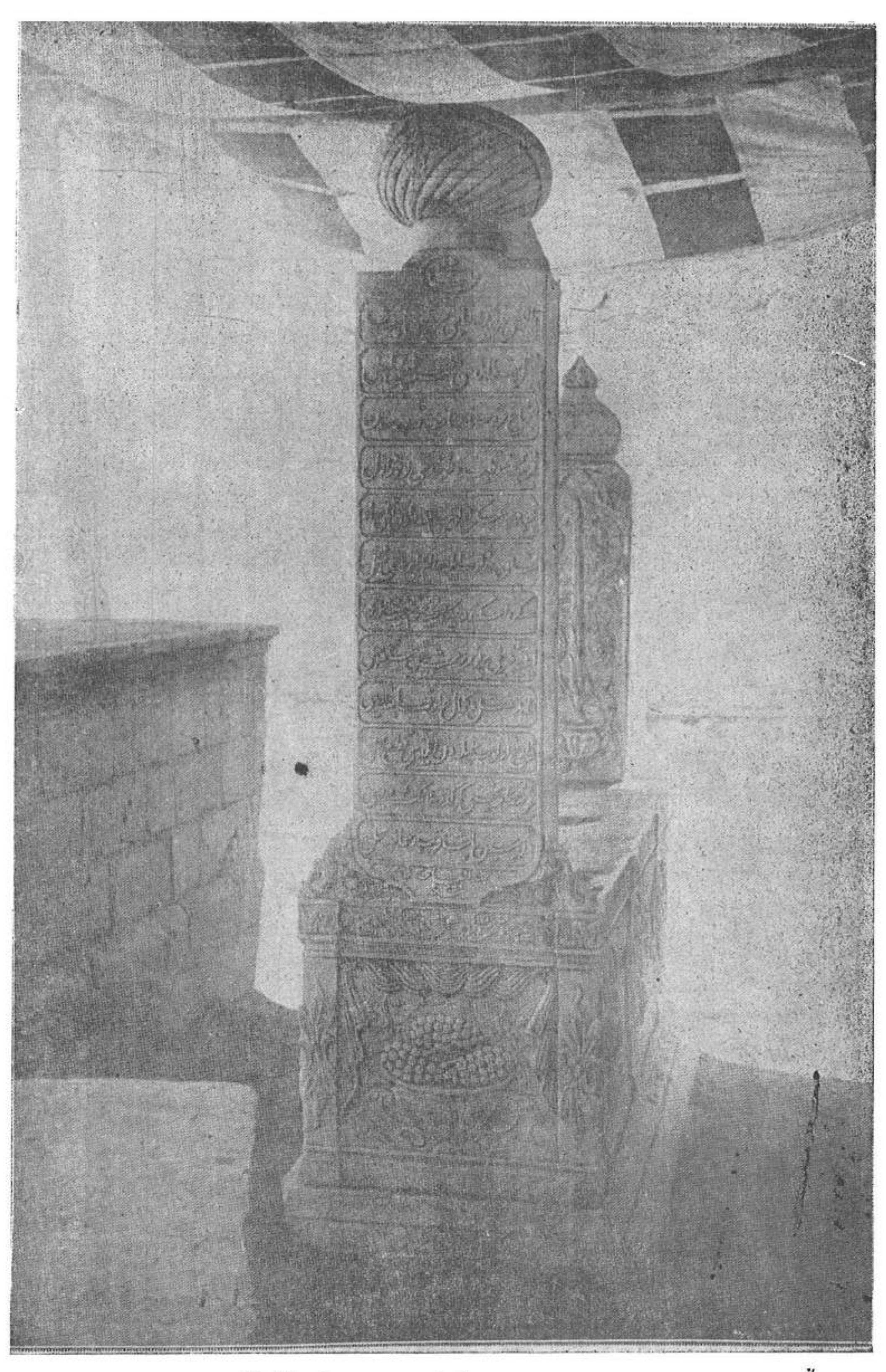
وفى السنة الرابعة من الحرب ، أى فى يوم ٦ جانفى ١٨٣٤ عقدوا معاهدة وهران التى وقع عليها الجنرال «دى ميشال» وبمقتضاها يعترف الامير عبد القادر للفرنسيين باحتلال مدينتى وهران ومستغانم فقط ولا حق لهم فى تجاوز هاتين المدينتين .

ولكن لم يكد الفرنسيون يتحصلون على هذه المعاهدة حتى بدأوا فىخرقها وتحريفها ، فمثلا كان النص العربى للمعاهدة هو الرسمى والفرنسية ترجمة له فقط . وجاء فى النص العربى «أن الشعبين يعيشان جنبا الى جنب» فنجد هذه الكلمة فى الترجمة الفرنسية كما يلى : «يعيشان تحت سلطة واحدة» وبناء على هذا التحريف استمر الفرنسيون فى توغلهم داخل التراب الجزائرى . ثم أن بقية القواد الفرنسيين لم يعترفوا بأن معاهدتهم مع الامير عبد القادر تلزمهم فى مختلف انحاء الوطن الجزائرى .

على انهم قبل هذا وذاك راحوا ينتهكون معاهدتهم مع الامير عبد القادر ويتوغلون فى غربى البلاد الجزائرية مستعملين نفس الاسلوب المتوحش فى تدمير المدن ونهبها وابادة سكان البادية . فدمروا تلمسان ومعسكر .

وفى يوم ٣٠ ماى ١٨٣٧ أمضوا معاهدة جديدة مع الامير عبد القادر عرفت بمعاهدة «تافنة» . ولكنهم لم يحترموا هذه المعاهدة ايضا .

وفى هذه المعاهدة تعترف فرنسا للامير عبد القادر بسلطته على كلالوطن الجزائرى باستثناء قسنطينة وبعض جهاتها التى كانت تحت سلطة «احمد باى» وكذلك باستثناء بعض المناطق الصغيرة التى احتلها الفرنسيون مثل منطقة المتيجة ، ولكن الفرنسيين ظلوا يخرقون هذه المعاهدة باستمراروكان خرقهم المستمر لها هو السبب فى استئناف الحرب من جديد بينهم وبين الامير عبد القادر سنة ١٨٣٩ . وكان من أهم الاسباب التى دفعت الفرنسيين



ضريح الداي حسين في الاسكندرية

الى خرقهم لمعاهدة «تافنة» هو ما سموه «بالاخطار» الناجمة من التنظيم المحكم الذى كون به الامير عبد القادر دولته الناشئة .

وعند استئناف الحرب على نطاق واسع تبـــين انهم لا يستطيعون ان يستعمروا الجزائر الا بشرط اسكان عدد هام من الاوروبيين فى الجزائر وأن يكون منهم الفلاحون والتجار ورجال الصناعة ، وأن تكون الادارة بيد الفرنسيين مباشرة . (١)

أما «الكونت دى ساد» فقد قال : الشرط الاساسى لاستعمار الجـــزائر ليس هو سلب ممتلكات الاهالى الجزائريين . بل هو ابادتهم ، أما أن نسلبهم دون ابادة كاملة فقد تبين اننا منذ خمس سنوات لم نستولى الا على الفين و ٨٠٠ هكتار من الاراضى .

هذا هو السبب الحقيقى لاستئناف الحرب بين الجيش الفرنسى ودولة الامير عبد القادر كما سيأتى ذلك . وهو عدم احترام الفرنسيين لتعهداتهم من ناحية ، والفكرة الواضحة التى كونها الجزائريون عن معنى العهـــد عندما يقطعه المستعمرون من ناحية أخرى .

---

(١) استعمار الجزائر : تأليف « انفاتان» سنة ١٨٤٣.

المقـــاومة الشعبيـــة

بعث الماريشال (بيجو) سنة ١٨٤٢ برسالة الى مسؤولـيه في باريـــس يبرر فيها ما قام به الفرنسيون من اساليب التخريب والابادة قال فيهـــا : (بدون هذه الاساليب لا يمكن التغلب على هذا الشعب المجيب ولا السيطرة عليـــه) .

بعد خرق معاهدة «تافنة» عندما خرج الجيش الفرنسي على الحـــدود التى نصت عليها المعاهدة واستؤنفت الحرب على نطاق واسع كانت مظاهر السلطة العثمانية قد انتهت فى هذه المرة فى كامل انحاء القطر الجزائرى وبرزت مكانها معالم دولة جديدة ، ولكنها هذه المرة دولة جزائرية لحمـــا ودما . وكان بدء هذه الدولة فى مقاطعة وهران بقيادة الامير عبد القادر ، كما سنرى ذلك فى الفصل القادم ولكن سلطة هذه الدولة ونظمها واجهزتها كانت تمتد الى كل أنحاء الجزائر باستثناء قسنطينة التى بقيت تحت سلطة احمد باى .

وسبب بقاء احمد باى هو موقفه المشرف من كفاح الاحتلال الفرنسى وتصميمه على الثبات فى مقاومته فالتف حوله الشعب فى قسنطينة ونظمت مقاومة رائعة . وكبد الشعب المحتلين خسائر فادحة والحق بهم هزائم مشهورة طيلة سبع سنوات . واستطاع أحمد باى بفضل التفاف الشعب حوله أن يحقق ازدهارا اقتصاديا عظيما أعانه كثيرا على استمرار مـــدة المقاومة ، ولم يكتف بعساكره من «الوجق» بل نظم وحدات من المقاومين الوطنيين ومن جميع طبقات الشعب الغنى منها والفقير ، وبينما كان كثير من ممثلى السلطة العثمانية المحليين يتعاونون مـــع الجيش الفرنسى ويعتبرونه أقوى ضمان لبقائهم فى مناصبهم — كان احمد باى فى قسنطينة يجمع حوله الشعب ويعتبره القوة الحقيقية لصيانة البلاد وصيانة مركزه من تخريبات المحتلين . وبفضل هذا الموقف وطد سلطته الشعبية بكيفيـــة لم يسبق أن عرفتها اى سلطة عثمانية فى الجزائر . وبهذا التكتل الشعبى فى ظروف المحنة أمكن لابطال قسنطينة وجهاتها ابتداء من اوت ١٨٣٠ أن يطردوا الجيش الفرنسى من عنابة . وفى بجاية لم يسلموا المدينـــة الى الجيش الفرنسى الا بعد معركة مهولة جرت فى الشوارع طيلة خمسة أيام

كاملة . وكان ذلك سنة ١٨٣١ . وفى نوفمبر ١٨٣٦ خاضوا معارك كبيرة للدفاع عن مدينة قسنطينة أرغموا فيها الجنرال «كلوزيل» على الانسحاب. وذلك بعد أن كبدوا الفرنسيين خسائر جسيمة . وقد احدثت هذه الهزيمة هزة كبيرة فى فرنسا وأوربا . وحاول القواد الفرنسيون أن يعزوا هذه الخسائر والهزائم الى احوال الطقس ، ولكنهم اعترفوا بأن قواتهم قد أبدت فعلا .

وفى اكتوبر ١٨٣٧ عاد الفرنسيون الى المدينة وحاصروها طيلة ثمانية أيام وظلوا يقذفونها بالمدفعية طيلة أربعة أيام دارت بعدها معارك مريرة تناولت شوارع المدينة ومساكنها بيتا بيتا ، وقتل فيها الجنرال الفرنسى «دامريمون» الذى كان القائد الاعلى للقوات الفرنسية فى الجزائر وكانت فيها الخسائر من الطرفين لا تحصى .

وقد كتب محمد بن الامير عبد القادر عن هذه المعركة صفحات مشرقة فى كتاب «تحفة الزائر» فقال : لما فرغ الجنرال بيجو من أمر المعاهدة (يعنى معاهدة تافنة) بعث بالجند الذى كان عنده فى وهران الى الجزائر . وبعد أيام أخذ الحاكم العام استعداده ثم سار فى المراكب المشحونة بالعساكر والذخائر قاصدا قسنطينة ونزل فى عنابة ومنها خرج الى قالمة . وما زال يتقدم الى ان استولى على «مضيق عمار» فأقام فيه ينتظر لحوق الذخائر والمهمات . وقسم عساكره أربعة فرق وزحفت هذه الجنود اول أكتوبر . واتصل الخبر بأحمد باى فخرج فى صفوة جيشه الى خارج البلد وأقام نائبه «على بن عيسى» فى باقى الجيش داخلها . واستمرت الجنود الفرنسوية سائرة الى أن وصلت قرب البلد فناجزها المسلمون الحرب ، واستمر القتال بين الفريقين ستة أيام بلياليها . ثم وقع فتور من الجيوش الاسلامية فتقدمت الجيوش الفرنسية انتهازا للفرصة واستولت على الخندق فتوقف الحاكم الفرنسى عن القتال وكتب الى الباى واعيان البلاد يدعوهم الى التسليم ويقول : «نعرفكم أن أبطالنا الشجعان قد استولوا بعزمهم وقوة سلاحهم على خنادق بلدكم ولم يبق بيننا وبينكم الا احد أمرين : اما اعمال السيف او التسليم للنجاة من الحيف ، ولا جرم ان عدم التسليم يعود عليكم بالدمار والخراب ونحن لا رغبة لنا فى سفك دمائكم ، والتسليم اسلم لكم لانكم أمسيتم فى مركز خطير جدا» . فأجابوه بما نصه :

«من الامة المحافظة على شرفها وبلدها، الى العسكر الفرنساوى المعتدى على حقوق غيره . وصلتنا رسالتكم وفهمنا ما ذكرتموه فيها . نعم ان مركزنا أمسى فى خطر عظيم ولكن استيلاءكم على قسنطينة المحمية بالابطال العربية الذين لا يهابون الموت، موقوف على قتل آخر واحد منهم، واعلموا أن الموت عندنا تحت أسوار بلدنا احسن من حياتنا تحت سلطة فرنسا» .

فلما اتصل هذا الجواب بالحاكم الفرنسوى قال لاهل مجلسه من القواد: «ما ذكره هؤلاء هو كذلك فانهم أبطال شجعان أصحاب قلوب قوية ولكن الذى رغبوا فيه سيعود على جنودنا بالعز والفخر » . ثم أمـر باستئناف الحرب . وأخذ الجيش فى طم الخندق وتوجه الحاكم الفرنسوى وفى معيته «الدوك دى برمون» الى محل العمل . وبينما هم ينظرون الى عمل الجند اذ أرسلت عليهم قنابل من مدافع البلد فأصابت الحاكم الفرنسوى فى صدره فألقته قتيلا . وتقدم الجنرال «بريكو» ليحمله فأصابته رصاصة فى جبهته الحقته برفيقه . ثم اتفق رأى القواد على تعيين الجنرال «فاليه» قائدا عاما فأمر باطلاق المدافع على البلد فأرسلت عليها كالمطر . ثم هجم «القائمقام» «لامور يسيير» بفرقته على البلد واتصلت النار باللغم الذى كان المسلمون اعدوه للعدو فدمر عددا كبيرا من الفرقة المهاجمة وجرح قائدها «لامور يسيير» جرحا أعجزه عن القيام ، ثم هجم «كومب» بفرقته مددا للفرقة الاولى التى هلك اكثرها . واشتد القتال بين الفريقين وابلى المسلمون بلاء حسنا فكان منظر القتلى مرعبا وأنين الجرحى محزنا واستمات الفريقان وكان ثبات أهل قسنطينة فى ذلك اليوم أوجب مزيد الاستغراب لكل من شاهد تلك الحرب الهائلة . وبعد هذا كانت الغلبة للجيوش الفرنسية لانهـم اقتحموا شدة ذلك الهول وتعلقوا بأسوار البلد وتمكنوا من نشر راياتهم عليها . غير أن الخسارة التى تكبدوها لا يعادلها شىء . فقد قتل من القواد المشهورين عدد كبير ، منهم القائد العـام الجنرال « دمريمون » والجنرال «بريكو» والكومندان «كومب» وغيرهم ومعظم الوبال كان فى اليوم الاخير».

وبعد هذه المعركة انسحب أحمد باى من المدينة والتجأ الى الجبـال المجاورة واندمج مع سكان الارياف فى حياتهم فتقبلوه قبولا حسنا وهـم الذين كانوا لا يحترمون كثيرا ممثلى السلطة العثمانية فى البلاد من قبل . وواصل الشعب فى الاوراس ومقاطعة قسنطينة كفاحه مع أحمد بـاى ضد الغزاة الفرنسيين الى ١٨٤٧ .

وبالرغم من ان أحمد باى ارتكب هفوة سياسية فى سنة ١٨٣٩ عندما اظهر شيئا من الاستخفاف فى مراسلته مع الامير عبد القادر مما قلل التعاون بينهما أمام الغزاة ، الا أن هذه الهفوة الخطيرة لم تمنع بعد ذلك اتباع أحمد باى وجيش الامير عبد القادر من ان يعملوا جنبا الى جنب ضد العدو المشترك .

المقاومة فى مقاطعة العاصمة :

ما كاد القائد «دى بورمون» يضع قدميه فى أرض العاصمة ويصفى أملاك الدولة والشعب ويستولى عليها حتى بدأ فى الاستعداد للتوغل الى داخل البلاد . وفى يوم ٢٥ جويليا ــ بعد عشرين يوما من الاحتلال ــ خـرج

بجيشه متوجها الى مدينة البليدة فدخلها بدون مقاومة فى أول الامر ولم تمض عليه ثلاثة أيام فى المدينة حتى هاجمه سكان الجبال المجاورة واثخنوا فى جنده قتلا حتى أبادوهم تقريبا وفر هو بنفسه عائدا الى العاصمة فدخلها على أسوا حال . وكان الجيش الفرنسى فى العاصمة منقسما على نفسه بين القوات البحرية والبرية كل يدعى الفخر لنفسه وحق السيطرة على الغنائم كما أن فرنسا نفسها كانت فى حالة اضطراب داخلى بين الملكيين والجمهوريين . وتولى الجنرال «كلوزيل» مكان الماريشال «ديبورمون» قيادة القوات الفرنسية فى الجزائر وتابع الجنرال الجديد سياسة سلفه فبعث الى كل من باى وهران وباى قسنطينة يطلب منهما الخضوع لفرنسا فرفض الثانى الاستسلام واستمد للمقاومة التى تكلمنا عليها فى الفصل السابق . وأما باى وهران فقد قبل الاستسلام وطلب الامان على حياته وأهله وحاشيته . واستولى ابن الجنرال كلوزيل على وهران بدون مقاومة. وذلك فى ديسمبر ١٨٣٠ أى بعد سقوط العاصمة بستة أشهر .

وفى شهر نوفمبر من نفس السنة خرج «كلوزيل» الى المدية بعد أن مر بالبلدية حيث أقام بها أياما. وقبل ان يصل الى المدية خرج اليه «أبو مزراك» والى ولاية «تيطرى» و (عاصمتها المدية) فانهزم أمام كلوزيل الذى دخل المدية ثم عاد أدراجه الى البلدية فوجد حاميته العسكرية فيها قد أبادها المجاهدون فأيقن أنه لا يستطيع أن يحتل البلاد بأن يضع فى كل مركز منها حامية قليلة من الجند . وانه لابد له أن يحاول حكمها بواسطة حكام غير فرنسيين ولما لم يجد فى الجزائر من يقبل هذه المهمة راح يبحث عنهم خارج الجزائر . وكان بايات تونس فى حالة بايات الجزائر استسلاما وخنوعا وطمعا . فطلب «كلوزيل» من باى تونس أن يبعث اليه بواحد من عائلته ليوليه الحكم فى بعض بلاد الجزائر . وولاه فعلا مدينة وهران التى لم يكن يأمنها رغم استسلام الباى فيها بدون مقاومة . وكان ذلك فى شهر فيفرى سنة ١٨٣١ . فأخذ الباى الجديد يدس الى بقية السكان الاتراك الذين كانوا غادروا المدينة الى معسكر وتلمسان ويطلب منهم الطاعة لدولة فرنسا التى عاهدته بتنصيب دولة تركية فى البلاد . واغتر هؤلاء الاتراك بهذه الدعاية وبعثوا بطاعتهم سرا . ولكن خبرهم فشا فى الاهالى فأثخنوا فيهم قتلا واستعصم بقيتهم فى قلعة المشور فى تلمسان .

وهكذا فشلت سياسة «كلوزيل» بفضل حزم الشعب ويقظته . فعاد الباى الفاشل الى تونس وعزل كلوزيل نفسه من منصبه واتضح للاهالى أن خرافة الدولة التركية مناورة فرنسية فصالحوا الاتراك فى تلمسان وعادت وحدة الكلمة الى ما كانت عليه بين الجميع . وكان كلوزيل قد نفى «أبو مزراك» الى الاسكندرية . فعلم ابنه بذلك وجهز جيشا قويا حاصر

به القوات الفرنسية فى المدية . وقدمت قوات فرنسية أخرى لامداد القوات المحاصرة فالتحمت بقوات ابن ابي مزراك فى معارك متسلسلة شديدة كان المجاهدون الجزائريون يطاردون فيها القوات الفرنسية حتى قتلوا أكثرها وغنموا سلاحها وغنائمها وذخائرها . وعاد ابن أبى مزراك الى المدية ففتحها وبقى فيها الى ان استولى عليها الامير عبد القادر .

وبعد هذه الواقعة حاول الجنرال «برتزين» ان يحكم العرب بواسطة العرب . فدعا اعيان الجزائر وأمرهم ان يختاروا شخصا يصلح للولاية على الجزائريين ويمثلهم لدى سلطة فرنسا فوقع اختيارهم على «محيى الدين بن على مبارك» لشهرته عند السكان ولقبه الفرنسيون «آغا العرب» فخرج الى بلدة القليعة واخذ يدعو السكان الى طاعة فرنسا . ولكنه وجد أمامه البطل «ابن السعدى» الذى هبط فى قوات ضخمة من جبال «زواوة» الى سهول متيجة فلم يجد «الآغا» بدا من الانضمام اليه . واصبحت قوات الرجلين معسكرة على أبواب العاصمة . فخرج اليهم الجنرال «برتزين» بقوات كبيرة والتحم الجمعان فى معارك هائلة كانت فيها الغلبة أول الامر للجيش الفرنسى . ولكن القوات الجزائرية ثبتت ثباتا منقطع النظير . فانهزم جيش «برتزين» أمامها وولى هاربا الى العاصمة والقوات الجزائرية تطارده وتثخن فيه قتلا وأسرا وتجمع الغنائم حتى أوصلته الى (باب عزون) بالعاصمة ثم عادت على أعقابها . وطلب برتزين المهادنة فهادنه ابن السعدى بواسطة محى الدين بن مبارك . ثم عزل برتزين أيضا من منصبه وعين مكانه الجنرال «روفيقو» سنة ١٨٣٢ فقدم بقوات جديدة وحاول أن ينتقم ويعبث باتفاقية الهدنة المبرمة مع ابن السعدى . وعادت الحرب من جديد فكانت فيها الانتصارات والانهزامات سجالا بين الطرفين. وطالت المعارك بينهما وكان ابن السعدى شيخا كبيرا لم يكد يسمع بقيام دولة الامير عبد القادر فى الغرب الجزائرى على دعائم وطنية سليمة حتى انضم اليه وسلمه مقاليد الامور وانقطع هو للعبادة فى معسكر الى أن توفى سنة ١٨٣٣ .

هذا وستأتى مناسبات أخرى ــ وخاصة عند الحديث عن ثورة ١٨٧١ ــ لنفيض الكلام عن مقاومة مقاطعة الجزائر . أما الآن فسننتقل الى الحديث عن المقاومة الكبرى التى تركت تاريخا فى تاريخنا الوطنى العظيم وهى مقاومة الامير عبد القادر .

ظهور الأمير عبد القـــادر

قلنا فى الفصل السابق أن الاحتلال الفرنسى عندما بدأت طلائعه الاولى تظهر أخذت مظاهر السلطة العثمانية تذوب وحدها وتتساقط فى مختلف



الأمير عبد القـادر

انحاء البلاد كأوراق الخريف . ولكن الواقع هو أن كثيرا من الحالات كان فيها ممثلوا السلطة التركية يتسابقون الى الارتماء بين أحضان السلطة

الفرنسية . وهذا ما جعل الاهالى لا يعتمدون على السلطات الرسمية فى الجزائر ولا على الدولة العثمانية فى تركيا كى تدافع عنهم الغزاة الفرنسيين وهذا ايضا ما جعل مدنا كثيرة عندما تتعرض لخطر الاحتلال ولا يجدون من السلطة العثمانية استعدادا للمقاومة ان يهاجروا الى البادية ليتمكنوا من تنظيم المقاومة مع اخوانهم من سكان الارياف . كما وقع فى وهران وتلمسان والبليدة والجزائر العاصمة الى آخره ...

بينت التجربة ان دخول الفرنسيين الى منطقة من المناطق أصبح معناه دخول التقهقر الاقتصادى والفقر الى جانب المذلة والتقتيل والقهر . لقد كان الفرنسيون لا يعتمدون فى الحكم الا على الاساليب الاجرامية . ووجد الجزائريون انفسهم فى وضع مؤلم جدا : فمن ناحية الاتــراك الحاكمون الذين تركوا البلاد وشأنها لانهم ليسوا أبناءهـــا ولا يريدون أن يموتوا فى سبيلها . ومن ناحية ثانية الاحتلال الفرنسى الذى يزحف خطره ويتفاقم .

كانت الاداة المحركة لدولة الامير عبد القادر هى فكرة الجهاد . وكان السبب الاكبر الذى جعل الجزائريين يتقبلون ــ ولو بشىء من الامتعاض ــ حكم الاتراك العثمانيين هو العامل الدينى وجمع الاسلام للحكام والمحكوم وكذلك التعاون على رد الغزو الاسبانى .

أما بالنسبة لفرنسا فان الجزائريين لـــم يجدوا اى مبرر يجعلهم يقبلون منها التحكم فى مصيرهم وتسيير شؤون بلادهم .

هذه الوضعية التى اصبحت فيها الجزائر أمام الغزو الفرنسى اقل مما توصف به هو أنها فراغ فاجع . ولكن هذا الفراغ من ناحية اخرى هـــو الذى أعان كثيرا على جمع الشمل والتفاف الشعب بصورة عفوية حول ابنائه الابطال الشعبيين الذين ليسوا من سلالة السلاطين والحكام ، ومن بينهم البطل الامير عبد القادر .

كان عبد القادر بن محيى الدين من عائلة دينية تنتمى الى الزاويـــــة القادرية . وكان المنتمون الى الزوايا منذ القديم ينادون بعضهم بعضا بكلمة «الاخوان» . ولكن هذه الكلمة منذ عهد الامير عبد القادر أضيف اليها معنى آخر وهو «الاخ فى الكفاح» . ومنذ ذلك العهد بقيت كلمة الاخ تستعمـــل بهذا المعنى فى الجزائر بدلا من كلمة السيد فلان . وقد بعثت كلمة الاخ بهذا المعنى فى الحركة الوطنية التى سبقت ثورة ١٩٥٤ ثم شاعت فى صفـــوف رجال المقاومة اثناء الثورة وبعدها . ولكن كيف ظهر الامير عبد القادر ؟

فى يوم ٢٩ ماى سنة ١٨٣٢ بعث السيد محيى الدين ــ والد الامـــير عبد القادر ــ بقوة من الشعب الذى ظل يناضل وحده فى مقاطعة وهران لتستكشف أحوال العدو فى نواحى وهران ثم التحق هو بنفسه على رأس

قوات كبيرة . وكان الفرنسيون معسكرين فى ضواحى المدينة . وشنت القوات الشعبية هجوما على القوات الفرنسية فى الفجر الباكر والتحم الجمعان فى معركة قاسية ولكنها لم تطل كثيرا . فعند منتصف النهار بدت بوادر الهزيمة فى صفوف الفرنسيين فولوا مدبرين والقوات الوطنية تطاردهم وتجمع ذخائرهم الحربية . ثم عادت الى معسكراتها .

وقد طعن فرس السيد محيى الدين ثمانى طعنات فى هذه المعركة ثم قتل برصاصة من العدو فبقى السيد محيى الدين وهو شيخ كبير يقاوم واقفا وأحدق به العدو ولكن جيشه أنقذه .

وقد وصف هذه المعركة فى قصيدة يقول فيها :

واشقر تحتى كلمته رماحهم	**مرارا ولم يشك الجوى بل وما التوى**
ويوم قضى تحتى جواد برمية	**وبى أحدقوا لولا أولو البأس والقوى**
وما زلت أرميهم بكل مهند	**وكل جواد همه الكر لا الشوى**
كذا دابنا فيه الحياة لديننا	**وروح جهاد بعدما غضه ذوى**
وانا بنو الحرب العوان بهالنا	**سرور اذا قامت وشانئنا عوى**

وقد سميت هذه المعركة بواقعة «خنق النطاح» الاولى.

وبعد أيام استراحة أعاد السيد محيى الدين الكرة على الفرنسيين فى وهران وأناب عنه هذه المرة ابنه عبد القادر فوصلت هذه القوات مكانا يسمى (عين الكرمة) بالقرب من مدينة وهران وكان الفرنسيون قد عسكروا فى (خنق النطاح) .

وقسم الامير قواته خمس فرق : فرقتان للهجوم وفرقتان للدفاع وفرقة بعث بها وراء العدو لتنصب كمينا عند عودته . والتحم الجمعان فى معركة هائلة أظلم فيها الجو بالغبار ودخان البارود . وسرعان ما ظهرت بوادر الهزيمة فى القوات الفرنسية فولوا يطلبون المدينة فلقيهم الكمين الذى لم يبق منهم الا شرذمة قليلة مع قائدها الجنرال (بوايى) . وعادت قوات عبد القادر مظفرة تحمل الغنائم والذخيرة الحربية الوافرة .

وتعرف هذه المعركة باسم (خنق النطاح الثانية) .

وصمم الجنرال (بوايى) على رد الضربة فاستنجد بقوات من الجزائر فوصلته حالا وخرج يريد مباغتة القوات الجزائرية . ولكن السيد محيى الدين كان يتتبع تحركاته فبعث الى القبائل من عرب وبربر يستفزهم للجهاد واقبل الشعب كعادته فى الملمات فراس عليهم للمرة الثانية ابنه عبد القادر فسارت قواتهم الى أن اطلت على وهران فقضت الليل توقد النيران فى مختلف الجهات ــ وهى عملية بسيكولوجية ــ تلقى الرعب فى قلوب الأعداء

لكثرة ما يرون من مواقد النار . وحتى يعلم العدو أنه لن يستطيع ان يأخذهم على غرة كما كان يعول وعند الصباح زحفت القوات الشعبية الجزائرية وهي تهلل وتكبر وقد جعل على راس كل قبيلة قائدا منها . وكان الفرنسيون قد عولوا على المدافع فكانوا يرسلون قنابلها على الجيوش الوطنية كالمطر.

وكان عبد القادر يتردد بين مختلف القوات ويرتبها ويعيد ترتيبها حسب تطور المعركة ويتفقد من قلت عنهم الذخيرة . ودامت المعركة الى الليل أظهر فيها عبد القادر من القدرة والشجاعة ما ثبت به اقدام جنوده الابطال امام امواج القنابل المتهاطلة . وعندما جن الليل بات المسلمون في مراكزهم اما القوات الفرنسية فقد انسحبت تحت جنح الظلام الى المدينة فتحصنت باسوارها وامتنعت عن الخروج فحاصرها عبد القادر مدة شهر كامل ثم اقلع عنها .

البيعـــــة :

هذه هي الظروف التي ظهر فيها الامير عبد القادر كقائد جريء أبرزته التجربة وحدها .

ولكن قيمة عبد القادر لم تظهر في شجاعته وقدرته الحربية فحسب بل ظهرت أيضا وبالخصوص في تنظيم دولة حقيقية جزائرية لحما ودما . دولة نبتت تحت العواصف والحروب وسقيت بالدماء . دولة استطـــاعت ان تحارب اعظم دولة في ذلك العصر طيلة سبعة عشر سنة بحيث لولا سلامة الشعب وحماسه وتضحيته ولولا عبقرية عبد القادر واخلاقه المثالية لما استطاعت تلك الدولة أن تعيش بضعة أشهر فضلا عن بضعة عشر عاما تقاوم أضخم قوة حربية عرفها العالم في ذلك التاريخ .

واذا كانت معارك عبد القادر وحروبه ضد فرنسا لا تستحق أن نميزها عن غيرها من الحروب والمعارك التي قام بها الشعب في كل المناطق الاخرى التي لم يكن لها حظ في ان ظهرت فيها ـــ عبقرية مثل هذا الرجل ـــ فانـــه لا بد لنا من أن نفيض القول في قيام هذه الدولة حتى يعرف نشأنا أن هذه البلاد ليست قادرة على الحروب فقط بل قدرتها عجيبة أيضا في التنظيم والبناء والتشييد والنهضة .

ثم ان هذه الدولة هي الدولة الاسلامية الوحيدة ـــ في ذلك العصر ـــ التي انبثقت عن ارادة شعبية وبيعة شرعية وقوانين ديموقراطية اصيلة في عهد كانت فيه الدولة بل الدول في العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه تعيش على السلطانية والحكم الموروث والتقاليد المهلهلة .

واخيرا هناك سبب ثالث وهو ان هذه الدولة التى كانت كل لحظة فيها تاريخية ، كانت أقوى دليل على تأصل التقاليد الديموقراطية الشعبية فى وطننا . اذ كان عبد القادر منذ اليوم الاول الى يومه الاخير يعيش مع الشعب فى كل جزئيات حياته لا يغره الانتصار أو يحمله على التعاظم ولا يفل فيه الفشل أو يدفعه الى التذلل ، حتى قيل عنه بحق :

لولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وعند تتبعنا لحياة هذه الدولة ستعترضنا كثير من المناسبات التى نكتشف من خلالها عبقرية هذا الرجل .

تكون عبد القادر تكوينا ثقافيا متشبعا بروح الدين الحقيقى الذى لا يفهمه على انه صلاة وعبادة وكفى بل معركة وجهاد ومثل واخلاق . ولاحظ ذلك فى قوله :

يا عابد الحرمين لو ابصرتنا لعلمت انك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فصدورنا بدمائنا تتخضب
او كان يتعب خيله فى باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا وهج السنابك والغبار الاطيب

وحج وهو صغير السن مع والده ، وعند مروره بالقاهرة « مصر » درس احوال البلاد الشرقية ونظمها ولفت انتباهه ما شرع فيه اذ ذاك محمد على من اصلاحات فى البلاد وتفتحت ابصاره عن آفاق أخرى خارج بلاده وعرف الامراض التى يعانيها المجتمع الاسلامى فى كل ناحية وفى كل ميدان . فكانت هذه الرحلة من اهم الدروس السياسية والاجتماعية التى صادفته فىحياته المليئة بالعمل .

وعندما تفاقم أمر الاحتلال الفرنسى الح الشعب على والده السيد محيى الدين فى أن يتولى الحكم وينظم البلاد أمام الفراغ الذى تركه الاتراك . وكان الشعب قد طلب منه مرة أولى ان يقبل الامارة والقيادة فى الحرب . فرفض الامارة لكبر سنه وقبل القيادة الحربية ودارت بينه وبين الفرنسيين المعارك التى ذكرناها آنفا . ثم لما عادوا فى المرة الثانية يعرضون عليه رفضها للمرة الثانية لنفس السبب ولكنه اقترح ان يتولاها ابنه لما اظهره فى المعارك السالفة الذكر من القدرة والشجاعة . وهكذا اجتمع رؤساء القبائل والعلماء والاعيان وممثلو جميع الطبقات تحت شجرة كبيرة كانوا يعقدون عندها اجتماعاتهم الهامة فكان والده أول من بايعه ودعا لهبالنصر ولقبه «بناصر الدين» . ثم بايعه بقية الناس على الطاعة والموت فى سبيل الله والوطن . ثم توجه الى المدينة — معسكر — وحوله ما يقرب من عشرة

آلاف فارس وخرج الناس لاستقباله وكانت طلقات المدافع تدوى بين انغام الموسيقى وزغردة النساء والاعلام ترفرف . وخطب فى الناس خطبةقصيرة حثهم فيها على الطاعة والتزام رأى الجماعة — أى ما نسميه اليوم برأى الاغلبية فى كل شيء — ثم كان أول ما قام به الامير الشاب هو أن دخل الى بيته ونادى زوجه فقال لها : من واجبى الآن ان اخيرك بين أمرين : ان أردت ان تبقى معى من غير التفات الى طلب حق من حقوقك على .. وان ابيت فلك ما تريدين وأمرك بين يديك لانى قد تحملت ما يشغلنى عنك .

وهذه حادثة صغيرة من الحوادث التى سنكتشف من خلالها شيئا فشيئا قيمة الرجل . ان الشعور بالمسؤولية ازاء قضية الوطن سيدخل خللا على حياته العائلية . وهو لا يقبل أن يتسبب فى ضرر لاحد ولو كانت شريكة حياته فخيرها بين التضحية بحقوقها والبقاء زوجة له ، وبين حريتها . والشعور بالمسؤولية الى هذا الحد لسنا نجده دائما وعند جميع العظماء .

ثم خرج الى المسجد فصلى بالناس ثم خطب فيهم شارحا لهم سياسته وكيف ينوى أن يقود البلاد . وقال سأحكم والقانون فى يدى . ثم تلى نص البيعة فوافق الحاضرون وتليت أسماء قبائلهم . وكان ذلك فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٣٢ .

وبعد اتمام البيعة أمر الامير مجلس العلماء أن يكاتبوا رؤساء القبائل فى بقية أطراف البلاد فى الحضور لاداء البيعة . وأخذت وفود القبائل تتوارد من مختلف أنحاء الجزائر . وعند اجتماع آخر غفير تلا فيهم نص البيعة ليوافق عليه من لم يحضر فى الاجتماع الاول .

ومما جاء فى هذا النص : «لما انقرضت الحكومة الجزائرية العثمانية من سائر المغرب الاوسط واستولى العدو على مدينتى الجزائر ووهران أعادهما الله دار ايمان واسلام .. قام رؤساء القبائل وكبراؤها وصناديدها وزعماؤها فتفاوضوا فى نصب امام يبايعونه على الكتاب والسنة .يطيعونه ما ساسهم بالشريعة الغراء ، وينصرونه فى السراء والضراء . فمن وفى بيعته نال مسرته واتقى مضرته . ومن نكث فانما ينكث على نفسه وخسر فى يومه وأمسه . والله المسؤول فى هداية الخلق الى طريق الحق والرأفة والرفق» .

وكانت هذه البيعة الثانية والعامة يوم ٤ فيفرى سنة ١٨٣٣ .

وبعد هذه البيعة شرع الامير فورا فى تشكيل اعضاء حكومته وكان رئيسهم يسمى وزيرا والبقية كتا بله ونظار : كناظر الخزينة وناظر الاوقاف وناظر الخارجية والجيش ورتب مجلسا للشورى من أحد عشر عضوا من العلماء والمثقفين . وأقام جهازا للكتابة العامة وعين ممثليه

فى مختلف الجهات . وشرع فورا يرد المظالم ويرجع الحقوق الى اهلهـا ممن كانت حكومة الاتراك قد نهبت أموالهم . وابطل الضرائب على الشعب ما عدا الزكاة . وعين مدينة معسكر عاصمة له . ثم بدأ يتجول فى انحـاء البلاد ويتفقد أحوال الناس ويرتب الادارة فى نواحى الجنوب . ثم صعد الى الساحل حتى وصل مرفأ «أرزو» وفى كل ناحية يقيم الحصون وينظـم الحامية العسكرية ويزودها بالذخيرة .

وفى معالجته لمشاكل القبائل والعروش كان يحرص دائما على التصالح بينهم وارجاعهم الى حكامه وخلفائه . ويسجل عليهم فى ذلك حكما كتابيـا هذا نصه : « لقد امضينا بحول الله وقوته الصلح المبرم بين بنى فلان وفلان بعدما أمرنا به ومحونا اثر ما كان بينهم من بقايا حمية الجاهلية والزمنـا كل فريق منهم أن يقف عند حده وأن يرفعوا جميع مايعرض اليهم من الدعاوى والقضايا الى من وليناه أمرهم حسبما حرر ذلك فى الاصل وأوجبنا العمـل بمقتضاه ورتبنا العقوبة الشديدة على من يتعداه فمن سعى فى نقضه كله أو بعضه فقد عرض نفسه لسخط الله تعالى وغضبه وتلزمه المجـازاة العنيفة من جانبنا العالى بالله . وعلى هذا النص أجرى الصلح الى آخره» .

وفى أثناء أعمال البناء التنظيمى التى كان يقوم بها الامـير لم يتوقف عن الحروب . ومن أشهر ما قام به من الجهود الحربية فى هذه السنة الاولى من ولايته هو محاولته لاسترجاع «مستغانم» التى دخلها الفرنسـيون وتحصنوا فيها وجهزوها بالمدافع القوية فحاول الامير أن يهدم السـور بالآلات المتواضعة التى كانت لديه فلم يفلح فحفر خندقا أوصله الى السور وحشاه بالبارود واضرم فيه النار فانفتحت فيه كوة صغيرة لا تكفى لادخال الجند بالعدد المطلوب فأتوا الحصن عن طريق البحر سباحة وهم واضعون أسلحتهم على رؤوسهم ولكن المدافع الفرنسية الحت عليهم بقنابلها ولم يرد الفرنسيون ان يخرجوا من الحصن فعدلوا عنه . وهذه صورة عن مبلغ الاستماتة التى كان يقاتل بها أجدادنا لطرد العدو من بلادهم .

معاهدة دى ميشال :

وأمام هذه الارادة لم ير الفرنسيون بدا من سن سياسة جديدة تمكنهم من كسب الوقت وتوهن عزائم الجزائريين وتقضى على امكانياتهم الاقتصادية بطول الامد فأبدلوا الجنرال «بوايي» وبعثوا مكانه الجنرال «دى ميشال» المشهور اذ ذاك بالحيلة السياسية والمهارة الحربية معا . فأخذ يجس نبض الامير ويراوده للصلح والامير يتمنع حتى يرضخه لشروط صلح اكثر ملاءمة وذلك ما تم فعلا . فبعد أن أنضج الامير عدوه لشروط ملائمة أكثرها فى

صالحه جمع مجلس وزرائه ومجلس استشارته واطلعهم على تفاصيل الامر فوافقوا على خطته .

وعندئذ عقد اجتماع خارج وهران بين ممثلى الامير وممثلى الجنـــرال «دى ميشال» فى يوم ٤ فيفرى سنة ١٨٣٤ . وعقد الطرفان معاهدة تنص على الصلح وتلزم فرنسا باحترام المسلمين وعوائدهم وقوميتهم فى مناطقها وكل طرف يرد أسرى الطرف الثانى . وعلى تبادل القناصل . وكل فرنسى لا يدخل مناطق الامير الا برخصة من قنصله فى وهران وعلى أن للامـــير الحرية فى شراء الاسلحة وكل ما يتعلق بالمواد الحربية وأن يكون حرس ميناء «ارزو» تحت سلطة الامير . وأما وهران ومستغانم حيث يوجـــد الفرنسيون فلا يدخلها من البضائع الا ما يحتاجه الاهالى فيها .

وبلغ أمر المعاهدة الى باريس فلم ترضها الشروط واعتبرت الجنـــرال «دى ميشال» قد ضعف أمام الامـــير وحاول الفرنسيون فعـــلا أن يفسدوا المعاهدة بشتى الوسائل حتى يضيفوا اليها شروطا اخرى تلائمهم .

أما الامير عبد القادر فقد كانت خطته هو أيضا هى كسب الوقت واغتنام فترة السلم لتنظيم الجيش والبلاد وبناء دولته على دعائم عصرية قوية لانه كان يؤمن أن الحرب آتية لا شك فيها وأنها ستكون طويلة الامـــــد وأن الاستعداد لها يتطلب عدة سنوات .

بنـــاء الدولـــة

تنظيم الجيش :

بينت التجربة للامير عبد القادر من خلال المعارك السابقة ان هنـــاك فرقا بين الجند النظامى المدرب والحشود المتطوعة ، فأعلن التجنـــيد الاختيارى فى الجيش النظامى وفتح مكتبا فى معسكر لمن يريد أن يتطوع فيه وهذه من المهام التى كان يشرف عليها بنفسه . ونظم الجيش علـــى ثلاث قوات أساسية : المشاة ، والخيالة ، والمدفعية . وولى على كل قوة من اشتهر فيها من الابطال . ووضع لكل من هذه الجيوش قوانين مضبوطـــة وعين لهم أجرتهم اليومية ونظم لهم الرتب العسكرية والاوسمة الحربيـــة والبسة مميزة . ويشتمل مجموع هذه القوانين على اربعة وعشرين قانونا. وتبتدىء أسماء الضباط بالاعلى «آلاغا» ثم السياف ، ثم رئيس الصف ثم الجاويش . وكان لباس الجند يختلف باختلاف القوات الثلاث فبعضهـــا يرتدى الجوخ الاحمر من فوق والاسود من أسفل . والبعض يرتدى الجوخ الاسود من أعلى والسروال الاحمر من اسفل والزم الضباط ان لا يستبدلوا زى لباسهم الرسمى أو يرتدوا نوعا احسن مهما بلغوا من الغنى . والضباط يحملون على ساعدهم الايمن علامات يعرفهم بها الجنود . اما كبارالضباط فعلامتهم نجوم من الذهب والفضة على مناكبهم أو صدورهم ويتفـــاوت عددها بتفاوت رتبهم .

وعين لكل قوة من القوات الثلاث مدربين . وانشأ فرقا موسيقية للجيش وعندهم أنغام خاصة بالهجوم أو الانسحاب فى وقت المعركة وانغام خاصة بالحراسة وأخرى خاصة باجتماع الضباط . وجعل للتمارين الحربية أوقاتا مضبوطة فى أيام محددة . وحدد العقوبات التى تنال الضباط والجنود عند مخالفتهم للاوامر أو اهمال لتطبيق القانون فى حالة السلم وحالة الحرب . ونظم ترقية الجنود والضباط والمنح التى ينالونها فى الاستشهاد أو الاصابة بالجروح أو بالمرض بشهادة الاطباء كما زود الجيش بالمستشفيات . ورئيس الجيش عليه أن يتفقد جيشه وأسلحته فى كل يوم سبت . وعين لكل مخالفة من الجندى أو الضابط ما يترتب عليها من العقاب بحيث لا يجوز مثلا لرئيس المشاة أن يركب فرسا وبقية جيشه يمشى على الاقدام . وان غاب احـــد

جنوده برخصة أو مات فيجب على الرئيس ان يدفع بندقية الجندى الى حاكم الناحية التى يكون فيها ويأخذ منه وصلا على ذلك . وان لم يفعل ذلك يكون هو الضامن للبندقية او ما كانوا يسمونه اذ ذاك (بالبارودة) . وكل ضابط صغير أو رئيس صف ينبغى أن يتفقد جنوده واسلحتهم واحوالهم مرتين فى اليوم : صباحا ومساء وذلك بأن ينادى كل واحد باسمه . ومثلما فرض على الجنود طاعة عمياء لضباطهم فانه فرض على الضباط القيام بواجبهم نحو الجنود قياما كاملا بحيث من تخلف مثلا عن حصة التمرين يسجن ستة ايام . ومن ترك الوسخ على كسوته أو سلاحه يسجن ثلاثة أيام . ومن اطلق النار لغير فائدة يحبس يوما وليلة . واذا نام الجندى فى الحراسة يحبس ثمانية أيام . واذا باع سلاحه يسجن شهرا والضابط ان ارتكب مخالفة يعزل عن رتبته وينزع لباس الضباط ليرتدى لباس الجندى وهكذا . . .

النظام القضائى والثقافى :

«اقبل الامير على الوظائف الشرعية فعين فى كل عمالة وكل دائرة واسعة الانحاء قاضيا عالما بفضل القضايا الشرعية على مذهب الامام مالك وشرط أن يكون فقيها نزيها مشهورا بالعفاف والقيام بأمور الدين . وربط ادارة هؤلاء القضاة بمراجعة قاضى القضاة ورئيس مجلس مجلسه الخاص. ونصب قاضيا للجيش . ورتب فى سائر المدن والقرى علماء لتدريس فنون العلم وعين لهم مرتبات على حسب طبقاتهم . وامر بطلب العلم وباحترام اهله واعفائهم من جميع المطالب الاميرية . فاذا أحضر عنده طالب علم يمتحنه فى الفن الذى يتعاطاه فان وجده ناجحا فيه أكرمه والا أعرض عنه فكان هذا سببا قويا للطلبة فى الاجتهاد . وحصل من ذلك نجاح عظيم وانتشر العلم فى جميع المقاطعات واقبل الناس على تعليم ابنائهم الامور الابتدائية فكثر النفع وعمت الفائدة. وكانت الكتب حينئذ قليلة فى البلاد فاجتهد فى جمعها من كل جهة وأمر العسكر بأن كل من وجد كتابا يحضره له ثم شدد فى حفظ الكتب الموجودة بأيدى الطلبة وعزم على ترتيب مكتبة فصار يجمع الكتب ولما احتاج الى اخلاء المدن جعلها فى الزمالة فتلفت كلها فى وقعة «طاكين» لما هجم ابن ملك فرنسا «الدوك دومال» على الزمالة . واجتهد فى تهذيب الاخلاق واصلاح الآداب العمومية بحيث لو اراد الله باطالة المدة لعاد العرب الى طريق اسلافهم المؤسسة على منطوق القرآن الكريم لانه منع بشدة وصرامة شراب الخمور ولعب القمار لا سيما من العسكر ومنع استعمال الدخان لكونه اسرافا من دون فائدة سيما الفقراء . ومنع على الرجال استعمال الذهب والفضة الا فى الاسلحة وعلى الخيول . وأمر بالصلوات الخمس أن تكون فى الجوامع . وأحدث امورا محسنات للامارة والملكة لم تكن موجودة

فى أيام من سلفه من ملوك المغرب فاتخذ فى كل مقاطعة دار شورى للمفاوضة فى الدعاوى المهمة التى تحدث بين الرعايا وفى مصالح المملكة . وجعل انتخاب أعضاء هذه المجالس الى الخلفاء . والقضايا التى ترى فيها يكون فصلها على الوجه الشرعى ويكتب فيها صكوك يضع اصحاب الشورى فيها أسماءهم بخطوط أيديهم . وعند حدوث نازلة مهمة يحضرها الامير وتكون الرئاسة له والوجه الشرعى الذى بموجبه يجرى الحكم فى النوازل موقوف على اتحاد آراء الاعضاء . ولهذا المجلس سجل كباقى المجالس تحرر فيه مفردات ما يراه من الحوادث وبهذا الترتيب كانت الاحكام جارية على جادة الاستقامة ونفقات هذه المجالس تصرف من بيت المال كباقى الوظائف والخطط الملكية . وأما اهل الوظائف الدينية وما يتعلق بها فتصرف مرتباتهم وتعييناتهم من خزينة الاوقاف . ومن الامور التى أحدثها الامير وحاز بها الفضل انشاء «المارستانات» لمرض العساكر فى كل المقاطعات ، وعين فى كل مارستان أربعة أطباء . وابتنى دارا للمسافرين والوفود فى الحاضرة ، وأقام ناظرا عليها من أمناء دولته ينزل الناس فيها على حسب طبقاتهم وتقدم لهم المآكل والمشارب على حسب مقامهم».

نظام الاعياد :

كان يحتفل للمولد النبوى أيام امارته احتفالا عظيما فيخرج يوم المولد الشريف هو وخاصته وأمراء جيشه الى أرض فيحاء متسعة ثم تصنع العسكر فيها شبه محاربة بحيث تقف العسكر المشاة المنظمة كهيئة قلعة مربعة الاركان ويضعون ما يحتاجون اليه من البارود والذخائر وسط تلك القلعه ويجعلون فى كل ركن من أركانها مدفعين ثم تأتى فرقة من الخيالة فتحيط بتلك القلعة فتخرج اليها شرذمة من القلعة لتردها عنها فتبعد عن القلعة نحو عشر دقائق وتطلق البارود على الخيول المقابلة لها فتهجم الخيول عليها وتطلق النيران حتى تقرب منها فترجع تلك الشرذمة الى وراء وهى لا تفتر عن اطلاق النار حتى تدخل القلعة وتقف فى مكانها الذى خرجت منه ثم تطلق عساكر القلعة النيران المتتابعة على تلك الخيول وتطلق مدفعا أو مدفعين من الركن الذى يليها فترجع الخيالة عنها ثم تخرج شرذمة أخرى من الجهة الثانية الى ما يليها من الخيالة فتهجم عليها فرقة من الخيالة المقابلة لها بجميع قوتها حتى تردها الى مكانها الذى خرجت منه بحيث يخيل للناظر انها لم تخرج منه أصلا ثم تطلق النيران المتتابعة على الخيالة ويطلق المدفع عليها من الركن المقابل لها حتى ترجع القهقرى . وعلى هذا المنوال تفعل أصحاب الجبهة الثالثة والرابعة من الافعال ويستغرق هذا العمل مقدار ساعتين من النهار فيشاهد الناظر من تلك الافعال ما تقر به الاعين وتبتهج به النفوس وهكذا كان العمل فى أيام الاعياد بعد الفراغ من الصلاة .

الصناعة والاقتصـــاد :

لما فرغ الامير من تمهيد البلاد اقبل على تحسين احوال المملكة وتحصينها وتثقيف ثغورها فابتنى فى الخط الفاصل بين السواد والصحراء عدة حصون منها سعيدة . وحصن الثغور فعم الامن سائر المملكة وأطفأ نار الفتن التى لم تزل منذ تقلد أمور المسلمين تتقد تارة وتخبو اخرى، واستأصل اهل الفساد، وللجند المنظم فى تلك اليد الطولى فانه لايعرف غير الفتك فى اهل الضلال ولا يراقب فى طاعة مولاه ونصرته الا ولا ذمة مع قلة عدده اذ لم يتجاوز خمسة عشر ألفا وثلاثمائة منها اثنا عشر ألف مشاة وألفان وخمسمائة خيالة ومائتان وخمسون مدفعيون تدير عشرين مدفعا للسفر وخمسمائة عبد اتخذها حرسا له تحت رئاسة سالم آغـــا الزنجى الفارس المشهور . وكانت ألبستهم من الجوخ الاحمر وسلاحهم محلى بالذهب والفضة مرصعا بالمرجان وهذا عدا أفراد الجند الشخصية . ومن حيث الشجاعة والبسالة فقد كان الواحد منه يعد بعشرة وعلى أتم ما يرام من النظام وكان ينظم له عند اللزوم من حشود المملكة وجيوشها ما تقتضيه الحال وناهيك بجند مع قلته فتح الأقفال ونفل الانفال واستوثق به للأمير ملك اقام فى مقارعة جيوش فـــرنسا ومناضلـــة الثوار والخوارج ستة عشر سنة وبذلك تشهد الاخبار والآثار ولكن لـــكل هبوب ركود وليس للايام عهود . قال شرشل المؤرخ الانجليزى ان هـــذه الاعمال كبيرة جدا بالنسبة الى سن الامير مـــع عدم اطلاعه على أحـــوال العالم كما ينبغى اذ ذاك لكنها صغيرة بالنسبة الى ذكـــاء عقله الفريـــد . ولا شك أنه لو تركت فرنسا الأمير مغتنما تلـــك الغلطة التى اقرت بها فى معاهدة تافنة لكان أظهر منه مالم يكن فى حساب حيث أن العـــاقل يندهش متى سمع ان فرنسا احتاجت الىجيش معدود من أول عساكر الدنيا تقاتل به الامير ؟ وقتل منها ما يزيد على مائة الف حتى أمكنهـــا هدم ما بناه فى نحو ثلاث سنين على انه لولا المساعدة الخارجية والداخلية لكانت احتاجت الى أكثر من ذلك ، والله غالب على أمره .

دستـــــــور وقوانـــين :

المعهود فى الملوك المسلمين منذ نهايـــة عهد الخلفاء الراشدين انهم كانوا يحكمون بمقتضى الشريعة ظاهرا ، لكنهم لم يكونوا يترددون فى تأويل بعض احكامها لصالحهم ويجدون دائما بابا شرعيا أو فتوى يبررون بها سلوكـــهم فى العقاب أو استخلاص الاموال أو التمتع بملذات الحياة أو غير ذلك .

ولكن الذى يتتبع سلوك الامير عبد القادر يجد عنده هذه الخاصية التى انقطعت منذ عهد الخلفاء . وهى الحرص على أن لا يصدر منه أى تصرف سياسى أو اجتماعى الا ويكون مطابقا لقوانين الدين فى القرآن أو السنة أو اجتهاد الفقهاء .

ومن المظاهر البارزة عند الامير عبد القادر فى احترامه للقانون الاسلامى الحى والحرص على العمل به هو اتخاذه لمجلس الشورى الذى كان يعرض عليه كل ما جل من الامور . وافســاح المجال لكل أعضائه أن يناقشوا تلك الامور بحرية . ومنها أيضا تنصيبه للحكام الذين يرتضيهم الاهالى ويعينونهم بأنفسهم . ومنها دعوته للناس فى الاسواق بأن يوجهوا اليه شكاياتهم فى كل ما عسى أن يلحقهم من الاضرار او المظالم من جانب حكامهم وأولى الامـــر منهم .

لقد كان الامير عبد القادر حريصا على تحقيق غايـــة عظيمة مزدوجة . أولا أن يرضى ضميره الدينى والوطنى لانه كان يعتبر الامارة حملا ثقيلا لـــم يجز له أن يتنصل منه لانه لم ير أليق منه فى قومه للاضطلاع به . والثانى هو اشعار الشعب برحمة الحكم الوطنى الذى حرموا منه مدة قرون حتى يتحمسوا لـــه ويدافعوا عن كرامتهم التى حققها لهـــم ذلك الحكم الشعبى النبيل .

بيجو والأمير عبد القادر

تلك هي الخطوط العامة للدولة التى انشأها الأمير عبد القادر من العدم. وانشأها فى ظروف الحرب . بل انشأها من اجل الحرب ، ولكنها حرب طويلة الامد . اذ من آيات عبقرية الامير عبد القادر انه عرف سلفا بأن المعركة بينه وبين فرنسا لن تكون سهلة أو معركة عابرة . لقد كان يعرف مقاصد دول أروبا القوية الناهضة ومطامعها فى دول افريقيا والشرق المستضعفة المتخلفة . وكان يعرفه من ناحية أخرى ان الشعب الجزائرى ليس من الشعوب التى تستسلم بسهولة للغزاة المحتلين . وان هذا الشعب سيقاوم الى النهاية واذا لم تكن مقاومته منظمة فستكون خسائره جسيمة ونتيجتها سلبية . ثم لا ننسى أن الشعب هو الذى حمل الامير عبد القادر هذا العبء الثقيل . والشعب هو الذى صمم على المقاومة . وعرف أن مقاومة دولة كبيرة مثل فرنسا غير ممكنة اذا بقيت موكولة للعشائر المتفرقة والقبائل المتنافرة واذا لم يجمع شتاتها فى قبضة « دولة » وطنية مخلصة .

وكل هذا كانت تعرفه فرنسا من ناحيتها . وبالرغم من خلافاتها الداخلية اذ ذاك ومعركتها بين الجمهوريين والملكيين الا أن كلمة الجميع كانت متفقة فى خصوص احتلال الجزائر والتوسع فى افريقيا .

عين الجنرال بيجو قائدا على الجيش الفرنسى فى وهران فى افريل ١٨٣٨ . ولكن معرفته الحربية بالأمير ترجع الى تاريخ معركة حصار تلمسان . وعندما ولى بيجو على وهران جاء بسياسة واضحة بعث بها الى الامير فى كلمتين : «اما الصلح وهو الاولى . واما الحرب الى النهاية» .
ولم يكن الأمير اقل وضوحا . ولكنه كان اكثر مهارة وانضج سياسة . كان الفرنسيون يريدون الاسراع بالاحتلال عن طريق السلم اذا امكن ، والا فمن طريق الحرب .

فالاطالة ليست فى صالحهم لأن خلافاتهم الداخلية اذا طالت قد تقضى على فكرة الاحتلال نفسها . وكانت مصلحة الامير بطبيعة الحال تقتضى سياسة مناقضة تماما . فالاطالة تعفن الوضع فى فرنسا بقدر ما تكسبه هو وقتا لتوطيد دعائم دولته الناشئة والاستمداد للحرب التى لاريب فيها .

لذلك كان جواب الامير على رسالة بيجو بأنه مستعد للسلم وانه لايطلب الا السلم « لمصلحة البلدين » . فرد بيجو على هذا الجواب باملاء شروط هى اشبه بدعوة الأمير الى الاستسلام . فرفضها الامير فى لين حتى لا يغلق الباب . ان كل يوم يمر فى سلم هو فى صالحه . وهنا اظهر الامير عبد القادر مقدرته السياسية الى جانب عبقريته الحربية وكمالــه الخلقى . فأرسل مبعوثا يهوديا الى بيجو ليقنعه بضرورة السلــم على أساس معاهــدة دى ميشال . فاقتنع بعض الشيء ولكن لا الى الحد الذى يرغب فيه الامير . فعدل الامير عبد القادر عن مخاطبته وتوجه الى رئيسه « دومريمــون » فى الجزائر العاصمة حتى يوقع خلافا بين القائدين الفرنسيين . (وفى الوقت نفسه كانت بريطانيا تحاول أن تتصل بالامير ليسلم لها المراكز الفرنسية فى الجزائر وتتولى هى اخراج فرنسا منها . ولكن الامير رفض هــذا العرض لانه يعمل على اخراج فرنسا من الجزائر واسترجاع ما احتلتــه من البلاد وليس هدفه هو بيع قطعة من البلاد لدولة اجنبية مكان أخرى .)

ووقع الخلاف فعلا بين « دوميرمون » و « بيجو » وتدخلت باريس لحسم النزاع وأعطت الكلمة الاخيرة لبيجو . فاستمر على مراسلته للامير واستمر الامير يماطله . وطالت المراسلة بين الرجلين . واتضح أن الاتفاق غــير ممكن . فخرج بيجو فى جيش كثيف يريد تلمسان . ولكن فى الطريق بــدأ يتصور اخطار الحرب . فعاد الى مراسلة الامير فى شأن الصلــح بشروط معقولة اكثر . فلم يرفضها الامير هذه المرة بل ادخل عليها تعديلات صيرتها مناسبة للمصلحة . ثم دعا مجلس شورى الدولة وعرض عليهم الامــر . فكان منهم من راى قبول الصلح . وآخرون ارتأوا استئناف الحرب . وهنا لابد لنا من أن نثبت وثيقة تعد تاريخية لانها صورة حية عن الوضع الداخلى والخارجى معا . وهى الخطاب الجامع الذى القاه السيد على ابو طالب عم الامير عبد القادر . وكان من انصار الصلح . وهذا نصه :

« ... وقــد علمتم أيهــا السادة انه لما تكاثرت المظالم وتواطأ العمال ومن وافقهم على ارتكاب المــآثم انتقم الرب تعالى منهم وعمنا ذلك معهم قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » فسلط الله علينا عدو ديننــا فتكالب على بلادنــا واستولى على مراسينا واستبــدل مساجدنا فيها بالكنائس ، وأخلاها من المدرس والدارس ، فمــرج لذلــك أهل قطرنا وضاقت بهم أرض مغربنا ، واستبدلوا القصور المشيدة بخــيام الشعر ، ومضارب الوبر ، وتفرقوا أوزاعا فى المواطن وتباينوا فى الموارد والمعاطن، وتغيرت الاحوال واشتبه الممكن بالمحال، وتوالى الحل والارتحال، وضعف الرجاء فى أن يؤوب المسافر ويعود الشارد النافر ، الى أن طالت القصة وعز ما ندفع به هذه الغصة ، ومالت شمس الاتفاق الى الأفــول وتهيأ جند التناصر والتعاضد للرواح والقفول ، فأظهر الله تعالى بلطــفه

بدر الدين ومؤيد كلمة المؤمنين ، ابن اخى هذا السيد عبد القادر بن محيى الدين فبذل جهده فى الذب عن الدين والوطن ، وكيف تذهبون الى أن عدم قبول الصلح أولى من قبوله مع علمكم بقلة الانصار والاعوان وكثرة المشاغبين والمفسدين فى الاقطار والاوطان . وحاصل ما اقول أن ما تسعون فيه ان لم ترجعوا عنه يدعكم لاجله القريب والبعيد ، وينقمه عليكم الاريب والبليد . ثم لا شك أنكم ترجعون بخسارة الدارين وفقد الراحتين وشماتة الاعداء علاوة على ذلك ولله الامر من قبل ومن بعد . »

معاهدة تافنا

حرر الامير شروطه لبيجو ، واهمها هو ان يعترف الامير بسلطة فرنسا على مدينة الجزائر ووهران والبليدة والقليعة مع مساحات قليلة تابعة لهذه المدن . وتعترف فرنسا بسلطة الامير على البقية من ولاية وهران والجزائر. وتخرج من مدينة تلمسان . وان يتمتع المسلمون فى القطاعات الفرنسية بالحرية الدينية الكاملة . وان تكون التجارة حرة للجميع . وان يلتزم الطرفان برد المجرمين وتسليمهم الى سلطتهم الشرعية . وان يتبادل الطرفان سفراء وقناصل فى اهم المدن لرعاية شؤون مواطنيه فيها وحل المشكلات التجارية .

وهذه هى المعاهدة التى تسمى معاهدة ((**تافنا**)) . وقد حررت فى شهر جوان سنة ١٨٣٨ . وحررت الوثيقة بالعربية والفرنسية وتم التوقيع عليها. ولقى بيجو صعوبة كبيرة مع دولته لهضم هذه المعاهدة ولكنه صارحهم بانه لم يكن فى استطاعته ان يتحصل على اكثر من ذلك .

« ثم طلب بيجو من الامير ان يجتمع به فأجابه الى ذلك . ووقع تعيين موضع لهذه المقابلة بين معسكر الطرفين . فركب الجنرال مصحوبا بست فرق من المشاة وفرقة من الخيالة وفرقة من المدفعية وفرقة من فرسان العرب وسار الى المحل المعين وبعده سبع ساعات عن معسكر الامير ، وثلاث ساعات عن معسكر بيجو فوصله قبل الامير وبعد مضى نحو خمس ساعات اقبلت فرسان من العرب يعتذرون عن تأخير الامير بأنه ابطأ فى الخروج لانحراف مزاجه وليس ببعيد أن يصل ثم اقبلت فرسان أخرى يطلبون من الجنرال أن يتقدم قليلا لملاقاة الامير فلم يمكنه الرجوع حتى ينال مطلبه وهو اجتماعه بالامير . وبعد أن سار نحو الساعة أشرف على جيش الامير المشتمل على خمسة عشر الف فارس قادمين بنظام عجيب وترتيب غريب فى سهل يموج بهم وتمنظرهم يفتن المعقول . وبعدهم شوهد الامير وقد احاط به نحو المائتين من رؤساء العرب راكبين على سوابق تختال بهم تيها »

المعركة السياسية :

اذا كانت معاهدة «تافنا» وما احيط به امضاؤها من مظاهر الابهة قد وضع حدا للمعركة المسلحة بصفة مؤقتة فذلك لكى يدخل الطرفان فى معركة من نوع آخر : معركة سياسية .

بل كانت المعاهدة بالنسبة للامير عبد القادر هى نفسها معركة سياسية تمكنه من كسب أقصى ما يمكن من الوقت حتى يزيد نظام دولته تدعيما ويزيد جيشه تنظيما واستعدادا ويكتل رجال شعبه حول قضية الجهاد ويقضى على خلافات العشائر هنا وهناك ويصفى صفوفه من بعض الباحثين عن مصالحهم الشخصية ولو على حساب الوطن . وقد لقى الامير فى كل ذلك عناء واظهر مقدرة تشرف الجزائر حقا .

وكانت معاهدة «تافنا» بالنسبة لبيجو فرصة تمكنه من دراسة الاحوال على مهل ومعرفة مواطن الضعف التى يستطيع ان يستغلها فى الحرب التى لا ريب فيها .

وما كاد حبر المعاهدة يجف حتى بدا الخلاف فى شأنها بين الطرفين فعين الامير عبد القادر قنصلا فى مدينة الجزائر ايطالى الاصل ومكلف فى نفس الوقت بالقنصلية الامريكية ، فرفض بيجو هذا التعيين واصر عليه الامير وجرت بين الطرفين رسائل عديدة فى هذا الشأن . وأخيرا خضع بيجو لارادة الامير عبد القادر لانه لا حق له فى التدخل فيمن يختاره الامير وكيلا له أو قنصلا . وانتهت معركة القناصل وبدأت معركة الحدود . فأخذ بيجو يخرق المعاهدة بالخروج عن الحدود التى رسمتها المعاهدة ليتوسع فى مقاطعة قسنطينة التى بقيت منطقة غير داخلة لا فى حكم الامير عبد القادر ولا فى حكم فرنسا . فحاول الامير أن يضع حدا لهذا الخرق ولكن بيجو بقى مستمرا على سياسة التوسع الى أن بلغ غايته . فعزم الامير على أن يقابل هذا الخرق بمثله . وأخذ من ناحيته يتوسع نحو الشرق ويقص الطريق على بيجو حتى استولى على الزيبان ومناطق أخرى جنوبى قسنطينة كما صعد الى الشمال فاستولى على البرج وجبال جرجرة التى كان اهلها ينتظرونه بحفاوة .

وهكذا اخذت الحالة فى التأزم من جديد . ولم تستطع المراسلات بين الامير عبد القادر وبيجو ان تحل أى مشكل . فاقترح بيجو على الامير عبد القادر ان يبعث رسولا له الى باريس لعلها تجد معه تسوية . وكان غرض بيجو من ذلك ان يجعل الامير عبد القادر يتيقن أنه لا يستطيع أن يعول على أى خلاف بين حكام باريس وممثليهم فى الجزائر . وتردد الامير فى العمل بهذا الاقتراح واستشار فيه ملك المغرب فحسنه له واوصاه

بالحيطـــة والحذر من مكايـــد العدو الذى كثيرا ما أظهر تمنعا . .
الى ان وقع اكبر خرق للمعاهدة لم يطقه الامير ، وذلك عندما خرج « الدوك دورليان» ابن ملك فرنسا من الجزائر فى قوة هائلة من الجيش ومعه بيجو قاصدا قسنطينة ومخترقا الاراضى التى تحت النفوذ الوطنى اظهارا للقوة واشعارا منهم للامير بأنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون .

وهنا لم يعد الامير يستطيع ان يتحمل أكثر من هذا ولا الراى العام فى الجزائر يقبله فكتب الى بيجو معلنا الحرب فى هذه الكلمات :

«بينما كنا معكم فى حال سلم ومعاهدة فلم نشعر الا وقد فعلتم ما ينافى ذلك وتجاوزتم الحدود المعلومة بين بلادنا وبلادكم بغير اذنى . ومررتم بابن الملك فى عساكركم الكثيرة فى بلادى من الجزائر الى قسنطينة بدون وجـــه يسوغ لكم ذلك . ولو أخبرتمونى أن ابن الملك يريد زيارة بلادنا كنت رافقته بنفسى او عينت احد خلفائى لمرافقته . فالذى يظهر لى أن القصد من فعلكم هو اظهار التعدى على حقوقى حتى اتأثر لذلك وينجر الامر الى نقــــض المعاهدة . والحال ان فعلكم هذا هو نفسه ناقض للمعاهدة مبطل لهـــا . وبناء عليه أعلن لكم اننى عزمت على استئناف الحرب وبالله المستعان . فارفعوا وكلاءكم من بلادى وانذروا قومكم المقيمين فيها والمسؤولية عليكم وحدكم» .

استئناف الحرب :

وفى يوم أول ديسمبر ١٨٣٩ بدات قوات الامير فى التحرك نحو الجهات التى توجد بها قوات فرنسية . وكانت سهول متيجة منـــذ ذلك العهد هى مركز المستعمرين والقوات التى تحميهم . واستمرت الهجومات يوما بعـــد يـــوم وكثر القتـــل والاسر فى المستعمرين الفرنسيين وطـــاردت القـــوات الجزائرية فلولهم الى بساتين العاصمة . وغنمت القوات الوطنية فى هذا الهجوم كل ما كان يملكه الفرنسيون من اسلحة وذخائر وممتلكات ثم أحرقوا كل ما لم يستطيعوا حمله لئلا يستفيد منه العدو بعد الانسحاب .

وفى يوم ٢ جانفى سنة ١٨٤٠ نشب قتال كبير فى (اربعاء بنى راشـــد من جبال زواوة بين قوات حجوط والقوات الفرنسية تكافأ فيه الطرفان . وفى الوقت نفسه نشب قتال آخر فى (بوفاريك) ظل فيه الطرفان بين مد وجزر وتكاثرت الامدادات الفرنسية للدخول الى البليدة وكانت خسائرهم كثيرة ولكنهم لم يبالوا بها وتمكنوا من دخول المدينة .

وفى يوم ٢٤ من نفس الشهر اغارت قوات خليفة معسكر على مستغانم وضواحى وهران .

وهكذا اصبحت كل نقطة يوجد فيها الفرنسيون مسرحا لقتال شديد . ولم تعد القوات الفرنسية قادرة على مواجهة الموقف ولم تجد فرنسا بدا من امدادها بقوات اخرى من العساكر والاسلحة والذخائر .

وفى يوم ٢ فيفرى خرج المريشال « فالى » من الجزائر العاصمة فى جيش عظيم يريد المدية ـــ وهى العاصمة الثانية للامير عبد القادر ـــ فقابلــه خليفة مليانة بقتال شديد كثر فيه القتلى والجرحى بين الطرفين واستمــر القتال يوما كاملا . وفى الغد عاد المريشال الفرنسى ادراجه دون أن يصل الى المدية .

وفى يوم ١٦ مارس قصد الماريشال أيضا مدينة شرشال فى جيش كبير ولم تكن شرشال من المدن التى اعتزم الامير الدفاع عنها لانها قريبة مـــن مواقع العدو . فدافع عنها الاهالى بدون انتظام وكبدوا الجيش الفرنسى خسائر لا يستهان بها ثم تمكن من احتلالها .

وفى يوم ٢ أفريل وصلت امدادات جديدة من فرنسا ووصل معها ابنـــا ملك فرنسا الدوك دومال والدوك دورليان لرفع معنويات القوات الفرنسية واشعارها بالاهتمام الذى توليه دولتهم لقضية الاحتلال . وقد قدم ابنـــا الملك ليتوليا بنفسهما محاربة الامير عبد القادر . وانضم اليهما الماريشال « فالى » وحشدوا قوات لم يسبق لهم ان استعملوها مـــن قبل من حيث الكثرة وقوة العتاد وخاصة المدافع . وخرج الجميع الى المدية . وخرج الامير من ناحيته ليقاتلهم بنفسه . والتقى الجمعان فى ثنية موزايا يوم ١١ افريل . وهو مكان اختاره الامير لوعورة مسالكه وكثرة مضائقه ونصب كمينا فى كل مضيق وكان لابد للجيش الفرنسى من أن يعبر المضيق الذى كانت تحوطـــه من الاعالى قوات الامير عبد القادر . ونشب قتـــال مرير اختلط فيه الفريقان. وتواصلت المعركة ثلاثة أيام بلياليها وصمد الفرنسيون وأظهروا عـــزما اكيدا على أن لا ينتهقر ابنـــا ملك فرنسا ـــ وكانت أقوى دولة فى العالم اذاك ـــ أمام أمير عربى لا قوة له ولا حول . وكانت القوات الفرنسية لا تتقدم خطوة الا على أشلاء القتلى والجرحى . وفى كل مرحلة تقع فى كمين جديد وتترك من القتلى والجرحى مالا يحصى . وكلما اقترب العدو من المديـــة ازدادت شدة القتال حتى اصبح الجو مظلمـــا فى النهار بالدخان والغبار ومضاء فى الليل من تكاثر اطلاق النار . وكان الامير قد اخلى المدينة من قبل ولم يدخلها الجيش الفرنسى الا وهى رماد وكان دخوله اليها فى يوم ١٨ ماى ١٨٤٠ . وبعد ان تركوا حامية فى المدينة عادوا ادراجهم الى الجزائر فعاودهم القتال من جديد والمكامن فى كل مكان . وعند وصولهم الى مضيق موزايا لغيدت المعركة باشد مما كانت . وقد وصف المؤرخون هـــذه المعركة بل المعارك فذكروا أن الاهوال التى وقعت والتى عرفها الفرنسيون

والجزائريون معا تقشعر لها الابدان . وقد قتل الــدوك دورليان فى احدى هذه المعارك .

وبعد المدية جاء دور مليانة . وكانت الامدادات الفرنسية لا تتوقف عن النزول والالتحاق بالقوات المحاربة . وكان الامير يعرف أن دور مليانة قد دقت ساعته فأخلى المدينة وخرج فى قوات كثيرة من جيشه الى ملاقـــاة الفرنسيين . وتجددت المعارك بدون هوادة . واظهر الطرفان تفانيا واستماتة عجيبة فى القتال . وفى يوم ١١ جوان دخل الفرنسيون مدينة مليانة غير مبالين بخسائرهم . وكان اعتمادهم الاساسى على الكثرة . ان فرنسا قد تمكنت من احتلال الجزائر لا بالحنكة الحربية او المقدرة السياسية او شجاعة جنودها التى لا تنكر . فقد وجدت أمامها فى كل ذلك شعبا وقائدا يقف أمامها وقفة الند للند . انها احتلت الجزائر بكثرة العدد . انها أمة يزيد عددها خمسة أضعاف الشعب الجزائرى .

وأراد الماريشال «فالى» أن يستغل هذه المعارك من ناحية الدعاية فكتب الى العشائر فى جهات مليانة يطلب منهم الاعتراف بطاعة فرنسا ويعدهم ويتوعدهم فى آن واحد . ويساوم بما وقع عنده من الاسرى من قومهم .

ومن الواجب أن نسجل هنا موقف أجدادنا المشرف أمام هذه الدعــوة وبعد كل ما قاسوه من أهوال الحرب فقد ردوا عليه بهذه الرسالة :

«الى حاكم الجزائر السلام على من اتبع الصراط المستقيم والدين القويم. قد وصلنا مكتوبك وفهمنا ما اشتمل عليه من كونك جعلــت الدعــوة الى الخضوع لدولتكم مبنية على اطلاق الاسرى منا عندكم . وقصدت بذلك أن فكهم موقوف على طاعتنا لكم . فاعلموا أن عندنا أسرى منكم وعندكم اسرى منا فان شئتم الفدى فلا بأس . وان أبيتم ذلك فان الامة الاسلامية للــه الحمد كثيرة العدد وافرة المدد . والاسرى منهم لا يزيدون فى عددكــم ولا ينقصون فى عددنا . وأما اجراء الوجه الذى ذكرتموه فان دونه خرط القتاد وسوق الاجناد . بل لا نقبل أن نسمعه وكيف خطر هذا فى افكاركم أم كيف تخيلتم أننا نخضع لكم وندخل فى طاعتكم لاجل خلاص أشخاص عددهم من الخمسين الى المائة مع دعواكم قوة الفطنة والذكاء وجودة الرأى. وان اغتررتم بأحوال بعض القبائل من كونهم لبوا دعوتكم وأسرعوا الى الدخول فى طاعتكم فما ذاك الا لضعف دينهم ومرض قلوبهم بداء النفاق واستيلاء الجهل على كبيرهم وصغيرهم . أما نحن فلسنا مثلهم ولا تروا منا بحوله تعالى وقوته الا مــا يخرج من افواه البنادق وتفعله السيوف عند التحام الصفوف لا سيما وقد اتفق الآن سائر اهل الوطن على تأييد كلمة الاسلام والذب عنها الى الدوام. والا اذا شاء خلاف ذلك فلا راد لقضائه ، وقولكم انكم ابتنيتم فى جهة بنى صالح قلاعا محصنة أردتم بها القاء الرعب فى قلوبنا فهذا لا يؤثر فينا .»

المرحلة الثانية :

هذه صورة اجمالية من المرحلة الاولى لاستئناف الحرب . كانت الجزائر تشتعل من اقصاها الى اقصاها بالمعارك والقتال المرير . واستغل القادة الفرنسيون عنف المعارك وشدتها ليستزيدوا الامدادات من فرنسا . والامدادات لا تنقطع . لقد كانت هي السلاح الذى تغلبت به فرنسا على الجزائر فى وقت كان فيه الامير عبد القادر يستنهض الهمم فى العالم الاسلامى فلايجاب الا بالدعاء الصالح . .

فى اول جانفى ١٨٤١ عزل «فالى» من منصب الحاكم العام بالجزائر وولى مكانه بيجو . ومع هذا التعيين جاءت قوات أخرى من فرنسا . وتكونت من قبلها اول قوة من الفرقة الاجنبية جمعت كل المجرمين والمغامرين من أنحاء العالم . واضافوا الى هذه القوات جنودا من الاهالى سخروهم بالقوة كما سخروا وسائل النقل الاهلية للحر بفتعطلت الاعمال واشتد الكرب بالناس وتفشت الامراض فى القوات الفرنسية وتوالت عليهم هجومات الوطنيين ليلا ونهارا حتى أن حامية مليانة التى كانت تبلغ خمسة آلاف رجل لم يبق منها الا اثنا عشر شخصا . وعرف الامير عبد القادر أن تعيين بيجو واليا على الجزائر علامة أخرى على التصميم الذى تكنه فرنسا لمواصلة الاحتلال . فكتب اليه الامير رسالة يعلمه فيها أنه على يقين من نوايا فرنسا «وأنكم جئتم الى الجزائر لقتالنا بما ينوف عن ثمانين الف جندى زيادة عن عساكركم السابقة فيها. فاعلموا اننىبعون اللهوقوته لا اخشىكثرتكم ولا أعتبرقوتكم لعلمىأنكم لا تضروننى بشىء الا أن يضرنى الله به ولا يلحقنى منكم شىء الا ما قدره الله وقضاه . واننى منذ انابنى فى هذا الامر وجعلنى ضدا لكم ما قاتلتكم بعسكر يكون عدده ثلثاً من عساكركم التى تكافحوننى بها . ومدة ملكى ثمانى سنين ومدة ملككم يتعدى مئات السنين» .

وبناء على هذه الرسالة ضاعف الامير عبد القادر نشاطه وجند كل ما يستطيع تجنيده من حدود المغرب الى حدود تونس من رجال وأموال وعتاد . ورسم بيجو من ناحيته خطة عسكرية جديدة تقضى أولا بالاستيلاء على المدن وتحصينها . ثانيا الاعتماد على الدعاية «لتفريق كلمتهم» — أى الجزائريين — ثالثا — الاستيلاء على الاراضى والممتلكات أو اتلافها بأى وجه كان حتى لا يبقى لهم مرتزق يعيشون منه . رابعا — حراسة الحدود الشرقية والغربية حتى لا يتسرب منها سلاح أو تجرى عبرها تجارة خارجية .

وفى يوم ٢٩ أفريل ١٨٤١ قصد بيجو مرة أخرى مليانة وعند اقترابه منها وجد الامير عبد القادر فى انتظاره فكانت معركة هائلة هزم فيها بيجو شر هزيمة ورجع الى الجزائر بعد أن ترك قتلاه وجرحاه وأسلحته وذخائره فى

قبضة القوات الجزائرية ثم هزم فى معركة عقبة خدو بالقرب من مستغانم . فكانت هذه الهزائم من أسوأ ما بدأ به بيجو وظيفته الجديدة كحاكم عـــام . وكان لها صدى عظيم فى باريس وفى الاوساط الفرنسية بالجزائر العاصمة . ولكن ذلك لم يزد بيجو الا تصميما على الانتقام فجهز قـــوة أخرى ـــ وكانت قواته لا تنفذ ـــ وخرج يريد ولاية معسكر فأحرق المزروعات واتلف المواشى وفتك بالسكان وارسل يهددهم ويدعوهم الى طاعة فرنسا فأجابوه بقولهم : « كان من الواجب أن ننظر الى عظمة سيدنا الامير . فانه يقاتلكم ويكبدكم المشاق العظيمة من غير كبير مدد ولا ذخائر مؤثلة ولا خـــزائن قائمة وافرة وأما انتم فان دولتكـــم قوية من الف سنة فجمعت الامـــوال الطائلة ودربت الجيوش الجرارة على الحروب . وجلبتم الينا جيوشا يزيد عددهم على عدد نفوسنا ومواشينا وشجرنا وحجرنا . ونحن والحمد لله مع قلة عددنا وقفنا فى صدوركم واذقناكم نكال الحرب مـــدة أحد عشر عاما من حين استيلائكم على مدينة الجزائر حتى يومنا هذا . ولانزال على ذلك حتى نغلب أو نغلب ويهلك كبيرنا وصغيرنا . وجميع ما أتلفتموه من محصولاتنا هذه السنـــة لا يضرنا لوجود غيره عندنا من مستغلاتنا المدخرة من سنين عديدة فان نفدت فالطرق لجلب ما نقتات به من المغرب أو المشرق مفتوحة . ومن واجبك أن تنظر فيما دخل فى يدك من الدخائر وما خرج منها فى هذه المدة فان وجدتهـــا ناقصة فبادر الى ارسال ما يسد نقصها من حجر معسكر وتراب غريس الى دولتك وبذلك تكون كبيرا فى عينها . ولو أحصيت أيها الحاكم قتلاك وأسراك ثم قابلناها بمن قتل منا وأسر لظهر لك خسرانك . هذا جوابنا فاعلمه » .

وكان هذا الجواب مجرد مثال لعشرات الرسائل التى اجاب بها الشعب فى غربى الجزائر كما فعل اخوانهم فى وسطها وشرقيها . وسجل بها موقفه العظيم من الطغاة المحتلين . وجن بيجو من جراء ذلك وتملكته حمى الفتك والتدمير واثخن فى الاهالى وملأ البلاد جنودا وعتادا . واخـــذ الامير عبـــد القادر يتحاشى الاصطدام بـــه لشدة الفرق بين عدد قواته وعـــدد القوات الفرنسية . واعتمد على سرعة التنقل من مكان الى مكان حتى يشتت قوات العدو والتى أصبحت متكالبة على الظفر به وليتمكن من ضرب كل قوة على حـــدة .

وكان فى هذه الاثناء لا يتوقف عن نشر المعلومات عن معاركه وانتصاراته . كما لا يتوقف عن انذار العالم الاسلامى بالخطر المحدق . فكتب الى الدولة العثمانية بما وصل اليه حال الوطن الذى هو جزء من ممالكها فلم ترد لـــه جوابا . وكتب الى سلطان مراكش يستدعيه للمشاركة فى القتال . وقال :

« ان اصبحت بلاد المغرب الاوسط فى يد دولة فرنسا فكيـــف تأمن على بلادك وما الذى يمنعها منها ؟ »

المرحلة الثالثة :

وهكذا أيس الامير من نصرة العالم الخارجي فى وقت استولى فيه العدو على معظم المدن الكبرى فى الجزائر . ولكن الامير لم ييأس من عزيمته ولم ييأس من روح النضال التى يعرف مبلغ تأصلها فى شعبه . فعزم على تكوين عاصمة متنقلة لا يستطيع العدو أن يدمرها بمدافعه القوية التى لا قبل للامير بها . وكان ذلك فى الايام الاخيرة من سنة ١٨٤٢ . وتتكون هذه العاصمة من عدة أنواع من القوات : منها النظامى ومنها المتطوعون . ومنها من يتولى صنع الاسلحة ومن يتولى نقل الدخيرة . ومنها الادارات المختلفة كالمجلس الاستشارى العام . ومنها أسواق التجارة . وكان كل ذلك في أحسن نظام تحت خيام رائعة التنسيق تراها من بعيد فتحسبها مدينة حافلة وكان عدد سكان هذه العاصمة الرحالة لا يقل عن مائتى الف نسمة . وتعد بحق هذه الطريقة آية فى التاريخ من آيات الصمود والايمان فى شعب صغير يقاوم أكبر دولة فى عصره . كما تعتبر طريقة فريدة فى تاريخ العواصم انبثقت عنها عبقرية الامير عبد القادر .

واستطاع الامير بهذه العاصمة ان يواصل القتال سنوات أخرى فصعد الى متيجة قلب المعسكر الاستعمارى وفتك فتكا ذريعا بالقوات الفرنسية واضرم النار فى بناءاتهم ونشر فى صفوفهم الرعب حتى لا يشعروا أن الامير قد ضعف او اعتراه الوهن وحتى لا يشعروا بالطمأنينة فى الارض التى يحتلونها بالقوة .

أما الفرنسيون فبالاضافة الى تجنيد كل قواتهم لمحاولة العثور على الامير فى تنقلاته السريعة وفى الاشتباك معه من حين لآخر فى معارك هائلة — بالاضافة الى ذلك اعتمدوا على شراء الضمائر وارشاء رؤساء العشائر ليعينوهم على مقاتلة قوات الامير . ولكن دون جدوى . لقد نجح الفرنسيون فى شىء واحد وهو تجنيد بعض الضعاف من الاهالى تحت الضغط والاكراه وامساك نسائهم واولادهم رهائن عندهم ان لم يقاتلوا الامير عبد القادر .

ومن متيجة رجع الامير الى نواحى تيارت . ومرت به وبقواته ظروف من أقسى ما يتصور المرء . فقد كانوا فى بعض الاحيان يقتاتون «البلوط» وتتمعش خيولهم من اوراق الشجر . وعثر مرة أحد الرعاة على خروف تاه عن قطيعه فجاء به الى الامير مستبشرا . فسأله الامير : هل ان كل الجنود يستطيعون ان ياكلوا مثله خرفانا أخرى ؟ فاجاب الراعى : كلا . انه الخروف الوحيد . فقال اذن هم أولى منى بأكله . وكان الوقت رمضان . وكان الجميع على صيامهم .

كذلك من أعظم الشدائد التى مرت بالامير فى سنة ١٨٤٣ هذه وقوع بيت ماله وذخائره ومكتبته فى قبضة الفرنسيين بسبب خيانة اقدم عليها شخص أسمه «عمر العيادى» فقتلوا كل حراسها ونهبوها نهبا فكان الجنـــــود الفرنسيون يقتسمون الذهب والفضة ببرانيطهم .

وفى احدى المعارك جنوبى معسكر تكاثرت قوات العدو وكان يبـــــاشر القتال بنفسه فقتل جواده . وكان معه مائة جندى فرنسى من الاسرى الذين كان يحسن معاملتهم واسلموا اسلاما حقيقيا فأحاطوا به ودافعوا عنه الى آخر فرد منهم . وظن جنود الامير أنه هو ايضا قد قتل فى هذه المعركة . وبعد انتهائها خرجت شقيقته الى الجنود تسليهم وتقوى معنوياتهم . وبينما هم فى حزنهم اذ خرج عليهم الامير على صهوة جواد آخر . فانقلب حزنهم سرورا . ومن أشد الضربات التى أثرت فى الامير فى هذه السنة استشهاد قــــائده المشهور البطل «محمد بن علال» .

ولكن اثر كل ضربة من هذه الضربات كان الامير يعيد تنظيم جيشه ولا يستسلم للغدر . فقد كانت أعصابه اقوى من الجبال . ومما زاد فى ايمانه بدون شكشدة تقواه وقوة ايمانه بالله. حتى ان ما يكابده فى النهار منمشاق الاسفار والرحلات والحروب لم ينقص شيئا من عادته فى قضاء الليل كله يتعبد الى صلاة الفجر ثم ينام الى طلوع الصبح .

ثم أعاد تنظيم جيشه كالعادة وتصدى للقوات الفرنسية فى جهة الغزوات فأبادهم فى معركة ساحقة واستولى على ذخائرها وعتادها الحربى . ثم تصدى لفرقة أخرى كانت تحمل مؤونة عظيمة لنواحى تلمسان وكانت لا تقل عن ستمائة جندى فرنسى استسلمت كلها لجيش الامير واستولى على أسلحتها التى كانت هامة جدا استرجع بها الامير ما فقده فى بيت ماله التى استولى عليها الفرنسيون فى تيارت وقويت معنويات الوطنيين بذلك وكتب الامـــــير الى خلفائه فى الجهات الشرقية يخبرهم بأن ما استولى عليه من الاسلحة والذخائر سيمكنه من مواصلة القتال ويرفع معنوياتهم بالانتصارات التـــى احرز عليها فى الغزوات ويقول : «فاننا قد حصدناهم فى هذه الواقعـــــة حصدا . ولم ينج منهم احد . والذى نأمركم به ونؤكد عليكم فيه هـــو أن تجمعوا جيوشكم وتتفقدوا أمورهم . وتنقضوا على العدو فى نواحيكـــم وانهاكم عن تخريب الديار فان ذلك مما يؤذى أهلها ويكون سببا فى تأخرهم عن الطاعة .»

وبعث الفرنسيون من جهتهم يطلبون النجدات من باريس . وأخـــــذوا يشددون على الاهالى وينتقمون منهم ويفتكون بهم لبقائهم على الولاء لقضية وطنهم واعانتهم لامير بلادهم فكانوا يحشرون السكـــان فى غيران مظلمـــــة ويشعلون النيران فى افواهها حتى يموت من فيها اختناقا . ولكن ذلك لـــم

ينقص من حدة المعارك التى كثيرا ما ينهزم فيها الفرنسيون لان الامير لا يضرب الا حين يتأكد أن كسب المعركة الى جانبه حرصا على ما تبقى لديه من جنود ومعدات ومؤونة . وبقى يعتمد بالخصوص على سرعة التنقل حتى أنه يمسى فى مكان ويصبح فى مكان آخر . فكان الفرنسيون يتوقعونه فى كل مكان وفى كل وقت . فبينما كانوا يبحثون عنه فى نواحى نهر « الشلف » حيث جرت بينه وبينهم معارك طاحنة اذ ظهر فى جبال جرجرة واجتمعت لديه قبائل زواوة مستعدين للجهاد فانتخب منهم خمسة آلاف فارس واكتسح بهم متيجة مرة أخرى ففر الفرنسيون الى مدينة الجزائر . وتابع سيره الى نواحى المدية ثم عاد الى جرجرة ثم الى دلس حيث تابع هجوماته على الفرنسيين وملأ قلوبهم رعبا حتى وصل جبال عمور عند أولاد نائل . وكل هذه التنقلات كانت مصحوبة بمعارك مسترسلة .

وفى كل هذه الحروب كان يستولى على غنائم هامة وعلى عدد كبير من الاسرى الفرنسيين فيحسن معاملتهم كالعادة . وكانت أمه هى التى تعتنى بالنساء الاسيرات . وتحرص على أن تكون خيمتهن دائما ملاصقة لخيمتها . وكان الامير كثيرا ما يطلق الاسرى الفرنسيين بدون مقابل لان شهامته تأبى عليه ان يقتلهم بدون دفاع عن أنفسهم . ولانهم يقومون له بدعاية واسعة فى اوساط الجنود . وكان يعفيهم من العمل يوم الاحد احتراما لشعورهم الدينى وتقاليدهم . وكانت العادة فى حروب ذلك العهد ان من يأتى براس أسير يجازى . اما الامير عبد القادر فقد كان من يأتيه براس اسير يجلده أمام العموم . وأتاه مرة أحد الجنود بأربع أسيرات فرنسيات . فأشاح عنه بوجهه وقال : ما هذا صيد الاسود .

وذاعت عنه هذه الشهامة فى كل ارجاء أروبا ولهم عليها تآليف عديدة. وظل الامير على سياسة التنقل شرقا وغربا وجنوبا وشمالا يواصل الكفاح دون كلل. وظلت فرنسا تقتفى آثاره بقواتها الجرارة التى كلما افنى منها الامير آلافا قدمت مكانها آلاف مضاعفة .

ومن الابطال الذين فقدوا قوتهم فى هذه السنة ــ ١٨٤٧ ــ السيد احمد بن سالم فى نواحى سور الغزلان . وهو من الابطال الجزائريين العظام الذين كبدوا الغزاة الفرنسيين خسائر كبيرة . وكان من خلفاء الامير عبد القادر ، وباستسلام احمد بن سالم الى الفرنسيين فى سور الغزلان واستسلام «بومعزة» من قبله فى «تاكدامت» بالقرب من تيارت ضعف شأن المقاومة فى الوسط الجزائرى . وبقى الامير عبد القادر وحده فى الميدان . وكان لاستسلام هذين البطلين تأثير عظيم على معنويات الشعب . واغتنم بيجو هذا الانتصار فاكتسح بجيوشه جبال جرجرة وانتقم من الاهالى

انتقاما وحشيا لما لاقاه من بطولتهم القومية . ثم نزل نحو الجنوب فاكتسح سطيف والزيبان وبسكرة وجبال عمور . وفى كل هذه المناطق لاقى مقاومة عنيدة ولكنه تغلب عليها بكثرة جيوشه ولقلة ما بقى فى يد الشعب من امكانيات المقاومة . ثم واصل استغلال انتصاراته الى النهاية فبعث الى عشائر الحدود المغربية ينذرهم ويتوعدهم اذا لم يتوقفوا عن مساندة الامير عبد القادر ويقول : «لقد كان الشرط بيننا وبين صديقنا المعظم مولاى عبد الرحمن أن لا يبقى الامير عبد القادر بين ايالتكم وايالتنا وان لا يقبلوه فى ارضكم . والآن نرى أن الامير عبد القادر قد قرب منكم مرة أخرى تمدونه بالخيل والرجال فأما أن تكون قد عصيتم امر السلطان واذن فليس لنا كلام مع السلطان المذكور . وأما ان يكون تصرفكم باتفاق مع السلطان واذن فهو عدونا . ومهما يكن من أمر فاننا نذكر بخراب دياركم» .

ثم عاد بيجو الى الجزائر وأعطى أوامره لقائد القوات الفرنسية فى وهران لكى يزحف على الحدود الغربية . وبعث الى دولته يخبرها بانتهاء المقاومة الجزائرية ويطلب ان تعفيه من اعماله لشدة ما لحقه من المتاعب. وقد كان الامير عبد القادر يسميه «الاسد الهرم» لشيخوخته وصبره على المكاره . وفى يوم ٤ ماى سنة ١٨٤٧ غادر الجزائر الى فرنسا طلبا للراحة بعد أن أباد نصف شعب صغير بقوة اكبر دولة لا فى أوربا فحسب بل فى العالم بأسره .

أما السلطان عبد الرحمن ملك المغرب فقد اشتد عليه ضغط الفرنسيين وصار يرسل الجيوش تلو الجيوش لمقاومة الامير عبد القادر على الحدود والامير يتحاشى مقاتلتهم ما استطاع استعظاما منه لسفك دماء المسلمين ولكنه اضطر فى النهاية لمقاتلتهم ووقعت حروب طاحنة مؤسفة بين الاشقاء . ولم تعد للجهاد عندئذ حلاوة عند الامير عبد القادر

بعد أن وجد نفسه يقاتل بنى ملته ودينه فجمع من بقى من اعضاء المجلس وخطب فيهم خطابا مؤثرا قال فيه : «يا قوم .. ان الاحوال كما ترون والاخبار على ما تسمعون . ولقد اجهدت نفسى فى الذب على الدين والبلاد وبذلت وسعى فى راحة بنى وطنى . واقتحمت المهالك وغصن شبابى رطيب . واقمت على ذلك ما يزيد على سبع عشر سنة الى ان فقدت المعاضد والمساعد وفنى الطارف من أموالى والتالد ودبت الى من بنى دينى الافاعى ، فسبحان من لا يكيده كائد ولا يبيد ملكه وكل شىء بائد» .

ثم تشاور المجلس فيما ينبغى عمله بعد ان ادى الشعب وقائده كل جزئية من جزئيات الواجب الوطنى ولم يتركوا وسيلة حربية أو سياسية الا ضحوا بها فى سبيل كرامة بلادهم وبعد أن فقدوا كل شىء الا الشرف .. فقرروا ارسال وفد الى الجنرال لاموريسيير يفاوضه بشأن استسلام

الامير ، فاهتز الجنرال الفرنسي فرحا لذلك وتناول ورقة بيضاء فوضع عليها طابعه وارسلها الى الامير ليكتب عليها ما يشاء من الشروط .وسمع الدوق «دومال» ابن ملك فرنسا — وكان واليا على الجزائر — فركب البحر واسرع لملاقاة الامير شخصيا . وظلت المفاوضة بين الجانب الفرنسي والامير عبد القادر بواسطة الرسل والوفود مستمرة ثلاثة أيام . اذ كان الامير على جانب كبير من التربص والتأني بالرغم من أنه لم يبق له شيء الا سمعته التى تملأ قلوب الاعداء قبل الاصدقاء مما جعل الفرنسيين يقابلون الامير بحفاوة لا نظير لها واحترام واحترام لا مزيد عليه ولكن خبر الاستسلام أحدث هزة فى الشعب انسته كل ما قاسى من الكوارث حتى كانت المنادب فى وهران لا تنقطع ليلا ونهارا . وحاولت السلطات الفرنسية ان تمنع الناس من ذلك ولكن الجنرال لامور يسيير قال لهم : «دعوهم يبكون فان عزهم وعزنا قد ذهبا» . وهكذا انتهت مقاومة الامير عبد القادر بانتهاء آخر يوم من سنة ١٨٤٧ ولكنه ظل فى فرنسا ينتظر اربع سنوات حتى برت فرنسا بوعدها فى نقله الى ارض المشرق . فقد حاولت انتجعل منه حليفها وصديقها . واطالت عليه المدة حتى يستكين لذلك ولكنه كان يعتبر كل يوم قضاه فى فرنسا يوم سجن . ومما زاد فى تماطل الفرنسيين هو اضطراب أحوالهم السياسية ، وفى سنة ١٨٥٢ تولى نابليون الثالث الحكم فاطلق سراح الامير بعد ان أكرمه واعتذر له . فرحل الى تركيا ثم الى دمشق حيث كان له تاريخ آخر فى مذبحة دمشق التى حما فيها العرب المسيحيين فزاد ذلك من سمعته فى العالم وارسل له رؤساء الدول «نياشين» فاخرة على شهامته المتأصلة . وفى دمشق قضى بقية حياته الى أن توفى سنة ١٨٨٣ وعمره ٧٦ عاما .

استمرار المقاومة بعد عبد القادر

قضت فرنسا على « دولة » الامير عبد القادر كدولة . ولكنها لم تقض على مقاومة الشعب الجزائرى التي بقيت مستمرة — ولو بصورة متقطعة — الى أن ظهرت الحركة الوطنية فى الجزائر ، كما ظهرت فى كل الاقطار المستعمرة بعد الحرب العالمية الاولى . وبعبارة أخرى ان الشعب لم يتوقف عن الكفاح ضد الاحتلال الفرنسى فى منطقة الا ليبداه فى منطقة أخرى . ولا يوقفه فى مرحلة من التاريخ الا ليستأنفه فى مرحلة غيرها . ولا يعدل عن صيغة من صيغ النضال الا ليستبدله بصيغة أخرى .

وقد راينا فى الفصل السابق مبلغ النضال المرير الذى خاضته دولة الامير عبد القادر وابرزنا مسألة كثرة الجيش الفرنسى الذى بلغ من العدد مالم يعد للجزائريين احتمال على مغالبته . ولم نذكر الا قليلا عن وسيلة اخرى اعانت الجيش الفرنسى على القضاء على دولتنا الناشئة . وهى وسيلة الابادة التى لجأ اليها الفرنسيون والتى اظهرت من ناحية مبلغ تمسك الجزائريين باستقلالهم . ومن ناحية أخرى مبلغ التوحش التى ارتكبته دولة جاءت لتمدننا . وبقدر ما حاول الامير عبد القادر تنظيم الحياة الاقتصادية باعتبارها مورد الكفاح بقدر ما تكالب الفرنسيون على تحطيمها لنفس الغرض .

ان التاريخ لم يذكر ان دولة استعمارية استعملت من القوات العسكرية ما استعملته فرنسا عند احتلال الجزائر . ولكن ذلك لم يمنع مقاومة الشعب من التواصل والاستمرار بعد الامير عبد القادر . ولقد ظلت الجزائر من جراء التخريب الفرنسى المنظم تعانى منه تدهورا فى الاقتصاد الاهلى ونقصا فى عدد السكان بسبب المجازر المتوالية والمجاعات والاوبئة التى أعقبت الحروب المتسلسلة .

فعندما عمد ملك فرنسا « لوى فيليب » الى ارسال بيجو الى الجزائر مكان « فالى » فى ديسمبر ١٨٤٠ زوده بتعليمات تقضى بمضاعفة عمليات النهب والابادة والتدمير . لقد كانت حربهم موجهة ضد « النساء والمواشى » كما قال الجنرال « ميشال » . وكانوا يحتلون المدن فلا يتركونها الا والنار تلتهمها كما قال الجنرال « كلوزيل » . ويدمرون «احياء المدن واهلها احياء» كما قال « سانت أرنو » « ويصطادون العرب اصطيادا من مخابئهم وينهبون

كل ما يملكون وخاصة الاطفال والنساء والمواشى » ، كما قال «مونتانياك»
ويشهد الجنرال لاموريسيير « بالتخريب ؟ التخريب ؟ ياله من عمل محزن
عند ما نتصور الوسائل المتواضعة التى كانت للامير عبد القادر — هذا
الرجل العجيب — . » ويفتخر سانت آرنو أيضا « بأن الشىء الذى لا نقتصد
فيه هو احراق الدواوير والمدن والقرى والديار والاشجار . » وبقيت
« آذان النساء مدة طويلة تباع بعشر فرنكات » ، كما افتخر جندى فرنسى
كتب الى أهله يحدثهم عن « برميل من الآذان التى تطفناها زوجا زوجا » .
والكولونيل بيليسياى يعطى أوامره « باشعال النار فى الفيران حتى يختنق
بالدخان من يهرب اليها » . امـا مونتانياك فقد كانت تعليماته كما يلى :
« كل السكان الذين لا يقبلون سلطتنا يجب حصدهم . وكل شىء يجب أن
ينهب وكل حى يجب أن يقتل بقطع النظر عن كونه ذكرا أو أنثى صغيرا أو
كبيرا » . وعندما « يشعر بالقلق يتسلى بقطع الرؤوس » . وعندما سئل
احد الضباط ؟ ماذا يصنعون بالنساء ؟ اجاب : « نمسك بعضهن رهائن حتى
لا يخوننا رجالهم . ونعوض بعضهن الآخر بالخيول . ونبيع الباقى لمن يريد
ان يشترى » .

ويتحدث آخر مبتهجا : « نقتل ، نذبح . ونمعم بصراخ الجرحى وأنين
المحتضرين عند ما يكون كل ذلك مختلطا بصهيل الخيل ورغاء الابل » .

وهذه بعض أمثلة من الارقام على مدى التخريب الاقتصادى الذى قام به
جيش الاحتلال باقلام رجاله واعترافهم :

فى سنة ١٨٤٦ : « كنا نرى قواتنا تعود بأعداد هامة من الاغنام
والمواشى » وعند قبيلة فى جنوب المدية وحدها « أخذنا فى عملية واحدة
٥٠٠ رأس من الغنم و ٣٥٠ ثورا و ٢٥٠ جملا » .

وفى جبل عمور : « فى ظرف ثلاثة أيام فقط سقنا أمامنا ٣٠٠ ثور و ٧٠٠
شاة وفى نواحى تلمسان : « عدنا بـ ٧٠٠ ثور و ٢٠٠٠ رأس من الغنم و ٣٠٠
من الابل ثم بعد أيام قليلة أعدنا الكرة فى نفس المكان وجئنا بـ ١٠٠٠ ثور
و ١٥ الف شاة » وجنوبى هذه المنطقة « عاقبنا القبائل التى أعانت الامير
بأربعة آلاف شاة فى سنة ١٨٤٦ . وفى السنة الموالية ارتفعت العقوبة الى
٣٣٥ الف شاة و ٥٠٠ من الابل وعدد من الخيام والخيل . » وفى جبال
النمامشة فى الاوراس وفى نفس السنة تمت عمليات مماثلة

عودة الى مقاومة الوسط الجزائرى :

قلنا ان المقاومة الجزائرية لم تنته بانتهاء حرب الامير عبد القادر .
ويجب ان نضيف ان الجزائر لم تفتح بعد كل ابوابها للغزاة المحتلين .

فبالاضافة الى الصحراء التى لم يصبح احتلالها فعليا الا فى أوائل القرن العشرين ، بقيت منطقة القبائل الكبرى محتفظة باستقلالها بعد انتهاء مقاومة الامير ، وبقيت قائمة فى وجه التسرب الاستعمارى من متيجة الى سكيكدة . ولم تستطع دولة الاستعمار الكبرى ان تخرق هذه الحواجز الا بنفس الثمن الذى كبدته للشعب فى بقية المناطق وهو الخراب والتحطيم والابادة .

فمن سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٨٥٠ – وكان عهد الجمهورية الفرنسية الثانية – واجهت فرنسا فى الجزائر ثورات متصلة وقابلتها بنفس الاساليب المتوحشة التى كانت تستعملها الملكية . فواجهت ثورة اولاد سيدى الشيخ وثورة الاوراس والزيبان وزواغة شمال قسنطينة وجبال زواوة بنفس الاساليب الوحشية التى اصبحت سنة فرنسية منذ اللحظة الاولى التى وطئت فيها أقدام جنودها هذه الارض المجاهدة . ففى يوم واحد وفى عملية واحدة أحرقت سنة ١٨٤٨ ، ١٣٠ خيمة فى نواحى تلمسان بعد أن ابادت كل حى فيها . وفى نواحى الزيبان والاوراس حيث وجدت مقاومة شديدة من الشعب وبعد هجومات متعددة فشلت فيها على السكان تمكنت فى النهاية من تدمير الديار التى دافع عنها سكانها دارا دارا . وكل سكانها كان مصيرهم الاعدام .

وفى سنة ١٨٤٨ وبعد نهاية مقاومة ابن سالم فى جبال جرجرة لم تتمكن فرنسا من اختراق البلاد الا بواسطة النزول من البحر . وفى سنة ١٨٤٧ قامت «الصومام» بانتفاضة رهيبة لم تخمدها فرنسا الا بحرق المحصولات وابادة المواشى وتشريد السكان بالمدافع .

وابتداء من سنة ١٨٥١ جاء دور القبائل الصغرى فى الابادة على يد سانت آرنو الذى كان لا يخوض معركة الاهالى الا اذا تحقق من تفوق عدد جنوده تفوقا كبيرا . فأشعل قرى الساحل وقتل كل من التجأ اليها . وأحرق بنى ميمون فى ماى من السنة المذكورة . كما اشعل النار فى قرى بنى عمران التى تزيد على خمسين قرية بما فيها من بساتين واشجار . وهذا ما فعله فى مقاومة بوبغلة فى نواحى قرقور وقلعة بنى عباس وبو سلام وبنى يمل .

ولكن كل هذه الاكتساحات لم تمس روح المقاومة بشىء عند سكان القبائل الكبرى فأعاد الفرنسيون الكرة بنفس الطريقة فى السنة الموالية . بل بقيت بعض القرى الصغيرة فى جبال زواوة تقاوم طيلة خمسة أعوام بلا انقطاع . وفى كل عام تمر الفيالق الفرنسية على تلك الاراضى فتتركها خرابا ولكنها لم تقض على المقاومة نهائيا الا بعد ان قضت على كل ما يسد الرمق . وبالاضافة الى هذا التخريب اقامت القوات الفرنسية حصارا

حقيقيا على منطقة القبائل الكبرى كلها وحرمت اقامة الاسواق فى كل جهة استطاعت ان تفعل فيها ذلك حتى تنتشر المجاعة المنظمة . ولكن المجاعة هنا لم تأت بالنتيجة المرجوة فقد ادت الى تنظيم مقاومة فى صيف ١٨٥٤ انتظم فيها ما لا يقل عن ١٢ الف رجل لاقى معهم رجال الاحتلال اهوالا قاسية . واستعمل معهم المستعمرون ما اعترفوا به فيما بعد من «تحطيم كل المساكن والقضاء على كل الاشجار المثمرة من التين والزيتون» . (١)

وبعد أن همدت المقاومة سنة واحدة هبت من جديد فى جبال البابور وفى سنة ١٨٥٦ قذفت فرنسا هذه المنطقة بفيلقين اثنين مجهزين بالاسلحة الفتاكة لمواجهة المعارك الطاحنة المتجددة . ثم تكاثرت هذه القوات حتى بلغت سنة ١٨٥٧ ما ينوف على ٢٥ الف جندى . وكانت المعارك دامية وكل معركة لا بد أن تتبعها حرائق فى القرى والمزارع .

وكلما تقدمت خطى الاستعمار فى ارض القبائل الكبرى او الصغرى تبعها التفقير المنظم . وفى سنة ١٨٥٢ بدات هذه الجائحة تنزل نحو الجنوب .

وما كادت تخف اعمال المقاومة بعض الشىء فى سنة ١٨٥٨ ببلاد القبائل الكبرى حتى جاء دور اوراس . وفى سنة ١٨٦١ كان دور توات والشعانبه . وفى كل هذه السنوات لا يمر عام دون أن تشتعل فيه النار فى هذه الناحية أو تلك من القطر الجزائرى الواسع . الى ان جاءت سنة ١٨٦٤ فاندلعت ثورة أولاد سيدى الشيخ فى جنوب وهران ثم اتسعت رقعتها شيئا فشيئا . وكان اندلاعها فى الربيع ، فما جاء الخريف حتىبلغت التل الوهرانى ثم انساحت نحو الشرق الى مقاطعة قسنطينة . فجندت لها فرنسا ٩٣ الف جندى ظلت تدمر وتحرق الى سنة ١٨٦٥م منسطيف الى وهران وصحرائها . وصحب هذه الحرب بطبيعة الحال اشعال النار التى بقيت تلتهم واحات أولاد سيدى الشيخ وحدها يومين كاملين .يضاف الى ذلك غرامات الاضرار التى حصلت للجيش الفرنسى : عشرات الآلاف من الاغنام والابل والخيل . وردم الآبار وتخريب مجارى المياه .

وهكذا تحصلت فرنسا على ما كانت تظنه سلما وهدوءا أبديا فى الجزائر ، وان كان نسبيا جدا . لان المقاومة فى صحراء وهران لم تتوقف نهائيا حتى ادركتها ثورة ١٨٧١ فزادتها اشتعالا .

---

(١) احتلال الجزائر — الكولونيل آزان.

ثـورة ١٨٧١

تعتبر ثورة ١٨٧١ آخر ثورة عامة فى الجزائر كلها لم تشهد الجزائر لها مثيلا بعد الاحتلال الا فى غرة نوفمبر ١٩٥٤ .

واذا كانت اعمال المقاومة المتفرقة بعد الامير عبد القادر قد جـــرت لمدافعة اكتساح العدو او للدفاع عن أرض يريد الفرنسيون اغتصابهـــا من الشعب لفائدة المعمرين الاوربين فان ثورة ١٨٧١ يجب أن نضعها فى مصاف ثورة الامير عبد القادر وثورة اول نوفمبر باعتبارها مشبعـــة بالاسباب السياسية .

من أول هذه الاسباب أن الشعب قد كون فكرة لم يعد ينقصها الوضوح عما ينتظره من مصير على يد الاستعمار الفرنسى بحيث كانت القلوب مفعمة بالغيظ منتظرة اول فرصة للانقضاض على المستعمرين .

ثانيها هزيمة فرنسا أمام الالمان فى حرب السبعين التى رأى فيهـــا الشعب تلك الفرصة الثمينة التى ينتظرها .

ثالثها انحطاط هيبة فرنسا من جراء هذه الهزيمة من ناحية ، ومن القلاقل الداخلية التى كانت تنهش جسم فرنسا من ناحية أخـــرى . ففى ظرف عام واحد من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٧١ سقطت فى فرنسا خمس حكومات متوالية . ومن هذه الاسباب أيضا قانون ٢٤ أكتوبر الذى يمنح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر بدون استثناء حتى قال المقرانى عن هذا القانون : «لا خير فى دولة يفعل فيها يهودى ما يشاء» . وهو يقصد كريميو النائب اليهودى الذى تحصل على قانون الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر من الحكومة الفرنسية .

والسبب الذى لعب دورا حاسما فى هذه الثورة هو عمليات التجنيد التى قامت بها فرنسا لارسال الجزائريين الى واجهـــة القتال ضد المانيـــا والتى أثارت سخطـــا عاما فى جميع الاوساط الجزائرية مـــن أقصى البـــلاد الى اقصاها .

واذا كانت ثورة ١٨٧١ تعرف بثورة المقرانى الذى تزعمها حقبة من الزمن فان اصلها فى الواقع كان شعبيا بحتا ، وكان فضل المقرانى ان انضم اليها

وقادها وضحى فى سبيلها بأمواله الكثيرة ومنصبه الوجيه اذ كان (باش آغا) وضحى فيها أخيرا بحياته .

فقبل أن تمضي فرنسا وثيقة الاستسلام لالمانيا بأيام قليلة وكانت ماضية فى تجنيد الجزائريين – تمرد على الضباط الفرنسيين نفر من الجند الجزائريين فى نواحى سوق هراس وانضم اليهم الاهالى وشنوا هجوما على المدينة المذكورة . ثم امتدت الاضطرابات شيئا فشيئا الى الساحل ثم أخذت طريقها نحو الغرب فاجتاحت منطقة القبائل الصغرى ثم القبائل الكبرى ثم غزت عمالة الجزائر حتى بلغت مناطق أولاد سيدى الشيخ الذين لم تخب عندهم الثورة تماما منذ سنة ١٨٦٦ . ويجب أن نلاحظ أن كل هذه المناطق قد تضررت ضررا بالغا من الاحتلال . وكان انتشارها بهذا الاتساع فى عصر لم تكن فيه المواصلات متوفرة بين اجزاء واسعة كبيرة مثل الجزائر – هو وحده يفسر لنا مبلغ حقد الجزائريين على الاستعمار الفرنسي وتربصهم به الدوائر فى كل حين .

كما لعبت الزاوية الرحامنية فى ثورة ١٨٧١ دورا عظيم الاهمية بغاية التكتم والعمل الصامت المنظم كاغتيال القياد الموالين لفرنسا وامداد خلايا المقاومة السرية . وكانت أعمالها وتأثيرها يشمل كل مقاطعة قسنطينة من تبسة وسوق هراس وبلاد القبائل الصغرى الى القبائل الكبرى الى نواحى متيجة . وانتشرت واشتدت فى هذه المناطق كلها . وجرت معارك طاحنة فى الاخضرية (باليسترو) والعلمة ودللس وبورج بوعريريج موطن الحاج المقرانى وبرج منايل والواد الكبير واربعاء بنى ايراثن وتزى وزو الى آخره. واذا كان الحاج المقرانى قد استشهد بعد شهرين فقط من الجهاد (ماى ١٨٧١) فان الثورة بعده قد استمرت متزايدة مكتسحة حتى اصبحت بيدها المراقبة الحقيقية فى البلاد . فانجلى الفرنسيون عن القبائل الصغرى والكبرى ، وعن نجود قسنطينة والاوراس باستثناء باتنة وسطيف وعن فيافى الحضنة وعن مسيلة وبوسعادة التى استقبلت بومزراك مقرانى شقيق الحاج المقرانى الذى تولى قيادة الثورة مكانه . كما انجلوا عن جبال زكار بالقرب من مليانة حيث انضم الى الحركة بنو مناصر واصبحوا يهددون الخط الحديدى الرابط بين الجزائر ووهران . ثم جاء دور المدن فحاصر الوطنيون مدن بجاية وجيجل وشرشال واربعاء بنى ايراثن .

وهكذا استمرت الثورة عامة فى الجزائر باستثناء شمال مقاطعة وهران طيلة عام ١٨٧١ . واستعملت فيها فرنسا اقصى ما لديها من قوات بعد أن استسلمت أمام المانيا وجلبت قواتها لمقاومة الثورة التى انتهت فى أواخر جانفى سنة ١٨٧٢ . كما بدأت فى جانفى من العام السابق .

ولكن هل استكان هذا الشعب العجيب بعد ثورة ١٨٧١ ؟

لقد قامت بعدها ثورة أخرى فى اولاد سيدى الشيخ جنوب وهران سنة ١٨٨١ . وكان يقودها البطل بوعمامة . ثم قامت ثورة سنة ١٩١٦ فى الاوراس سببها أيضا رفض التجنيد فى الحرب العالمية الاولى . وبتوالى هذه الثورات كانت الاسباب السياسية فيها تزداد وضوحا فى الفكر الشعبى الى ان تمخضت بعد الحرب العالمية الاولى عن اختمار حركة سياسية واضحة وتبلورت فى نشوء حركة الامير خالد التى دخلت طور الانتخابات والجهود السياسية البحتة . أى أن الجهاد المسلح لم يفتر حتى سلم القياد للجهاد السياسى الذى استغرق بدوره طيلة فترة ما بين الحربين العالميتين . ثم استعاد بعدها الكفاح المسلح حقه فى الكلام من جديد فى ثورة أول نوفمبر الخالدة .

المقاومة فى الصحراء :

عندما انتهت ثورة ١٨٧١ لم تكن مناطق الصحراء بكرا بعيدة عن تلوثات الاستعمار بل كانت تمر عليها من حين لآخر سحابات كالجراد من قوات الاحتلال وهى تتعقب آثار المقاومين الآتين من الشمال . كما كان سكان الصحراء من ناحية أخرى يشاركون فى أعمال المقاومة التى تجرى فى الشمال فقد شارك مثلا من مزاب وحدها أربعة آلاف رجل فى الدفاع عن العاصمة سنة ١٨٣٠ . وكان أولاد سيدى الشيخ يجوبون أطرافا واسعة فى ثورتهم تمتد من جبال القصور شرقا الى جبل العرق الكبير غربا وكانت مناطق أولاد نائل — كما مر بنا فى حرب الامير عبد القادر على الخصوص — مسرحا لكثير من المعارك . وكذلك مناطق الهقار وعين صالح وتوات والشعانبة كانت كلها منذ أيام الحكم التركى تابعة لحكم الجزائر العاصمة وكانت كل مناطق الصحراء ذات علاقات تجارية زاهرة مع افريقيا السوداء . وزادت أعمال المقاومة والحروب بين القوات الوطنية والقوات الفرنسية فى تمتين هذه الوحدة بين الشمال والجنوب . لان كلا من الطرفين كان عمل على توثيق هذه الوحدة لمصلحته : فالصحراء كانت تدافع مع الشمال تضامنا ودفعا للخطر الاجنبى . وفرنسا كانت تريد أن تضع يدها على الصحراء — بعد الشمال — حتى تراقب التجارة مع افريقيا السوداء عبر مناطق الصحراء .

ومنذ سنة ١٨٤٥ كان الماريشال سول قد بعث بتقرير الى الملك «لوى فيليب» عن أهداف احتلال الصحراء . وقال فى هذا التقرير : «ان الصحراء الجزائرية أو بعبارة أخرى كل المناطق الواقعة جنوبى التل الجزائرى يجب أن تشكل نوعا ثالثا من المناطق الادارية اذ لا يمكن توطين أروبيين فى هذه المناطق . وحتى الجيش لا يدخلها الا بصورة متقطعة اما لاقرار الامن أو

لتهيئة الظروف التجارية المناسبة التى تفتح لنا طرقا هامة نحو افريقيا السوداء . وسيكون حكامها من رؤساء القبائل والعشائر التى يكون تعيينهم باسم جلالتكم» .

وقد بدأ الاحتلال الفرنسى يتسرب الى مناطق الصحراء بصورة ثابتة بواسطة بعثات تجارية ولا يتدخل الجيش الا عندما تصطدم هذه البعثات بمناهضة شديدة من طرف السكان . ولكن عندما تتدخل القوات الفرنسية تزداد معارضة السكان شدة خصوصا وان نفوذ الامير عبد القادر بواسطة خلفائه كان يمتد الى واد ريغ وبسكرة والاغواط شرقا . والى حدود المغرب غربا . وكانت كل هذه المناطق تدفع الزكاة للامير عبد القادر .

وترجع المحاولات الاولى لتسرب الاستعمار الفرنسى فى مناطق الصحراء الى أيام حرب الامير عبد القادر . بحيث وقع الاحتلال للاغواط وواد سوف وتقرت وبسكرة سنة ١٨٤٤ و ١٨٤٥ . ثم ازدادت مساهمة الصحراء فى كل الحروب التى قام بها الوطنيون شمالا . وعندما قامت فرنسا بمجازر القبائل الصغرى والاوراس ثارت جبال الحضنة والزيبان مؤيدين من طرف وادى ميزاب .

وكانت مقاومة الصحراء عنيفة طاحنة لم تتردد القوات الفرنسية فى مواجهتها بوسائل الابادة كما فعلت فى الشمال وخاصة فى احتلال الزعاطشة وبوسعادة ١٨٤٩ والاغواط سنة ١٨٥٢ حيث قاوم السكان ودافعوا عن شوارع مدينتهم شارعا شارعا وبساتينهم واحدا واحدا .

وعندما ثار أولاد سيدى الشيخ ١٨٦٤ صبت فرنسا نيران انتقامها لا على الصحراء فقط بل أضافت اليها عمالة وهران . ولكن هذا الانتقام نفسه زاد فى لهيب المقاومة الشعبية فى الجنوب نحو الساورة ثم امتد نحو الشمال فى ثورة ١٨٧١ ثم ظهر من جديد فى ثورة بوعمامة سنة ١٨٨١ . وفى ثورة ١٨٧١ نستطيع أن نقول أن كل مناطق الصحراء شاركت فيها وصبت انتقامها على الخونة أمثال بن قانة وقطعت نخيلهم واذا كانت ثورة ١٨٧١ قد بدأت بالقرب من البحر شمالا فانها قد انتهت فى «توقرت» جنوبا.

«وهكذا متنت الصحراء الجزائرية تضامنها مع الشمال طيلة ثلاثين عاما من الكفاح (١) . وكلما زادت المقاومة التجاء نحو الجنوب تبعتها اعمال القمع الفرنسى واتبعت آثارها ولكن دون ان ينجح هذا القمع فى فتح طرق التجارة نحو افريقيا السوداء بقدر ما نجح فى توحيد المقاومة وروح التضامن والوحدة الوطنية بين الشمال والصحراء .

---

(١) كتاب : الجزائر ماضيها وحاضرها.

ولكن بالرغم من المقاومة القوية التى جابهها المستعمرون فان ذلك لم يزدهم الا اصرارا على الاحتلال والتوغل .

ففى سنة ١٨٩٩ سارت قوات فرنسية تريد اخضاع عين صالح وتيدكالت وتوات وغرارة . فلم تخط هذه القوات مرحلة فى رمال الصحراء وجبالها دون أن تصطدم بمعارك دامية من المقاومة الشعبية . واستمرت هذه المقاومة دون هوادة حتى جعلت الفرنسيين يقررون سنة ١٩٠٢ أن الصحراء لا يمكن ان تحكم الا حكما عسكريا . وتبع هذا الحكم ما نتصوره من تفقير وتقهقر فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية زاد فى سخط الاهالى. فبينما كان فى مزاب مثلا أكثر من ستة آلاف عامل فى صناعة الزرابى وحدها قبل الاحتلال لم يبق فى عهد الاستعمار أكثر من الف وخمسمائة عامل . كما انخفض انتاج التمور بمقدار الثلث عما كان عليه فى عهد ما قبل الاحتلال وخسر سكان الساورة وحدها أكثر من أربعة آلاف شخص فى المقاومة . وما كادت الحرب العالمية الاولى تندلع حتى استئنفت المقاومة فى الصحراء من جديد . وفى سنة ١٩١٦ اضطرت القوات الفرنسية للانسحاب من منطقة «جنات» التى عادت اليها سنة ١٩١٧ مستعملة القمع الرهيب . كما سنت فرنسا سياسة جديدة تهدف بها الى فصل الصحراء عن الشمال بواسطة اجراءات قمرقية حتى تمنع الاتصال المستمر بين سكان الشمال والجنوب .

ولكن هذه السياسة لم تمنع حركة المقاومة الشعبية التى بدات سنة ١٨٣٠ من أن تستمر فى الزمن الى الحرب العالمية الاولى التى انبثقت بعدها الحركة السياسية فكان الكفاح المسلح المتفاوت شدة وهوادة متواصلا طيلة قرن كامل . كما لم تمنعها من الاستمرار فى المكان حيث بدات فى ساحل الجزائر عند الاحتلال وانتهت فى أقصى الصحراء بانبثاق فجر الحركة الوطنية بعد الحرب العالمية أيضا .

نظرة عامة في مراحل الاحتلال

تعتبر هذه الفترة السوداء فترة الاحتلال الفرنسى اهم مرحلة فى تاريخنا الوطنى بعد الفتح الاسلامى وذلك لعدة أسباب . أولا : أنها فتحت أعيننا على عالم جديد كان يتمخض عن أحداث عالمية عميقة فى وقت كان فيه أجدادنا مثل بقية شعوب آسيا وافريقيا يرسفون فى أغلال التأخر والجمود . ثانيا : أن الاحتلال الفرنسى بلغ من الشمول لكل أنحاء البلاد مالم يبلغه الاحتلال الرومانى أو البيزنطى ولا حتى الحكم التركى مما سبب للشعب وحـــدة فى المصيبة لم يعرفها من قبل . ثالثا : أن شعبنا عرف فى هذه الفترة اهوالا من الحروب لم يسبق فى تاريخه الطويل أن عرف مثلها فزادته مراسا وشدة . وعرف بها فى العالم بعد ان كان شعبا مغمورا . رابعا : أن حروب الاحتلال الفـــرنسى هى أول حروب أكدت من جديـــد شخصية الشعب الجزائـــرى ومميزاته القومية ونضجه السياسى الذى كان يعتبر منذ ذلك العهد فريدا من نوعه قياسا الى مستوى أمثاله من الشعوب .

لهذا الاسباب أفضنا القول فى هذه المرحلة وأعطيناها مـــا تستحقه فى نظرنا من الاهتمام . ولا ننسى اخيرا أن طول مدة الاحتلال قد طبعت حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والادارية وحتى السياسية والثقافية بطابع له تأثيره الكبير على حاضرنا ومستقبلنا . ولهذا يحسن أن نلم الآن فى نظرة عامة بهذه الفترة الهامة ـــ فترة الاحتلال الفرنسى ـــ فى مختلف ميادين الحياة .

جـــس النبـــض

كانت المرحلة الاولى من الاحتلال الفرنسى عبارة عن جس نبض قام بـــه الفرنسيون قبل أن يندفعوا معنا فى حرب عامة . كانوا فيها يجوسون خلال المدن الساحليـــة ويتعرفون الى أحوال البلاد من أطرافهـــا قبل التوغل فى الارياف الشاسعة والجبال الوعرة . وكان تركز الفرنسيين فى هذه الفترة ذا طابـــع عسكرى بحت وكان حكامهـــم فى المنـــاطق التى يحتلونها حكامـــا عسكريين الى سنة ١٨٨٠ . وكانوا يحاولون ان تبقى البلاد تحت سلطتهم العسكرية والاقتصادية دون مراجعة حتى من وزير الحرب فى بلادهم .

ولكن سرعان ما لحقتهم موجة من المستوطنين المدنيين فى المدن الساحلية.
ولم يكن مستواهم الاخلاقى يختلف كثيرا عن مستوى القواد العسكريين :
كلهم من المغامرين الباحثين عن الربح حتى أن العمل الذى كانوا يتعاطونه
لا يخرج عن ميادين الاحتيال والفساد من نوع فتح المحال الليلية والمخامر
ودور القمار وسماسرة يبيعون ويشترون أملاكا وهمية لا وجود لها أولا
يعرف أصحابها . وكان القواد العسكريون أنفسهم مثل الجنرال (كلوزيل)
يتعاطى معهم الصفقات المحرمة . وما كادت تحل سنة ١٨٣٩ حتى كان
هؤلاء المغامرون لايقل عددهم عن ٢٥ الف شخص من المدنيين وحدهم .

امتلاك الاراضى

ولكن هذا التهالك على البلاد الجزائرية عامة لم يدم طويلا . فقد أصابهم
الافلاس السريع ثم جاءت الحرب بين الامير عبد القادر وفرنسا فأوقفت
الزحف الاروبى على الجزائر بل حملت الكثير من المستوطنين على العودة من
حيث أتوا وأمام هذا النزوح والافلاس عمدت السلطات العسكرية الى
اغتنام فرصة الحرب مع الامير عبد القادر واخذت تحجز الاراضى الشاسعة
وتمركز فيها الاروبيين وتغدق عليهم القروض حتى يستثمروها ولا يفروا
منها . وهكذا خرجت ثلاثة أرباع الاراضى فى ضواحى الجزائر العاصمة
من يد أصحابها الجزائريين ودخلت فى حوزة الاروبيين .

كما أن مقتضيات الحرب اضطرت الاهالى الجزائريين الى النزوح من
هذه المنطقة والتجمع في تلك والانتقال من مكان الى مكان . ولقي الجيش الفرنسى
من ناحية متاعب شديدة فى الحياة الادارية الخاصة بالجزائريين فى ظروف
الحرب فكونوا هم ما سموه « بالمكاتب العربية » (بيرو آراب) يديرها ضباط
فرنسيون ذوو سلطة مطلقة ويعينهم بعض الاذناب من « القياد والاغوات »
ومهمة هذه المكاتب عزل الاهالى الجزائريين عن السكان الاروبيين خوفا على
هؤلاء من أولئك وأيضا لئلا يختلط الجزائريون بالاروبيين ويأخذوا
عنهم طرائق العمل فى التجارة والصناعة والفلاحة . وهى سياسة طبقها
فيما بعد الماريشال ليوتى فى المغرب بكل دقة وضبط .

تضخم عدد الأروبيين

وبواسطة هذه « المكاتب العربية » استطاع الجيش الفرنسى ان يستولى
على الحياة الادارية فى المناطق التى يحتلها .

كما أن الادارة العسكرية أخذت بيدها أمر الاروبيين المدنيين تسير
شؤونهم وتوجههم وتمكنهم من الاستيطان المنظم وتملكهم الأراضى الخصبة

وتقرضهم الاموال وتمدهم بكل وسائل التعمير والانتاج . وهكذا أصبح عددهم سنة ١٨٤٧ يفوق المائة الف شخص ما بين نواحي العاصمة ووهران وسكيكدة . منهم نحو الخمسين الف من فرنسا و ٣٠ الف من اسبانيا ولكن بالرغم من هذا التشجيع لقي الاروبيون متاعب كبيرة وخاصة من الناحية الصحية والاقتصادية . وكانت سلطات الجيش الفرنسي تستخدم هؤلاء الاروبيين في اليد العاملة لأنها لم تجد في الجزائريين من يقبل بالعمل عندها وهي في حرب مع الشعب . وهكذا استرجع الاروبيون المدنيون مرة أخرى كثرتهم وأحسوا بالقوة التي تمكنهم من منازعة العسكريين النفوذ . فأخذوا يطالبون أولا بتكوين حكم مدني في مناطقهم وتحصلوا على ذلك سنة ١٨٤٥ . ثم طالبوا بانسحاب الماريشال بيجو من الجزائر فكان لهم ذلك ايضا . ثم جاءت الجمهورية الفرنسية الثانية فأخذت تعد العمال الفرنسيين بالخيرات التي تنتظرهم في الجزائر وارسلت منهم نحو العشرين الف الى وهران واقطعتهم فيها ٤٢ مركزا فلاحيا . وما جاءت سنة ١٨٥٠ حتى بلغ عدد الاروبيين المدنيين في الجزائر ١٣٠ الف . فأصبح الغزو مدنيا واقتصاديا بعد الغزو العسكري وبانتهاء العمليات الحربية تبين للسلطات الفرنسية انه من الميز للمعمرين أن « لا تقضي على وجود الجزائريين في المناطق التي تمركز فيها هؤلاء الاروبيون » . ولكن على شرط أن لا يكون للجزائريين الا حد أدنى من الأراضي .

ان تغيير الحكم في فرنسا من نظام ملكي الى نظام جمهوري لم يتبعه تغيير يذكر بالنسبة للسياسة الفرنسية في الجزائر . فما جاءت سنة ١٨٦٠ حتى أصبح عدد الاروبيين في الجزائر ٢٠٠ الف منهم ١٢٠ الف فرنسي وكل هؤلاء أصبحوا يملكون احسن اراضي الجزائر . وأمام هذا التكاثر من المستوطنين لم تعد السلطات الفرنسية « تمنح » الأراضي منحا . بل أصبحت تبيعها لهم . وهكذا فتحت الباب لنوع آخر من المستغلين هم أصحاب الشركات الكبرى ورؤوس الأموال الضخمة . فاشترت « شركة جينو فواز » ٢٠ الف هكتار . وشركة « ماكتا » ٢٥ الف . و « الشركة الجزائرية » (وهي شركة فرنسية) اشترت ١٠٠ الف هكتار الى آخره . واستخدمت هذه الشركات اليد العاملة الجزائرية في فلاحتها بمعدل : ٩٠ ٪ . وهم في الغالب أصحاب تلك الاراضي الأصليون أصبحوا فيها عمالا أجراء

وعندما جاء نابليون الثالث بسياسة « الامارة العربية » في مناطق الامبراطورية الفرنسية حاول أن يجعل الجزائريين يحتفظون ببعض الأراضي التي ماتزال في أيدينا بل أيديهم . ولكن المعمرين الاروبيين وقفوا في وجهه كرجل واحد . وذهبت بهم المعارضة الى تأييد النظام الجمهوري ضد النظام الملكي وطالبوا بنظام الادماج التام للجزائر في فرنسا مقابل نظام « الامارة العربية » التي نادى بها نابليون الثالث

ولكن هذه الخلافات بين الفرنسيين لم تغير شيئا من وضعية الجزائريين الذين هاجروا الى الاراضى القاحلة بعـــد أن سلبت أراضيهم الخصبـــة . فتفشت فيهم المجاعة وفتكت منهم سنة ١٨٦٧ — ١٨٦٨ وحدها بما يقرب من نصف مليون نسمة .

على أن الفلاحة الاروبية نفسها أصابها الكساد ورداءة الانتاج وخاصـــة فلاحة القطن التى انقرضت سنة ١٨٦٥ . كما فشلت تجارب فلاحة السكر والقهوة . وانخفض انتاج التبغ . وزار الجزائر اذاك أحد رجال الاقتصاد الانكليز سنة ١٨٦٢ فقال عنها « انها بلاد ساحرة تسير فى طريق الافلاس » أما بقية فلاحة الحبوب فقد أصبح المعمرون أنفسهم يمارسونها « بالطريقة العربية » أو يؤجرون أرضهم للجزائريين . وتراكمت الديون على صغـــار المعمرين . وامسكت الشركات الكبرى عـــن اعتمـــاد أموالها فى الفلاحة . وأصبحت عملية الاستعمار كلها على أبواب الفشل .

نفسية الاروبيين فى الجزائر

وعندما سقطت الامبراطورية والنظام الملكى مرة أخرى انطلق المعمرون فى معركة حادة يطاردون ضباط الجيش ويقيمون « لجنة دفاع » هدفها تكوين مجلس نيابى خاص فى الجزائر يتفاوض مفاوضة الند للند مع المجلس النيابى بفرنسا وذهبوا الى حد البحث عن حماية انكلترا لهم ووضع انفسهم تحت سلطتها بشرط أن تضمن لهم مكانة التفوق على الجزائريين .

ولكن جاءت ثورة ١٨٧١ ببلاد القبائل فاضطرتهم الى ان يوحدوا صفوفهم مع الجيش ويخضعوا للسلطة الفرنسية . واستجابت الجمهورية الثالثـــة لكل مطالبهم فقضى على حلـــم « الامارة العربية » وحتى على « المكـــاتب العربية » لان رؤساء هذه المكاتب ضباطـــا فى الجيش لا يخضعون دائمـــا لشهوة المعمرين . وتحقق نظام ادماج الاروبيين فى الوطن الاصل (فرنسا) . واصبح الحاكم العام مدنيا تابعا لوزارة الداخلية لا لوزارة الدفاع . وتعزز جانب المعمرين بدفعة جديدة مـــن النازحين مـــن « الالزاس واللـــورين » واقتطعت لهم أراضى جديدة فى بلاد القبائل بعد ثورة المقرانى تبلغ ٥٠٠ الف هكتـــار .

وهكذا اندفعت الجمهورية الثالثة فى عملية استعمار جديدة فكونت ٢٠٠ مركزا او قرية للمعمرين ووزعت ٤٠٠ الف هكتار من الاراضى مجانـــا على المعمرين . وازداد تضخم المعمرين فانتقل من ٢٤٨ الف نسمـــة ١٨٧١ الى ٣٧٦ الف نسمة ١٨٨١ .

ولكن الحالة الاقتصادية عندهم لم يطرا عليها أى تحسن فلم يستطع المعمرون الجدد ان يتغلبوا على الصعوبات التى فشل أمامها من كان قبلهم واضطروا لتأجير الاراضى التى وزعت عليهم الى الجزائريين .

ومنذ أن حل الفرنسيون بالجزائر بدأوا يهتمون بفلاحة الكروم . وفى سنة ١٨٦٥ أصبحت هذه الفلاحة من أقوى الانواع فى الجزائر . وقد ظلت هذه الفلاحة تبتلع القروض من طرف بنك الجزائر مدة طويلة من الزمن . وقد بلغت فى سنة ١٨٨٥ وحدها ٥٢٦ مليون فرنك . وهذا الى جانب الاعتمادات الخاصة الآتية من فرنسا .

وبالرغم من ذلك فان الازمات الاقتصادية لم تنقطع من جراء الامراض التى أصابت العنب . وبفضل القروض المتواصلة وحدها استطاع المزارعون الاروبيون فى الارياف وتجارهم فى المدن أن ينقذوا أوضاعهم الاقتصادية من الانهيار . والى جانب المعمرين والتجار الذين من اصل فرنسى كانت الهجرات تتدفق الى الجزائر من الاقطار المجاورة لفرنسا مثل ايطاليا واسبانيا مستفيدين من قانون الجنسية الفرنسية . وعلى سبيل المثال نذكر انه فى سنة ١٩١١ كان فى وهران ٩٥ الف من أصل فرنسى و ٩٣ الف متجنسين بالجنسية الفرنسية و ٩٣ الف اسبانى ، وقد تكونت عند أروبيى الجزائر نفسية معينة من التكتل ضد الجزائريين ونفسية من الانفصال والتمييز بالنسبة لفرنسيى فرنسا . ونفسية رجعية منغلقة نحو غيرهم من الأجناس وخاصة نحو الذين يجيئون من فرنسا « ليفتكوا لهم الخبز». حسب تعبيرهم . واصبحت لهم صحافة تغذى فيهم هذه النفسيات الجامدة التى لا تؤمن حتى بالمثل الفرنسية النظرية من نوع الاخوة والمساواة والحرية .

قضية التعليم

وبعد أن تخلصوا من كل سيطرة استولوا على الحاكم العام المدنى وأصبحوا يحلمون باستقلال داخلى للجزائر تحت تصرفهم ويعارضون اى اجراء ذى فائدة اجتماعية تقوم به فرنسا نحو الجزائريين كما فعلوا فى قانون تعليم الجزائريين بالرغم من أن هذا التعليم الذى كانت تقصده فرنسا كان فرنسيا بحتا . وبالرغم من أنهم قضوا على التعليم العربى ونفوا المعلمين واستولوا على أملاك الاوقاف التى كان التعليم بفضلها يقف سدا منيعا فى وجه الامية بالجزائر . ففى سنة ١٨٦٥ كان التعليم العربى فى المدارس القومية مايزال موجودا . وكان عدد التلاميذ الجزائريين فيها نحو ١٣ الف تلميذا . ولكن لم تأت سنة ١٨٨٠ حتى كان عددهم قد تناقص الى

ثلاثة آلاف تلميذ . وقد كتب « جول فيرى » عن معارضة المعمرين لتعليم الجزائريين بالفرنسية اذاك فقال (ان المعمرين يعتبرون الاهالى من جنس بشرى منحط لا يصلح الا للاعمال الشاقة بدون اجرة . وهذا الاعتقاد منهم هو الذى جعلهم يثورون على فتح مدارس للاهالى . انهم يعتبرون الاهالى غير جديرين الا بالارهاق والقهر) .

وكان للمعمرين مجلس أعلى أصدر قرارا بهذه المناسبة يقول فيه : ان العربى من جنس بشرى منحط لا يقبل الثقافة أو التعلم . وان فتح مدارس للاهالى بالجزائر يعرض هذه البلاد لخطر حقيقى فى الميدان المالى وفى ميدان توطين الفرنسيين بالجزائر . وبناء على ذلك نطالب البرلمان الفرنسى بأن يعدل عن قراره بفتح مدارس للاهالى .

واذا كانت حكومة باريس لم تستجب لهذا الطلب رسميا فانها من الناحية الواقعية قد عملت به . اذ ضيقت على التعليم حتى بالفرنسية الى أن قضت على التعليم العربى وحتى كان التعليم العالى معدوما بالنسبة للجزائريين . وفى التعليم الثانوى شبه معدوم . وفى الابتدائى وصل بعد قرن الى تعليم عشرين فى المائة حسب احصاءات منظمة ليونيسكو الدولية .

الاصلاحات الاجتماعية

ومن ناحية الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية لم يكن تعصب الاروبيين ضد الجزائريين اقل منه فى الميدان الثقافى . لقد توصلوا الى تجميد كل المحاولات الاصلاحية التى هيأتها الحكومة الفرنسية ١٩١٢ . ثم جاءت الحرب العالمية الاولى فأعانت على ذلك التجميد . ولكن ذلك لم يمنع الحكام الفرنسيين من أن يضعوا الجزائريين فى الصف الاول فى ميدان آخر وهو ميدان القتال فى الحرب ضد المانيا . فقد قدمت الحكومة الفرنسية للمدافع الالمانية ١٧٣ الف من الجزائريين منهم ٥٦ الف قتيلا أى ٣١ ٪ من مجموع الخسائر الفرنسية فى حين لم يخسر الفرنسيون المشاة فى هذه الحرب الا ١٩ ٪ وبعد انتهاء الحرب الح النواب الجزائريون على ضرورة تطبيق الاصلاحات المجمدة على الاقل . ولكن الاروبيين فى الجزائر عارضوها مرة اخرى بالرغم من تواضعها فقد كانت عبارة عن تكوين مجالس محلية منتخبة وحذف الضرائب الخاصة بالجزائريين والمتوارثة عن عقوبات الاحتلال وتمثيل الجزائريين فى المجالس العامة بنسبة خمسين فقط حتى تبقى الاغلبية فى هذه المجالس للفرنسيين ومشاركة الجزائريين فى الانتخابات البلدية . ولكن هذه الاصلاحات اعتبرها الفرنسيون فى الجزائر « مصدر فوضى وتخريب » . وهدد نوابهم بالانسحاب الجماعى اذا اقرت هذه الاصلاحات . الا أن حكومة « كليمانصو » اذاك اقرتها ولم تخضع لتهديدات المعمرين .

ومع هذا فان قوة المعمرين لم تبلغ من القوة والنفوذ ما بلغته بعد الحرب العالمية الاولى فقد أخذوا يمركزون قوتهم منذ سنة ١٩٢٠ فى الميدان الفلاحى والميدان المالى . وسيطروا على صناديق القروض الفلاحية وبذلك اصبحوا يتحكمون فى كثير من الميادين الاقتصادية الاخرى ومن ثم سيطروا على الميادين الادارية والسياسية وأصبحت مصالحهم تراعى قبل مصالح الدولة الفرنسية وتوصلوا الى وضع يدهم على شؤون العدلية والامن العام والصحافة ورؤساء الاقسام وكبار الموظفين فى الولاية العامة . ومن ثم أصبحوا يتحكمون فى اتجاه الوالى العام نفسه وسطروا طريقة محكمة لذلك . فعندما يعين والى عام جديد تنطلق صحافتهم الاستعمارية فى اغراقه بالمدح والترحيب. ويشعرونه فى الوقت نفسه بقوتهم حتى يصبح الوالى سجين فكرة ثابتة وهى أنه اذا حاول أن يعارض هذه القوة أو يقف فى وجهها فانه هو الذى سيتحطم على صخرتها . وهكذا كلما قدم والى عام ذو نزعة تحررية او يسارية لا يلبث أن يصبح مثالا للرجعية والعنصرية والفساد بكل أنواعه . وآخر مثل على هذا الطراز (لاكوست الاشتراكى) .

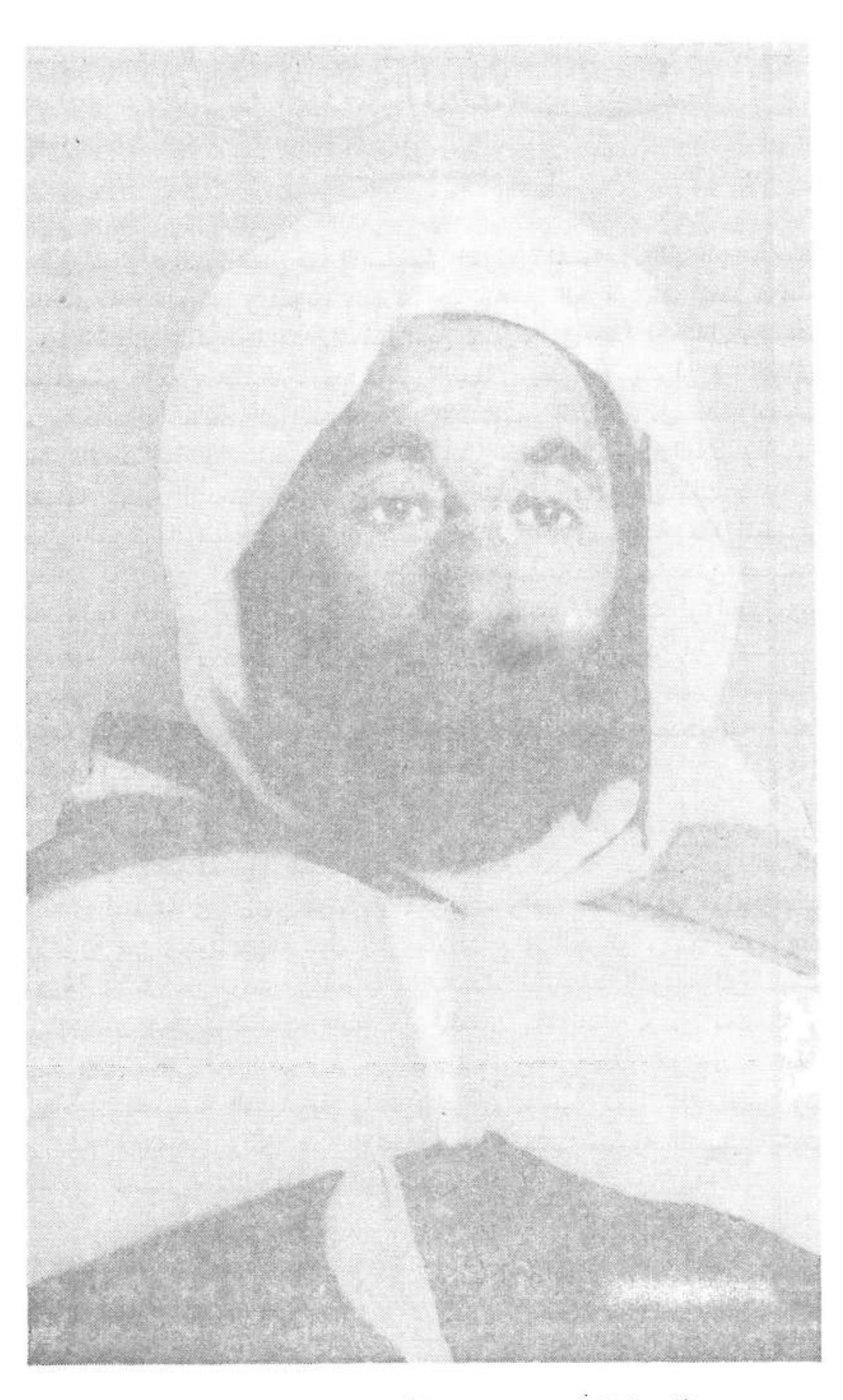
النهضة الوطنية

من المميزات التى خص بها الاستعمار الفرنسى نفسه فى الجزائر بالنسبة لما قام به فى تونس والمغرب مثلا — هو أنه فى الجزائر قد اغتنم فرصة حرب الاحتلال الطويلة وعدد الجند الذين شاركوا فى هذا الاحتلال وعدد المستوطنين الذين استعان بهم جيش الاحتلال على الاستقرار فى الاماكن التى احتلها واخضعها لهم — استغل الاستعمار الفرنسى كل ذلك لتحطيم النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية التى كانت قائمة فى البلاد والتى بفضلها قاومه الشعب الجزائرى مقاومة عنيدة . فكان كل ذلك سببا فى ظهور الحركة الوطنية فى الجزائر بمظهر خاص . وفى مقدمة هذا المظهر الخاص نذكر أن الحركة الوطنية فى الجزائر لم تجد أمامها حتى ظلا للشخصية الوطنية يتمثل فى العلم الوطنى أو الباى او الملك أو اسم وزير أو معهد ثقافى تقليدى أو نحو ذلك من بعض مظاهر السيادة او الشخصية الوطنية كما ظل ذلك موجودا فى كل من تونس والمغرب فى عهد الاستعمار الفرنسى حتى اذا جاءت الحركة الوطنية فى كلا البلدين وجدت فيه سندا للنضال الداخلى وكلمة تسمع فى الميدان الخارجى .

هذه الملاحظة ينبغى أن تكون فى ذهن القارىء وهو يستعرض وجوه الشبه أو الاختلاف بين الطابع الذى اكتسته الحركة الوطنية فى الجزائر والذى اكتسته فى كل من تونس والمغرب . واهم هذه الفروق وأجدرها بالاشارة هى وجود حركة تقبل حتى بالاندماج فى الجزائر وعدم وجود هذه الحركة فى كل من تونس والمغرب . فانعدام المقومات القومية الرسمية فى الجزائر جعل مثلا نخبة قليلة من المثقفين بالفرنسية وممن بعد الزمن بينهم وبين ماضى أجدادهم وتاريخ امتهم يبحثون عن منفذ تخرج منه البلاد من حياة العبودية السياسية والاقتصادية والثقافية مهما كان الثمن ولو بوسيلة الادماج . ولكن هذه الاقلية وجدت أمامها نفسية الشعب وقوته المعنوية الصخرية فلم يكن لها أى صدى عنده .

العنصر الديني :

أضف الى ذلك ظهور الحركة الاصلاحية الدينية فى تلك الحقبة نفسها — أى من سنة ١٩٣١ الى ١٩٣٦ — وما وجدته من تقبل طبيعى عند الشعب



الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس

قضى على الحركة الاندماجية فى المهد . فقد كتب الشيخ عبد الحميد بن باديس في تلك الظروف الحالكة يقول للاندماجيين « إننا نحن فتشنا فى صحف التاريخ وفتشنا فى الحالة الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا . ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الاعمال . ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمة فى الدنيا.

ثم إن هذه الامة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا . ولا يمكن أن تكون هي فرنسا . ولا تريد أن تصير فرنسا. ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو ارادت .بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي اخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها لاتريد أن تندمج . ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائرى بحدوده الحالية المعروفة » .

ونذكر هنا عرضا أن الحكومة الفرنسية بدات تدرك من هذا الموقف مبلغ الخطر السياسى الذى تمثله حركة الاصلاح الدينى فى الجزائر على سياستها الاستعمارية ولكنها عالجت الموقف الخطير بخطر اشد وهو ان أصبحت هى التى تعين الايمة والمفتيين والقضاة وغالبا ما تختارهم من العناصر الفاسدة أخلاقيا وثقافيا فضلا عن فسادهم السياسى فنفرت الجماهير الاسلامية اكثر من ذى قبل من هؤلاء المأجورين الاشقياء .

اننا نستطيع ان نقول ان عنصر الدين كان من العوامل الاساسية التى جعلت الشعب الجزائرى يحتفظ بشخصيته بالرغم من كل عوامل التحطيم التى حاربت بها فرنسا شخصيته القومية ، حتى اننا نجد تأثير هذا العنصر فى الحركة السياسية التى تكونت فى فرنسا تحت اسم «نجم شمال افريقيا» سنة ١٩٢٦ . وظل هذا العنصر بارزا فى الحركة الوطنية الجزائرية . وفى سنة ١٩٢٧ تحول نجم شمال افريقيا الى «حزب الشعب الجزائرى» أى اصبح حركة جزائرية محضة بعد ان كان فى اول الامر حركة شمال افريقية عامة تقوم على العمال القادمين من هذه البلاد للعمل فى المناجم والمصانع بفرنسا .

وفى الجزائر نفسها كان المستعمرون الفرنسيون قد نجحوا فى ابعاد موريس فيوليت عن الولاية العامة سنة ١٩٢٧ لانه يحمل سياسة تحررية نحو الجزائريين كما نجحوا سنة ١٩٣٥ فى القضاء بأنفسهم على آخر ظل لسياسة الادماج المتمثلة فى مشروع ليون بلوم . اذ أن المستعمرين من ناحيتهم كانوا يعتبرون الادماج خطرا عليهم ويتهمون الساسة الفرنسيين الذين يريدون دمج الجزائر فى فرنسا بأنهم خونة لفرنسا لان الادماج معناه تمتع الجزائريين بالحقوق التى يتمتع بها الفرنسيون . فكان هذا الموقف المتشدد قد ارجع «الادماجيين» الجزائريين الى صوابهم وقرب بينهم وبين

حركة حزب الشعب الناشئة . وهكذا تكون فى شهر جوان سنـــة ١٩٣٦ مؤتمر اسلامى جزائرى فى العاصمة ضم ممثلين عن مختلف الهيئات والاحزاب وصادقوا على لائحة للتضامن بينهم ولتوحيد مطالبهم الوطنية . وفى سنــة ١٩٣٨ تكونت حركة «التجمع الفرنسى الاسلامى الجزائرى» وهى حركـــة تجمـــــع بعض النواب الجزائريين وبعض الشخصيات الفرنسية المتحررة وتتمتع بعطف جمعية العلماء . والى جانبها كـــانت تقوم حركة شعبية هى حزب الشعب . واذا لم يكن بين الحركتين اشتراك فى العمل فانهما لـــــم تتصادما أو تتنازعا . بل ان الحركة الاولى قد ابدت تضامنها مع حركة حزب الشعب عندما قررت الحكومة الفرنسية حله وايقاف ابرز قادته سنة ١٩٣٩ وهكذا ما كانت الحركة الوطنية تخطو خطواتها الاولى فى الجزائر بما فيها من صعوبات وعقبات حتى قامت الحرب العالمية الثانية فأخمدتها .

وفى أوائل سنة ١٩٤٣ استأنف الحزب الشيوعى الجزائرى نشاطه ولكن دون أن يبدى معارضة تذكر للعلاقات الشاذة القائمة بين فرنسا والجزائر وانما وجه قوته ضد الجالية الاوروبية فى الجزائر باعتبارها طبقة مستحوذة على خيرات البلاد لا باعتبارها عنصرا أجنبيا عن الشعب الجزائرى.

كما بعثت حركة (البيان) الى الوجود فاغضت عنها الادارة الفرنسيـــة الطرف . ولاول مرة تطالب هذه الحركة بالاستقلال الداخلى للجزائر ضمن الاطار الفرنسى وبالحرية والمساواة بين جميع سكان الجزائر وباصلاحات زراعية ، وبالاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية الى جانب اللغة الفرنسية. وتظاهرت الادارة الفرنسية بالنظر بعين الاهتمام الى هذه المطالب ولم تطارد اصحابها كمـــا هى العادة نظـــرا لوجود الحلفاء بالجزائر ولكـــون الادارة الفرنسية نفسها فى حالة هجرة بالجزائر . ولكن الاستجابة المنقوصة لهـــذه المطالب جاءت فى قانون ٧ مارس ١٩٤٤ الذى يمنح حـــق الانتخاب لكـــل المسلمين الجزائريين الذين تتجاوز أعمارهم ٢١ عـــاما ويجعل نسبتهم فى المجالس خمسين ونسبـــة الاوروبيين ثلاثة أخماس ويمنح الجنسية الفرنسية لعدد كبير من الجزائريين . فكانت هذه « الاصلاحات » كالعادة متأخرة عن وقتها وتـــافهة لا ترضى احدا . وكـــان رد الفعل الطبيعى عليها من جانب الحركات الوطنية الجزائرية ان تكتلت كلها ــ حزب الشعب وحزب البيان وحركة جمعية العلماء ــ فى منظمـــة واحدة تحت اسم « أنصار البيـــان » واصدر هذا التجمع ميثاقا يطالب بجمهورية جزائرية تتمتع بالحكم الـــذاتى ومرتبطة بالجمهورية الفرنسية ارتباطا فيديراليا . وقابل الشعب هذا التجمع كما هى عادته دائما عندما تتحد كلمة قادته بحماس لا نظير له وانضم تحت لواء التجمع مالا يقل عن خمسمائة الف فى أقصر وقت .

ولكن اذا كانت الحركات الوطنيـــة قد رفضت قانون ٧ مـــارس ١٩٤٤ ، فان الجالية الاوربية من ناحيتها قد جعلت من هذا القانون عدوا يجب تحطيمه مهما كان الامر . وراح البعض منهم يفكر فى عرض شكوى على منظمة الامم المتحدة يتهمون فيها فرنسا بالتخلى عن اقلية اوربية فرنسية فى ايدى اغلبية من المسلمين « المتوحشين » بينما أعلن آخرون منهم أنهم يعارضون هـــذا القانون بالقوة وانهم سيجبرون الحكومة الفرنسية على سحبه .

ومن بين المؤامرات التى كان ينوى المستعمرون استعمالها للقضاء على حركة انصار البيان والحرية من ناحية وقانون ٧ مارس من ناحية اخرى . مؤامرة ٨ ماى ١٩٤٥ التى أودى فيها الاستعماريون الفرنسيون بحياة مـــالا يقل عن ٤٠ الف مواطن جزائرى فى سطيف ، وقالمـة وخراطة . وذلك لمجرد كون الجزائريين تجرأوا بمناسبة افراح نهايـــة الحرب العالمية الثانيـــة — تجرأوا على رفع العلم الوطنى فى مظاهراتهم السلمية .

وقد قتل فى هذه المأساة المروعة ٨٨ أوربى وجرح ما يقرب من ١٥٠ فى مقابل أربعين الف شهيد من الجزائريين وأكثر من خمســة آلاف اعتقـــال فى صفوف الوطنيين المعروفين وحل تجمع انصار البيان والحرية . وتكونت لجنة برلمانية للبحث فى هذه الفاجعة ولكنها تلقت أوامر صارمة من أعـــلى بأن تتخلى عن هذه المهمة حتى لا تفتضح فيها أسرار المسؤولين الفرنسيين أنفسهم .

وفى جويلية ١٩٤٥ أجرت الادارة الفرنسية انتخابات فى الجزائر قاطعها حزب الشعب وأنصار البيان فكانت مقاطعة الشعب لها نجاحا ســياسيا رائعا للحركة الوطنية الجزائرية . وفى مارس ١٩٤٦ أعيد تكوين انصـــار البيان رسميا وتحول حزب الشعب من ناحيته فى نوفمبر من نفس الســـنة الى حركة أنصار الحريات الديموقراطية . وفى سنة ١٩٤٦ جرت انتخابات لتعيين نواب جزائريين فى البرلمان الفرنسى ساهم فيها أنصار البيـــــان وقاطعها حزب الشعب ، الذى ساهم فى انتخابات أخرى اعقبتها بعـــد أن غير اسمه .

وبعد مأساة ماى ١٩٤٥ ومحاولة تشتيت الحركة الوطنية بالقمـــــــع والسجن والتشريد دون جدوى لم تجد حكومة فرنسا بدا من الرجوع — ولو مؤقتا — الى سياسة الاصلاحات ولو أغضبت المستعمريـــن ولـــم ترض الوطنيين ، فأصدرت حكومة «رامادييي» شبه دستور خاص بالجزائر تعلن فيه بأن الجزائر تكون مجموعة من المقاطعات لها شخصيتها المدنيـــــــة واستقلالها المالى وتنظيماتها الخاصة التي تتمثل فى ولاية عامة وفى مجلس

للولاية وادارة مركزية ومجلس جزائرى . لكن من مميزات هذه الانظمة الخاصة بالجزائر هو ان المجلس الجزائرى مثلا يحوى مائة وعشرين نائبا، ستون منهم يمثلون السكان الاوربيين وستون يمثلون السكان الجزائريين . وبينما كان الرأى العام يتوقع معارضة الاوربيين فى الجزائر لهذا النظام الجديد اذا هم يتقبلونه بابتهاج وحماس لانهم تصوروا فيه فرصة عظيمة للاستيلاء التام على دواليب الادارة والاقتصاد وقطع الطريق امام قوانين فرنسا ومنعها من أن تطبق فى الجزائر بحجة ان الجزائر اصبحت لها شخصيتها الخاصة . وفعلا فقد جاءت انتخابات أفريل ١٩٤٨ التى قام بها الوالى العام ناجلان واظهرت مبلغ صحة نظريتهم ، فمن بين الستين نائبا مسلما كان ٤٣ منهم منأنصار الادارة الفرنسيةوذيولها اضيفوا الى الستين نائبا أوربيا فى مقابل ١٧ نائبا وطنيا — أى أن المجلس الجزائرى كان فى قبضة المستعمرين واذنابهم وكانت المهمة الاساسية التى قام بها هذا المجلس هى منعه للقوانين الفرنسية من أن تطبق فى الجزائر باعتبارها قوانين « محرجة » تحد من سلطة الجالية الاوربية على الاغلبية من الجزائريين وعلى كل مقدرات البلاد الاقتصادية . كما تمكنوا بواسطة هذا المجلس نفسه من وضع الجزائر باكملها تحت قبضتهم المباشرة . ومنذ ذلك التاريخ اصبحت الانتخابات فى الجزائر تحت الحكم الفرنسى يضرب بها المثل فى التزوير وقلب الحقائق . وقال عنها المؤرخ الفرنسى الكبير شارلى اندرى جوليان « ان التزوير الانتخابى فى الجزائر يعتبر دعامة من الدعامات التى ترتكز عليها اسس الدولة وهو أمر مشروع للدفاع عن السيادة الفرنسية . والذين يسهرون على تنظيمه باحكام ودقة لا ينفونه أو يتبراون منه . بل يفتخرون به . »

القوات الشعبية

فالواقع أن الاروبيين فى الجزائر كانوا دائما ومنذ القديم تراودهم هذه الاحلام . وهى الاستقلال فى تسيير شؤون البلاد الجزائرية وعدم تدخل فرنسا فى هذه الشؤون الا اذا دعت الحاجة : كامدادهم بجيشها لقمع الوطنيين أو شراء منتوجاتهم أو سد عجز الميزانية أو نحو ذلك .

وكانت كلمة « الجزائر هى فرنسا » تعنى عندهم قبل كل شىء أن الجزائر ليست ملكا للشعب الجزائرى . وان فرنسا ليست شيئا آخر الا هم . بحيث كانت الدولة الفرنسية تقوم بتمويل خزينة الادارة ، والشعب الجزائرى يقدم اذرعته وعرقه فى خدمة الارض والمصانع . والاقلية الاوربية تجنى ثمار الجميع . وشيئا فشيئا تعود الاوربيون فى الجزائر على هذه الاوضاع الغريبة حتى أصبحوا يرونها طبيعية ويرون تغييرها امرا لا يطيقونه .

ولكن هذه الانتصارات العظيمة التى تحصلوا عليها أبت الا أن تولد معها – بحكم طبيعة الاشياء – رد فعل بعيد الاعماق فى الحركة الوطنية الجزائرية بحيث أن بعض الساسة الجزائريين المعتدلين وبعض الطبقات المتوسطة ممن كانوا يمنون أنفسهم دائما بأنه سيأتى يوم يجدون فيه مجال التفاهم مفتوحا مع فرنسا والفرنسيين – قد نفضوا أيديهم نهائيا من هذا الآمال وأصبحوا يرون أن الباب الوحيد الذى بقى أمامهم وأمام الشعب بأكمله هو باب النضال الحقيقى .

كانت الحركات الوطنية اذ ذاك هى حركة انتصار الحريات الديموقراطية المتولدة عن حزب الشعب ومذهبها يقوم على أن النضال المسلح هو الوسيلة الوحيدة لتحرير البلاد من قبضة المستعمرين وتحقيق الاستقلال . وحركة أنصار البيان والحرية وسياستهم تقوم على نظرية المطالبة بالاصلاحات فى الاطار الفرنسى واستعمال هذه المطالب كأداة لتحقيق غيرها وهكذا .

وحركة جمعية العلماء المسلمين وهى تهتم فى الدرجة الاولى باحياء الشخصية الجزائرية المتمثلة فى عروبتها واسلامها ، هذا كعمل مباشر . وتأييد الحركات الوطنية السياسية بطريقة غير مباشرة . وكانت فى أغلب الاحيان فى هذا التأييد تميل الى أنصار البيان أكثر مما تميل الى حركة انتصار الحريات الديموقراطية .

ويمكن أن نضيف الى هذه الحركات الوطنية حركة الحزب الشيوعى الجزائرى الذى كان العامل الاساسى فى ضعف مذهبه هو مطالبته بالادماج من ناحية وحرصه على جمع أنصاره من بين الفرنسيين والجزائريين معا وهذا ما كان صعب التحقيق .

أما القوة التى تستند اليها حركة الانتصار فهى الطبقات الشعبية الكادحة والمثقفين الثوريين . وقوة أنصار البيان تتمثل فى الاطارات الادارية والمثقفين بالفرنسية فى العائلات المتوسطة . وقوة جمعية العلماء منحصرة فى المثقفين بالعربية .

ولكن القوة الشعبية التى تحصلت عليها حركة انتصار الحريات الديموقراطية لم تمنعها من التصدع . وكان أساس التصدع هواستمرار الخلافات بين رئيسه مصالى الحاج وبين اللجنة المركزية التى تتهمه بالحكم الفردى وعدم احترامه لقوانين الحزب الذى أسسه بنفسه والتى تقضى بديموقراطية الاصوات وحرية المناقشة داخل الحزب واحترام الاقلية وخضوعها لرأى ومقررات الاغلبية كما تتهمه بجمع السلطات فى يديه دون أن يعمل شيئا يذكر لتطوير الحزب وتنظيمه بأساليب نضالية حقيقية .

وقد ظلت هذه الخلافات دفينة ولا تعلمها الا الاقلية من المناضلين حتى شهر جويلية ١٩٥٤ حيث أعلن عنها رسميا .

وبعد هذا الحدث الهام بنحو الثلاثة أشهر اندلعت الثورة فى أول نوفمبر وكان من أسباب التعجيل باندلاعها هو اقتناع الطليعة الثورية بأن الثورة هى السبيل الوحيد للحرية . ولكنها ايضا هى السبيل الوحيد للوحدة الوطنية واقامتها على أسس ثورية نضالية تتجاوز الاشخاص وتدخل بتاريخ الجزائر فى أهم منعرج من تاريخها الحديث .

ثورة أول نوفمبر الخالدة

ابتدأت ثورة ١٩٥٤ بحوادث فردية ، وظهور فرق مسلحة فى مناطق مختلفة من الجزائر . وتبين على ضوء التوقيت لتلك الحوادث أنها كانت صادرة عن حركة منظمة على المستوى الوطنى ، وفعلا ، فسرعان ما اجاب منشور سرى عن مختلف التساؤلات التى نجمت فى جميع الاوساط من جراء أحداث الليلة الخالدة التى قدر لها أن تصبح فيما بعد هى العيد الوطنى للدولة الجزائرية وللشعب الجزائرى . فقد حدد المنشور السرى ابعاد الحركة المسلحة كما اعلن عن اسم المنظمة التى تحملت أعباء هذه المسؤولية التاريخية وهى «جبهة التحرير الوطنى» .

ولئن كان هناك من السياسيين من عارض — فى ذلك الحين — فى انشاب المعركة المسلحة ، فان التاريخ قد كشف بسرعة عن منطقية الثورة المسلحة بالنسبة لتلك الفترة من تاريخ الجزائر — اذ أن الكفاح السياسى كان قد استفرغ دوره ، بعد ان أصبح الشعور بالاستقلال والمطالبة به أمرا بديهيا لا ينازع فيه أحد ، وبعد ان سجلت اضخم محاولة استعمارية لمسخ شعب، فشلها الذريع فى تحقيق الفرنسة .

ذلك أن استعمارا مثل الاستعمار الذى منيت به الجزائر ، لم يكن ليتخلى عن أرضنا تحت ضغط الكفاح السياسى وحده ، كما أن الكفاح السياسى الذى سبق ١٩٥٤ ، لم يكن ليكون له معنى لو لم تعقبه الثورة المسلحة التى تعتبر هى الحلقة المنطقية الوحيدة بعد نجاح الكفاح السياسى فى بلورة الشعور الوطنى وفى احباط محاولات الفرنسة . ولا ادل على هذه الحقيقة من الازمة التى هزت الحركة السياسية بالجزائر قبل اندلاع الثورة : اذ أن استفراغ العمل السياسى السلمى لدوره التاريخى حكم على نفس العمل بالعقم بالنسبة لمهام المستقبل ، لكن انعدام وضوح الرؤية السياسية ، فى ذلك الحين ، عند كثير من السياسيين ، جعلهم لا يميزون الحد الذى ينتهى عنده دور العمل السياسى السلمى ، وجعلهم يتشبثون به ويؤمنون بجدواه، اعتمادا على نجاح دوره فى الماضى، غير منتبهين الى حقيقة التطور التاريخى، الذى يحكم على كل حركة بالعقم والجمود ، ان لم تعرف ، فى الابان ، كيف تميز مطالب العهد الجديد — الذى لايظهر فى وقته بنفس الوضوح الذى يبدو به للمؤرخ بعد سنوات — وكيف تطور مناهجها فى العمل ، وشعاراتها وخططها بما يتناسب مع مطالب المرحلة الجديدة .

وقد برهنت قيادة جبهة التحرير الـوطنى عن رؤية سياسية سليمـة ، عندما انذرت الشعب بأن المعركة ستكون شاقة ، لكن الانتصار مؤكد .

رد الفعـل الفرنسى

اما الحكومة الفرنسية فقد واجهت الوضعية الجديدة، بنفس العمى والقصور الذى واجهت بـه الوضعية السياسية فى الجزائر قبل ذلـك : فقد اختارت طريق الحرب حلا وحيدا ، وامـام فشل محاولات القوة الاولى ، ضاعفت الحكومة الفرنسية مـن عدد الجيش الفرنسى بالجزائر ، الذى ارتفع مـن ٥٦٥٠٠ الى ٤٠٠ ٨٣ فى فبرايـرى ١٩٥٥ ، وقد توهمت الحكومة الفرنسية ان تعيين شخص مثل سوستيل واليا عاما على الجزائر ، من شأنه أن يفتح الطريق لحل فرنسى ، لكن سوستيل، عندما تأكد من فشل القوة العسكرية، انصرف الى المناورة السياسية ، فأجرى اتصالات مع بعض السياسيين الذين اشتهروا بالمواقف « الاصلاحية » ، على امل ايجاد جبهة سياسية جديدة ، تتمتع بالعطف الفرنسى، وتصرف الجماهير الشعبية عن طريق الحل الجذرى الثـوري . والحلم الاساسى الذى كـان يراود سوستيل هو أن تتطور هـذه الجبهة السياسية الجديدة ، فى ظل العطف الفرنسى ، الى درجة تمكنها من ايجاد فرق مسلحة تعارض بالقوة فرق جيش التحرير الوطنى . لكن هـذه المناورة سرعان ما فشلت . وامام الفشل الذريع لهذه السياسة ، استدار سوستيل الى سياسة الفرنسة القديمة بعد أن أطلق عليها اسما جديدا هو « الادمـاج » .

جواب جبهة التحرير :

وفى نفس الوقت الذى كانت فيه السلطات الرسمية الفرنسية تدور فى حلقة السياسات القديمة الفاشلة ، اتخذت جبهة التحرير الوطنى مـبادرة هامـة كانت لها نتائـج حاسمة على تطور الثـورة ، تمثلت فى الاحـداث والهجومات التى نظمت بالشمـال القسنطينى فى ٢٠ أوت ١٩٥٥ ، وهى احداث دفعت من جهة ــ السياسة الفرنسية الى أن تكشف عـن حقيقتها عارية ، وهى التصميم على ابادة هذا الشعب ان رفض الحياة خارج الاطار الفرنسى . كما ان احداث ٢٠ أوت ١٩٥٥ قضت ــ من جهة أخرى ــ قضاء نهائيا على أحلام الحلـول العرجاء ، التى كانت تراود بعض السياسيـين الجزائريين ــ وهذا ما يفسر تلك الموجة من الانضمامات الى جبهة التحرير ، التى أعقبت ٢٠ أوت .

على أن تلك الانضمامات ان كانت تعنى ان معظم السياسيين التقليديين يئسوا من أن يشقوا لانفسهم طريقا على حساب الشعب وخارج اطار جبهة التحرير ، فان ذلك لا يعنى أنهم تخلوا نهائيا عن نظراتهم ومفاهيمهم القديمة، فهناك منهم من أرادوا بدخولهم فى اطار الجبهة ، أن يعملوا من داخل صفوف الجبهة لاحقاق الحلول التى فشلوا فى تحقيقها خارج اطار الجبهة ، وهذا احد العوامل التى تولدت عنها ازمة جبهة التحرير الداخلية ، لكن تلك الانضمامات ، ان كانت حملت الى جبهة التحرير جراثيم الازمة ، فقد كان من نتائجها أن اكدت التحام القاعدة الشعبية والتفافها حول جبهة التحرير ، واتساعها فى نفس الوقت ، مما اعطى دفعة جديدة للثورة ، وجعلها تنتقل الى المرحلة الشعبية الحقيقية ، اى الى المرحلة التى تساهم فيها الجماهير الشعبية على نطاق اوسع .

فشل الجمهورية الرابعة :

صادف هذا التطور الثورى فى الجزائر ، وقوع تغييرات شكلية فى السياسة الفرنسية ، تتمثل فى انتصار « الجبهة الجمهورية » فى انتخابات البرلمان الفرنسى مع مطلع عام ١٩٥٦ . وبادرت حكومة « الجبهة الجمهورية » برآسة غى موللى بتعيين الجنرال كاترو « وزيرا مقيما » في الجزائر . لكن فرنسيى الجزائر نظموا مظاهرة كبيرة أثناء زيارة غى موللى الى الجزائر فى ٦ فيفرى ١٩٥٦ ، تحصلوا بها على مرادهم : فقد ابعد الجنرال كاترو من ذلك المنصب ، وعين مكانه « لاكوست » وأعطيت لهم وعود وتطمينات أكدت عجز الجمهورية الفرنسية الرابعة عن مواجهة الموقف بالواقعية اللازمة ، كما انتزع غى موللى من المجلس الوطنى الفرنسى تصويتا يمنح سلطات خاصة واسعة الى لاكوست ، (١٢ مارس ١٩٥٦) .

وقد استغل لاكوست تلك السلطات الخاصة ، فى اعطاء الاولوية للحل العسكرى ، على امل القضاء علىالثورة المسلحة ، وسرعان ما تضخم عدد الجيش الفرنسى الذى اصبح يقارب النصف مليون .

لكن اعطاء السياسيين الفرنسيين الاولوية الى الحل العسكرى ، سرعان ما أسفر عن امساك العسكريين بزمام الامور السياسية فى الجزائر ، ودفعهم الى التفكير — بعد ذلك — فى الاستيلاء على مقاليد الحكم بفرنسا نفسها . وفى انتظار أن تنضج الوضعية لفائدة انقلاب عسكرى رجعى فى فرنسا ، شرع العسكريون — بتواطىء لاكوست — فى تنظيم عدة عمليات تهدف الى نسف كل مبادرة سياسية قد تفكر فيها باريس ، وتجعل دائما الكلمة الاخيرة لما يريده الجيش الفرنسى بالجزائر ، كما ظهر ذلك من خلال حادث اختطاف الطائرة .

وعندما صعب على الجيش الفرنسى أن يقتنع بهزيمته ويهضمها أعان على دفع حكومة غى موللى الى أن تساهم مع بريطانيا واسرائيل فى حادث العدوان على قناة السويس ، بعد أن أقنعها أن القضاء على النظام القائم فى مصر ، يعنى حرمان الثورة الجزائرية من المدد الخارجى .

تطور جيش التحرير

لكن التطور الذى حدث بعد ذلك أكد أن الثورة نابعة من الشعب ، الا ان الفرنسيين لم يسلموا بهذه الحقيقة البديهية ، وتوهموا أن قواعد الثورة فى تونس والمغرب هى التى مكنت الثورة من الاستمرار ، وأنه لولا تلك القواعد لاختنقت الثورة وصفيت ، وعلى هذا الاساس وضعت الخطوط المكهربة على الحدود لحرمان جيش التحرير من اتصالاته بالاسلحة الواردة من الخارج .

وقد كان جيش التحرير فى هذه المرحلة — سنة ١٩٥٦ — ١٩٥٧ — قد تطور على الاخص بعد مؤتمر الصومام (أوت ١٩٥٦) من جراء اتساع القاعدة الشعبية ، الى فرق كبيرة واجهت الجيش الفرنسى فى معارك هائلة مثل معركة الجرف الثانية (١٩٥٦) ومعركة كاتينا ... ومعركة جبل بوزقزة ، ومعارك جبال عمور (١٩٥٧) .وقد عمد الجيش الفرنسى وفرق الميليشيا الاروبية الى سلوك سياسة قمعية رهيبة ضد الجماهير الشعبية ، والى عزل الشعب عن جيش التحرير ، والى انشاء المناطق المحرمة ، على أمل خنق جيش التحرير بواسطة حرمانه من المدد البشرى ومن المجال الحيوى اللازم له . أما فى الميدان السياسى فقد منيت محاولة « القانون الاطارى » (سبتمبر ١٩٥٧) بفشل ذريع .

لكن التطور الدياليكتيكى للثورة حول المناطق المحرمة الى مراكز محصنة لجيش التحرير ، يتنقل فيها بحرية أكثر مما كان يفعل قبلا عندما كانت آهلة بالسكان ، وعوض أن يختنق جيش التحرير وسط هذه المناطق المحرمة ، تطور الى جيش نظامى حقيقى .

١٣ ماى ١٩٥٨ .

ومرة اخرى لم يهضم الجيش الفرنسى فشله فى الميدان ، لكن مرارته هذه المرة دفعته الى الانسياق وراء رؤوس المتطرفين الاروبيين نحو التمرد وقلب نظام الحكم فى باريس ، بعد أن هيأ الجو لذلك بحادث الاعتداء على ساقية سيدى يوسف ، مستغلا ما أثاره من ردود فعل خارجية (— ظهرت على الاخص فى قضية الوساطة الانكلوسكسونية —) فى اثارة الحمية العسكرية الفرنسية . ولم تجد الرجعية العسكرية الفرنسية فى صفوفها دماغا سياسيا ترشحه لقيادة الانقلاب ، فأعلنت اسم الجنرال دى غول وطلب به قائدا .

ميلاد الاستقلال

تميزت المرحلة الاولى من مراحل السياسة الديغولية ازاء الجزائر عن سياسة الجمهورية الرابعة ، بتنظيم معركة مزدوجة ضد جبهة التحرير الوطنى فى الداخل والخارج : ففى الميدان الداخلى تمثلت السياسة الديغولية فى تعبئة كل الطاقات العسكرية ضد جيش التحرير الوطنى ، فى نفس الوقت الذى تضاعفت فيه مراكز التجمع . وبلغت هذه السياسة أوجها مع برنامج شال الذى كان يهدف الى « تنظيف » المناطق التى يتمركز بها جيش التحرير من كل المجاهدين بواسطة تنظيم عمليات وهجومات برية وجوية منسقة ، تجند خلالها فرق عسكرية ضخمة لا تخرج من المنطقة الا بعد أن تتأكد من خلوها من جنود جيش التحرير .

وكان الحساب الذى اعتمده الجنرال شال يتمثل فى تركيز العملية على مستوى الوطن الجزائرى الى أن يتم القضاء على الثورة .

وفى الميدان الخارجى نشطت الديبلوماسية الفرنسية معتمدة على عرض « سلم الابطال » الذى قدمته فى شكل عرض تفاوضى ، حتى تظهر جبهة التحرير فى مظهر المتهرب من التفاوض . وبلغت هذه المناورة الديبلوماسية أوجها مع عرض تقرير المصير فى ١٦ سبتمبر ١٩٥٩ ، وفعلا فلم يكن فى امكان جبهة التحرير أن ترفض تقرير المصير دون أن تبدو فى مظهر المتعنت الذى لا يقبل بأى تفاوض ، فى حين أن تقرير المصير حسب العرض الديغولى كان مقيدا بتجزئة الجزائر ، لانه اراد فصل الصحراء عن الجزائر من جهة ، وبجريانه تحت رقابة الجيش الفرنسى من جهة ثانية .

أما رد فعل الثورة فقد تمثل ، فيما يتعلق ببرنامج شال العسكرى فى تجزئة فرق جيش التحرير الى وحدات خفيفة قليلة العدد ، تختفى عند مرور الموجات العسكرية الضخمة ، لتعود الى الظهور من جديد فور ذهاب الموجة ، بحيث كانت النتيجة تماما عكس ما أرادته القيادة العسكرية الفرنسية ، فقد أرادت تلك القيادة لبرنامج شال أن يكون بمثابة الزربية التى يطوى منها الجانب الذى يمر به الجيش الفرنسى الى أن تطوى نهائيا ، اى الى أن يتم القضاء على الثورة لكن الذى حدث هو أن الثورة تظهر بالضبط فى المكان الذى تعتبر القيادة الفرنسية انها فرغت من «تنظيفه» نهائيا . وكان هذا التكتيك هو الذى وجه ضربة قاضية الى برنامج شال .

وفيما يتعلق بالمناورة الديبلوماسية ، أعلنت جبهة التحرير الوطنى انها تقبل بتقرير المصير حسب مفهومه الدولى ، وطالبت بضمانات دوليةلاجرائه بشرط احترام وحدة الشعب ووحدة التراب الوطنى .

وبعد فشل مولان — التى لم تكن فى الاعتبار الفرنسى — الا محاولة لجس نبض الثورة ومدى استعداد جبهة التحرير لان تتخلى عن مبادئها الاساسية ، حاولت السياسة الفرنسية أن تبعث قوة ثالثة ، الا أن فشل هذه المحاولة جعل باريس تعتقد أن التفاوض هو الطريق الوحيد ، وابتدأت مفاوضات ايفيان فى ١٨ ماى ١٩٦١ ثم توقفت فى جويلية لتعقبها اتصالات سرية أعقبتها مفاوضات «لى روس» فى فيفرى ١٩٦٢ ثم مفاوضات ايفيان التى انتهت فى ١٨ مارس ١٩٦٢ بتوقيع اتفاق وقف القتال ، على أساس الاعتراف بسيادة الدولة الجزائرية على كامل الجزائر بما فيها الصحراء . وقد حاول الاستعماريون محاولة يائسة أخيرة ، عن طريق «منظمة الجيش السرى» لكن المنظمة الارهابية الاوربية سرعان ما انهارت نظرا لسيرها فى اتجاه معاكس لرياح التاريخ .

وجاء استفتاء أول جويلية ١٩٦٢ فتوجه الشعب بتصويت جماعى منقطع النظير عمل الكفاح المسلح ، وعزز الشرعية الثورية بالشرعية الدستورية وانفتح أخيرا باب العمل الخلاق حسب الاسس والمبادىء الاشتراكية التى استشعرت الجماهير الشعبية ضرورتها خلال اصطدامها بقوات الاستعمار فى أشد مظاهرة لصوقا بالحياة اليومية ، أى فى مختلف الميادين الاقتصادية.

تطور القمع والارهاب منذ ١٩٥٤

الحديث عن الثورة الجزائرية متشعب الاطراف . وكتاب مثل هذا لا يتسع للافاضة فى شرح تلك الاطراف كلها والحديث عنها جميعا ، لذلك أقتصرنا على الفصل السابق الذى يشتمل فى الحقيقة على بعض من رؤوس المسائل فقط ، التى يتطلب كل منها فصلا خاصا . لكنه بدا لنا أن هناك جانبا يستحق أن نفرده بالحديث ، نظرا لانه يكشف اكثر من أى جانب آخر بطولة الشعب الجزائرى خلال حرب التحرير الاخيرة ، من جهة ، ولانه يكشف من جهة اخرى عن حقيقة الاستعمار — أى استعمار — بما يقضى على كل الاوهام التى تتصور امكانية اشتمال الاستعمار على نوع الانسانية . هذا الجانب هو تطور القمع والارهاب الاوربي بالجزائر .

والواقع ان تحديد نوفمبر ١٩٥٤ كبداية للحديث عن تطور القمع ، لا يعنى أن القمع ابتدأ من ذلك التاريخ فقط ، ولكنه يعنى ان الكفاح المسلح أجبر الاستعمار على ابراز وجهه الحقيقى ، وفضح القمع الذى لم يعد فى

الامكان اخفاؤه . ولذلك انصرفت الحكومة الفرنسية ، منذ قيام الثورة الى تقنين القمع وتشريعه مثل قانون الطوارىء الــذى صودق عليه فى البرلمان الفرنسى يوم ٣ أفريل ١٩٥٥ ومثل قانون ١٦ مارس ١٩٥٦ الذى منح السلطات الخاصة الى لاكوست الخ ... فهذه المجموعة من القوانين كانت تهدف الى وضع كل ما يتصل بالنضال السياسى تحت طائلة قانون الجرائم العامة .

ولئن كان يوم ٣ افريل ١٩٥٥ هو بداية السير الرسمى «القانونى» فى هذا الطريق ، فان السلطات الفرنسية لم تنتظر صدور هذا القانون لكى تشرع فى القمع السافر المفضوح ، لان صدور القوانين انما جاء لتبرير حالة موجودة وجعلها «شرعية مطابقة للقانون» فالسلطة الحاكمة فى الجزائر انصرفت منذ اعلان الثورة ، الى القمع ، استجابة لمطالب أوروبيى الجزائر الذين نادوا منذ الايام الاولى لنوفمبر ١٩٥٤ بضرورة استعمال أقسى ما يمكن من الوان القمع لايقاف تيار الثورة .. ولم تكن هذه الدعوة خافتة او مقصورة على معابر المكاتب الرسمية ، ولكنها كانت صريحة على اعمدة «ليكو دالجى» وفى منبر «المجلس الجزائرى» اذن فالقوانين التى سنت بعد ذلك انما جاءت لـــ «تشريع» قمع موجود بالفعل تحقيقا لرغبـــة أوروبيى الجزائر ، الذين كانوا يشعرون اكثر من الجهاز الحاكم بباريس «بضرورة» القمع للقضاء على الثورة ، بوصفهم يستفيدون مباشرة من الاستعمـــار اكثر من زملائهم فى فرنسا ...

وهذه الحقيقة تكشف لنا عن خطأ فكرة طالما حاولت الصحف والدوائر الرسمية الفرنسية نشرها فى العالم ، وهى القائلة بوجود «صراع» بـــين الحكومة الفرنسية فى باريس ، وبين أوروبيى الجزائر وان باريس تستطيع ان تلعب دور الحكم بين اوروبيى الجزائر والشعب الجزائرى فالواقع يدل على انه لا وجود لهذا الصراع ، وان باريس كانت دائما تحقق مطـــالب أوروبيى الجزائر وتضع القانون فى خدمة الاعمال الوحشية التى لا ينتظرون صدور القانون كى يشرعوا فيها ، ان الواقع يكشف عن وجود تضامن متين فى الاساس بين أوروبيى الجزائر والجهاز الحاكم فى باريس ولا تستطيـــع الحكومات الفرنسية المتعاقبة خلال حرب التحرير الجزائرية أن تتخلص من ادانة التاريخ فى هذا المجال . صحيح ان هذا «الصراع» المزعوم بـــــين باريس وأوروبيى الجزائر ، اتخذ شكلا عنيفا فى عام ١٩٦١ ، وأن ذلك قد يعتبر «حجة كافية» فى التدليل على وجود هذا «الصراع» بالفعل ... لكن الحقيقة هى ان «العنف» الذى طبع حينذاك العلاقة بين باريس واوروبيى الجزائر ، والذى حل محل التضامن المطلق الذى كان موجودا من قبل — هذا العنف ليس مرتبطا ، بكيفية مباشرة ، مع كفاح الشعب الجزائرى ، اى ليس السبب فيه هو «تفهم» باريس لمطالب الشعب الجزائرى ، ومحاولة

فرض الحل الذى يساير هذا «التفهم» على أوروبيى الجزائر ولكنه مرتبط مباشرة باختلاف «المصالح» بين أوروبيى الجزائر وفرنسيى فرنسا وتفاقم هذا الاختلاف الى درجة التضاد ، تحت ضغط الكفاح الجزائرى وتطوره.

الخطوات الاولى للقمـــع

فى مقال ظهر فى جانفى ١٩٥٥ بصحيفة «ليكسبريس» تحدث فرانسوا موریاك عن القمع والتعذيب فى الجزائر ، تحت عنوان «المسألة» .

وهذا يؤكد أن القمع الصريح ابتدا فعلا فى الايام الاولى لنوفمبر ٥٤ ولئن كان من الممكن ، حصر عمليات القمع الاولى وتحميل مسؤوليتها لبعـــض «الافراد» فقط ، خرجوا عن «التعليمات الرسمية» فينبغى أن لا ننسى أن دائرة الكفاح المسلح لم تتسع فى ذلك الحين ، بكيفية تجعل حوادث القمع تظهر «تافهة» لا علاقة لها بالنظام الاستعمارى بأكمله على أن التدابــــير الرسمية التى اتخذت منذ أوائل ١٩٥٥ ـــ وقبل صدور قانون ٣ أفريـــل ١٩٥٥ – تنفى طابع «الصدفة» أو «الحادث » عمليات القمـع والتعذيب التى سجلت فى الاشهر الاولى من عمر الثورة .

فالحاكم الفرنسى «هيرتز» الذى نقل من الاغواط الى بسكرة فى بداية عام ١٩٥٥ ، والذى كلف بمهمة «قمع الثورة فى الاوراس والمناطق المتصلة بها فى الجنوب ، أصدر قانونا نشرته الصحف الفرنسية وابتهج به أوروبيو الجزائر ، هو قانون «العقوبات الجماعية» الذى يقضى بتحميل مسؤوليات التخريب الذى يلحق بالمؤسسات الحكومية والعسكرية الفرنسية على يد الفدائيين ، لكامل الدشرة أو الدوار أو القرية التى حدث بها أو بالقرب منها العمل الفدائى ، وتحميلها هذه المسؤولية يعنى أنها مطالبة ـــ بالاضافـــة الى العقاب الذى تتعرض له المجموعة أو بعض الافراد الذين يمثلونها ـــ بالغرم المالى الذ ىتحدد الادارة الفرنسية ـــ أى الخصم ـــ مبلغه وبـــ «اصلاح» ما خرب بواسطة اليد العاملة فيما يحتاج اصلاحه الى اليـــد العاملة غير المختصة .

ويمكن أن نعتبر المرحلة الاولى من مراحل القمع مشتملة على الفتـــرة الواقعة ما بين نوفمبر ١٩٥٤ وجويلية ١٩٥٥ ، وهى مرحلة «الخطوات الاولى» التى تتمثل فى البحث عن «انجع» وسائل القمع ، لايقاف الثورة ، وبما أن الاستعمار يشتمل فى أساسه على القمع «كحل وحيد» للمشاكل التى تواجهه ، فقد راح يستعرض وسائل الاضطهاد من التفتيشات والتحقيق فى هواية الاشخاص الى فرض المسؤولية الجماعية المادية ، الى التعذيب، لكن كل الوسائل استعملت فى هذه المرحلة على سبيل «التجربة» وفى شىء من الاحتشام مرجعه الى الخوف ممـــا قد تثيره الاساليب مـــن سخط فى مختلف اقسام الرأى العام العالمى .

أوت ١٩٥٥ : مرحلة جديدة

لكن أوت ١٩٥٥ شاهد مرحلة جديدة من مراحل القمع فى الجزائر ، هى الشروع فى أعمال القتل الجماعى بدون محاكمة ، وفى توسيع نطاق الاعمال الوحشية .

ورغم أن القمع استعمل منذ الايام الاولى للثورة ، فقد حاولت السلطات الفرنسية والصحافة الاستعمارية أن تربط وجود القمع والارهاب والتعذيب بيوم عشرين أوت ١٩٥٥ الذى تميز بالهجومات الواسعة التى كان الشمال القسنطينى مسرحا لها ، فى حد بنأن حوادث عشرين أوت لم تكن الا مناسبة استغلتها الادارة الفرنسية ، بقسميها المدنى والعسكرى ، لكى توسع نطاق القمع وتتوغل فى ميدانه .

وبالرغم من أن السلطات التنفيذية والتشريعية فى باريس ، أصدرت قوانين خاصة تجعل القمع أمرا مشروعا ، فان المباشرين للحرب من الجلادين وجدوا ان ذلك غير كاف ، وانه يجب أن تكون لهم الحرية التامة فى القتل والتخريب والتدمير ، وهنا وجد الجهاز العسكرى البوليسى المباشر للحرب أن بعض الحواجز القانونية التى تحد من تصرفاتهم القمعية يجب ان تزول .. ولذلك انصرفوا الى التفكير فى التخلص من النظام القائم كله ، الذى كان آنذاك يحتفظ ببعض المظاهر الشكلية الديموقراطية وبالشكل البرلمانى وقد كانت اول محاولة لتنظيم انقلاب تمردى ترجع الى أواخر ١٩٥٥ وأوائل ١٩٥٦ ، وكان الكوميسار ميرى احد المورطين فيها ، وقد اكتشفت هذه المؤامرة ، باكتشاف جثة الطالب الجزائرى زيدون بلقاسم وهنا نعثر على على حقيقة أخرى وهى مدى ارتباط القمع بالعقلية الفاشيستية المنصرية : فليس من محض الصدفة أن يكون دعاة الحرب الابادية هم مخططو الانقلابات التمردية الفاشيستية من الكوميسار ميرى ، الى الجنرال فور ، الى الكولونيل لاشوروا صاحب الكلمة الشهيرة : « لايمكن مواجهة الحرب الثورية بقانون نابليون » .

وقد كان يوم ٦ فيفرى ، حلقة متممة لمحاولة ميرى الانقلابية ، لكن المتطرفين ودعاة الحرب المطلقة ، وان كانوا فشلوا فى تحقيق هذا الانقلاب الفاشيستى الذى كان يعطيهم كامل الحرية لتنظيم عمليات الابادة ضد الشعب ، فانهم نجحوا فى تحقيق هذا الانقلاب داخل النظام القائم : اذ انهم توصلوا الى نفس النتيجة بأيدى غى موللى ولاكوست واشباههم من المسؤولين الذين رضوا بأن تتجه الحرب ذلك الاتجاه الابادى الذى ما انفكت تسير عليه منذ فيفرى ١٩٥٦ .

الحرب الابـــادية :

وعلى هذا الاساس نستطيع أن نقول ، ان أوائل ١٩٥٦ وشهر فيفرى على الاخص كان هو الفاصل الجديد الذى يمكن أن نؤرخ به المرحلة الثالثة من مراحل القمع وهى المرحلة التى وضعت اسس الحرب الابادية ، وتتمثل هذه الاسس فى العوامل التالية :

ـــ استخدام وحدات ضخمة من الجيش الفرنسى للتمكن من « خنق » كل جهات الجزائر ومناطقها الحربية .

ـــ خنق كل صوت يرتفع باستنكار اعمال القمع ، ولو لم يتعرض بالانتقاد الى أصل القمع ، وهو الحرب ، وقد تمثل ذلك فى طرد ثلاثة قساوسة من سوق هراس ، وفى ايقاف كل شخصية متحـــررة تجـــرؤ على النظـــر الى الجزائرى كانسان .

ـــ الشروع فى أسلوب الارض المحروقة : حرق الغابات بوصفها الملـــجأ المثالى للمجاهدين ، وحرق وتهديم قرى كاملة كما وقع فى بلاد القبائل وجهات الاوراس بصفة خاصة ، وحرق الاحياء العربية فى بعض البلدان الكبيرة كما وقع فى تبسة .

ـــ الشروع فى تنفيذ احكام الاعدام ، فى ١٩ جوان ١٩٥٦ باعدام الشهيدين زهانا وفرج ، وفى هذه الفترة « اهتـــدى » الجيش الفرنسى الى أساليب عديـــدة ـــ افتضحت من كثرة الاستعمال ـــ يخفى وراءها عمليات القتـــل المنظم مثل : القتل بعنوان الفرار ، وقد اشتهرت عمليات القتل فى البوادى باسم : عملية « حمل الحطب » .

ومع ذلك فإن العسكريين لم يكونوا راضين عن الوضع . انهم يريدون أن تكون لهم السلطات ، كل السلطات بدون استثنـــاء ، وأن تتخلى السلطـــة المدنية عن اختصاصاتها التى اصبحت منذ ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦ نظرية فـــقط . وقد تم للعسكريين ما ارداوا : ففى ٧ جانفى ١٩٥٧ اتخذ قرار بوضع كل مسؤوليات وسلطات البوليس المـــدنى تحت القيادة العسكرية ، وجعـــل الجنرال ماسو على راس هذا الجهاز العسكرى البوليسى الضخم ، ولئن كان من الممكن ، قبل اسناد هذه السلطات للجنرال ماسو ، معرفة الجلادين عن طريق بعض النزهاء من موظفى السلك المدنى ، فقد أصبح ذلك مستحيلا بعد ٧ جانفى : فالروح العسكرية تفرض تكتـــل الجيش ومجموع اطاراته وتكتمهم على بعضهم والقائد الوحيد الذى رفض الامتثال لاوامر ماسو التى تنص صراحة على استعمال وسائل الابادية ، وهو الجنرال دى بولارديير، اتيل من منصبه . وهذه المرحلة الجديدة التى يمكن تحديـــد بدايتها بـــ ٧

جانفى ١٩٥٧ يمكن ان يطلق عليها « مرحلة جنود المظلات » أو « الوسائل الكبرى » . فقد تلقى الجنرال ماسو « صكا أبيض » من باريس ، وترك بدوره كامل الحرية لمن تحت نظره . والملاحظ ان ماسو منح كل هذه السلطات — فى ٧ جانفى ١٩٥٧ كما قلنا — بعد أن اكتشفت الحكومة الفرنسية فى ٢٩ ديسمبر ١٩٥٦ محاولة لقلب نظام الحكم تهدف الى تمكين العسكريين من تسيير الحرب الابادية ، وهنا أيضا نجد نفس الظاهرة السابقة : وهى ان الحكومة الفرنسية حققت — رغم ايقاف الجنرال فور فى حصن لمدة ستين يوما — ما كان يطلبه فور فأعطت كامل السلطات لماسو وتبنت مطالب منظمى الانقلاب الذى يعد ناجحا ما دام قد حقق ما اراد .
وكانت هذه السلطات المطلقة التى منحت لماسو فرصة أمام العسكريين كى يطبقوا فى المدن ، وفى العاصمة ، ما كانوا يطبقونه فى البوادى من الوان القمع . ولم يتردد ماسو فى الاعلان عن ذلك ، كما تأكد من بيانه فى ١٤ جانفى (١٩٥٧) الذى هدد فيه بنهب السلع وتخريب المحلات التي تمتثل لتعليمات الجبهة فى الاضراب الاسبوعى .

والواقع أن ماسو كان «عنوانا» فقط . أما الجهاز المسير لقيادته فقد كان يتركب من «ضباط الهند — الصينى» مثل لشوروا وارغو وغودار وغارد الخ ... وهم ضباط أخذوا فى الهند — الصينى «قوالب» الحرب الثورية ، وتوهموا أن مجرد تقليدها فى الجزائر كاف فى القضاء على الثورة ، حتى ولو كانت هذه القوالب خالية من كل محتوى يجذب الجماهير . وتولدت عن هذه الفكرة عدة محاولات تتسم كلها بطابع الابادة والقضاء على الشخصية الجزائرية ماديا أو معنويا ، وابرز هذه المحاولات هى :

— تكوين منظمة «الجهاز العسكرى الخاص» تحت مسؤولية غودار ، وهى منظمة لا تخضع للقيادة الفرنسية العليا للجزائر ، ولكن للكولونيل غودار فقط باعتبارها منظمة خاصة مستقلة عن الجيش ، ولها ميزانية خاصة ووجود ذاتى مواز لوجود الجيش وليس مندمجا فيه . ولها فرع فى كل جهة من جهات الجزائر ، ومهمتها الرسمية «استغلال المعلومات التى يقع الحصول عليها من الثوار» أما عملها الحقيقى فهو «التعذيب» الذى تطور على يد هذه المنظمة الى «فن دقيق» يفوق كل ما تخيله ذهن الانسان القديم من الوان البطش والارهاب . ومن مبادىء هذه المنظمة «التعذيب مبدأ» اى أن كل من يلقى عليه القبض يعذب قبل أن يوجه اليه أى سؤال . ومن نتائج هذا «المبدأ» هو اضطرار الابرياء الى «الاعتراف» بأمور لا وجود لها فى الواقع ، فيتسببون فى القاء القبض على مجموعة أخرى من الابرياء الخ ..

— حذف جهاز الدفاع عن الذين يقدمون الى المحاكمة على قلتهم ، ولهذا الغرض القى القبض على كل المحامين الجزائريين وبعض المحامين الاروبيين الذين يقبلون عادة بالدفاع عن الوطنيين .

ـ التوغل فى سياسة الايقافات الجماعية الكبرى والمنتظمة التى أصبحت تسفر عما يقرب من ثلاثين الف سجين فى كل شهر . وهذه الايقافات تهدف فى نظر ضباط ماسو الى حرمان الثورة من «المـاء» الضرورى لحياتها أى السكان . وعلى هذا الاساس تعد المناطق المحرمة ومراكز التجمع امتدادا طبيعيا لهذه الايقافات .

ـ فرض سياسة «التجويع الجماعى» بضرب الحصار الاقتصـادى والمعاشى على سكان مناطق شاسعة ، كما حدث فى بلاد القبائل خلال ربيع ١٩٥٧ .

ـ تطبيق اسلوب التعذيب المعنوى فى المحتشدات . وهذا اللون من التعذيب يستهدف المثقفين بصفة خاصة . ويتلخص هذا الاسلوب فى حمل الوطنى المثقف عن التخلى عن فكرته ونزعته بالقاء «دروس» عليه فى «محاسن الاستعمار» و «الانجازات الفرنسية» ثم يطلب منه هو الوطنى ان يقوم بهذا الدور مع زملائه الموقوفين وان «يقنع» المعارضين بسداد هذا الرأى ، وهو أسلوب بارع لدفعه الى الوشاية بالوطنيين ، فاذا أجاب بأنه «لا يوجد هناك معارض» كلفت قيادة المحتشد بعض الاشخاص ليمثلوا دور المعارضين ، وكلف هو بشرح «انجازات فرنسا العظيمة» و «دحض حجج الثورة الجزائرية»

المفـقـودون

وفى هذه المرحلة اتخذت كل الوسائل القانونيـة اللازمة لتغطية فداحة القمع وفظائعه فصدرت التعليمات بملازمـة « السرية » فى تطبيق القمـع وتحسين وسائله . فالموقوف مثـلا لا تطلب السلطة العسكرية من السلطة المدنية احالته على المحتشد الا بعـد أن يتم تعذيبه ، وبعد أن تزول آثـار التعذيب . أما الذين يحملون آثارا لا تمحى من التعذيب فهم « مفقودون » .

هذه الزاوية « المفقودون » ظهرت فى الصحف خلال ١٩٥٧ . وقد تمكن ثلاثة محامين فى ظرف أيام قلائل ، طردوا على اثرها من الجزائـر (فى ١٤ أوت ١٩٥٩) من تسجيل ١٥٧ حالة من حالات المفقودين ـ ترجع معظمها الى فترة ١٩٥٧ هذه ، مع ملاحظة أن الـ ١٥٧ لا تعطى أيـة صورة ولو تقريبية عن العدد الحقيقى للمفقودين . فهذه الحالات سجلت فى ظرف أيام قلائل ، والمحامون كانوا يقيمون بنزل فخـم فى الحى الاوروبى من العاصمة بعيدا عن الاحياء العربية التى يسكن بها معظم عائلات المفقودين . . يضاف الى ذلك أن الذين تمكنوا من تقديـم حالات الفقد للمحامين المذكورين ، فى ظرف هذه الايام القليلة ، كانوا من بين العائلات المتوسطة الحال (معلمين، محامين ، أطباء ، عمال فنيين الـخ . .) أى العائلات التى تملك الوسائل

المعنوية والمادية للقيام بمساع لدى الاوساط الرسمية الفرنسية لسؤالها عن « المفقودين » (فكل هؤلاء الـ ١٥٧ يملك عائلاتهم النص الكامل للرسائل التى وجهوها للقيادة الفرنسية ونص الاجوبة التى بلغتهم) أما الطبقات الشعبية فهى لم تتمكن من اطلاع المحامين المذكورين على مفقوديها .

وحالات الفقد هذه تارة تعلن عنها بعد أن تتمكن العائلة من رؤية الاسير فى السجن أو «فيلا سوزينى» يعرج من التعذيب ، أو مضمومة يده الى رقبته، أو معصوب العينين لا يرى ، أو مخضب الوجه بالدماء ، أو مهشم الرأس الخ ... وتارة لا تعرف العائلة شيئا عن المفقود بعد اختطافه . وعن كل هذه الحالات تجيب السلطات الفرنسية بأنها «لا تعلم شيئا» أو بأن المفقود «أطلق سراحه فى تاريخ كذا» وان كان تاريخ اطلاق السراح يكون تارة سابقا لتاريخ القاء القبض ! كما وقع بالنسبة للسيد بشارا رشيد (تاجر من مواليد ١٩٣٥) الذى القى عليه القبض يوم ١١ جويلية ١٩٥٧ . لكن الجنرال سالان اكد فى رسالة مؤرخة يوم ١٠ اكتوبر ١٩٥٨ بأن الشخص المذكور «اطلق سراحه يوم ٦ ماى ١٩٥٧» وليست المسألة مجرد «خطأ» فى التاريخ كما يتبادر الى الذهن ، فالكولونيل «كروفارمون» المسؤول عن ناحية «الجزائر ــ الساحل» أجاب فى رسالة أخرى بعد مساع جديدة من العائلة بأن «التحقيق أثبت بأن الشخص المذكور وأخاه أطلق سراحهما فى ٦ ماى ١٩٥٧» !

وقد كثرت حالات الفقد فى هذا العام ، الى درجة ان الادارة الفرنسية أعدت مسبقا كميات ضخمة من الاوراق المطبوعة تعلن لعائلات المفقودين ان «التحقيق الذى اجرى لم يفد شيئا فى العثور على اى اثر للشخص المفقود»

تدريس «فنون» الابادة

رغم التسهيلات القانونية وغير القانونية التى وجدها العسكريون فى تنظيم الحرب الابادية ، فقد وجدوا أمام صمود الشعب واستمرار الكفاح المسلح ، ان ذلك غير كاف لذلك فكروا فى اقامة مدرسة عسكرية تتولى تدريس «فنون» الابادة للاطارات والضباط وضباط الصف حتى «ينصهروا» بمفعول نظريات «الحرب الثورية» التى خططها الضباط النفسيون الذين يحملون مركب هزائم الهند ــ الصينى وقناة السويس . وأقيمت هذه المدرسة فعلا واطلق عليها اسم «مدرسة جان دارك» (وهى تسمية لها مغزاها) فى مكان يحمل هذا الاسم قرب سكيكدة . وشرعت فى العمل يوم ١١ ماى ١٩٥٨ . ومن بين المبادىء التى «تتشرف» هذه المدرسة بتلقينها للضباط ، يوجد مبدأ «التعذيب النظيف» وهو الذى تتوفر فيه الشروط

التالية : ١ — ان لا يتم بمحضر الاطفال الصغار — ٢ — ان يكون التعذيب «انسانيا» أى يجب أن ينتهى بمجرد «اعتراف» الشخص المعذب — ٣ — ان لا يترك اثرا فى جسم المعذب يمكن أن يستغل فى فضح الجلادين . . . فان بقى الاثر بالرغم من ذلك ، فهناك «حالات الفقد» التى تسد هـذا «النقص» .

وفى هذه الفترة عمم استعمال النابالم لا فى حرق الغابات فقط ولكن حتى في المعارك الحربية مع جيش التحرير الوطنى .

القمع الشبيه بالرسمى

والى جانب هذا القمع الرسمى ، يجب أن نضع القمع الشبيه بالرسمى. وهـذا التقسيم لايعنى ان القمع الشبيه بالرسمى يختلف عن الاول من حيث الهدف ومن حيث الوحشية ، ولا يعنى انه مستقل عنه كل الاستقلال . ان التقسيم لا يعنى هنا الا اختلاف المصدر مصدر القمع . أما فى الواقع فان كلا القمعين ، أى اصحابهما ، يتعاونان على اضطهاد الجزائرى واغتياله ، ويتبادلان المعلومات والتجارب . بل ان تطور القمع الشبيه بالرسمى كان يسير فى اتجاه مواز من حيث الفظاعة والانتشار ، للقمع الرسمى .

لكننا رأينا أن نفرده بالحديث لنتمكن من دحض شبهة طالما انطلت على كثير من الملاحظين وأقسام الرأى العام فى أروبا وامريكا على الاخص ، وفى بعض جهات آسيا .

فالصحافة الاستعمارية ، سواء منها الصادرة فى فرنسا او الجزائر ، والصحافة الموالية للاستعمار فى ايطاليا والمانيا الغربية وامريكا تطلق على هذا اللون من القمع اسم «الارهاب المضاد» ، وهى تسمية مقصودة للمغالطة والتضليل ، انها تهدف الى ايهام الراى العام العالمى ان القمع المدنى الاروبى ، ليس متولدا عن الاستعمار ، وليس نتيجة حتمية من نتائج الوجود الفرنسى المفروض على الجزائر بالقوة ، انها تسمية ترمى الى اقناع الراى العام فى فرنسا وفى «العالم المتحضر» بأنه رد فعل «الارهاب» وهو الاسم الذى يطلقه الاروبيون على العمل الفدائى فى المدن ، فالتسمية نفسها تحمل عنصر التبرير وترمى الى تقديمه فى شكل «دفاع شرعى ذاتى» يقوم به الاروبيون تجاه العمليات الفدائية التى تستهدفهم .

فى حين ان هذا القمع الشبيه بالرسمى عنصر مكمل للقمع الاستعمارى ليس له ادنى ارتباط سببى بعمل الفداء ، ويكفى لكى نبرر هذه الحقيقة ،

التذكير بتاريخ أول عملية قمعية أروبية ضد الجزائريين ان أول عملية من هذا النوع فى العاصمة وقعت قبل أن تظهر العمليات الفدائية فى العاصمة بمدة ، ففى شهر مارس ١٩٥٦ فجر «فيشوز» قنبلة فى نهج يقع بحى القصبة ، قنبلة ذهب ضحيتها ١٥ قتيلا وأربعون جريحا .. قنبلة لم تكن تقصد الى قتل شخص بذاته ، ولكنها كانت تهدف الى قتل اية مجموعة من الجزائريين بوصفهم ينتمون الى جنس يجب التخلص منه وهذا هو نفس الاساس الذى قامت عليه عمليات القمع فى اروبا والمغرب العربى التى كانت امتدادا طبيعيا للقمع فى الجزائر ، والتى كانت تهدف الى اغتيال الجزائريين أينما كانوا فى فرنسا أو المانيا او ايطاليا او سويسرا .. وسواء كانت المنظمات الارهابية الاروبية فى الخارج تحمل اسم «اليد الحمراء» او غيرها فانها كلها متفرعة عن أصل واحد هو الاستعمار وايديولوجية واحدة هى الفاشستية ، فالاساس الايديولوجى الذى قامت عليه هذه العملية لا يختلف فى شىء عن الاساس الذى يعتمده ضباط الجيش الفرنسى فى تنظيم الابادة المطلقة ، وهذه الحقيقة لم تغب عن المسؤولين عن «أمن» السكان فى الجزائر ، لذلك لم يلق القبض على ــ ميشال فيشوز ــ آنذاك مع أنه كان معروفا بهذه العملية ، وانما القى عليه القبض بعد مساهمته فى عملية البازوكا التى كانت تهدف الى اغتيال سالان ، والتى ذهب ضحيتها الكومندان روديبى مدير مكتبه ، أما زملاء فيشوز فى تفجير القصبة فقد بقوا احرارا ، ــ على أن فيشوز هذا تمكن فى هذه الايام من الفرار بفضل تواطىء «جهاز الامن» مع المنظمة السرية ــ

اذن فليس هناك أدنى ارتباط بين القمع الشبيه بالرسمي وبين عمل الفداء .

لهذا ليس من الغرابة فى شىء أن نجد القمع الشبيه بالرسمى يسجل تقريبا نفس التطور الذى مر به القمع الرسمى ، فمن المحاولات التفجيرية فى ١٩٥٦ الى حملات الاختطاف والتعذيب فى فيلا سوزينى فى ١٩٥٧ الى البلاستيك ومظاهرات النهش فى ١٩٦١ نجد نفس الخط التصاعدى الذى يسجل اشتداد القمع وضرواته .

كما أن التعاون بين كلا القمعين ما انفك موجودا منذ ١٩٥٦ ، فحادث فيشوز يسجل التواطؤ بين الرسميين والارهابيين المدنيين .. ومظاهرات النهش فى ديسمبر ١٩٥٦ وفى جوان ١٩٥٧ التى سجلت عدة مشاهد عنصرية بلغت درجة قصوى من الفظاعة ، مثل احراق الجزائريين والقذف بهم من اعلى داخل سياراتهم أو بمفردهم الخ .. ثم مظاهرات النهش فى الجزائر ووهران وعنابة خلال هذه السنة ، وقنابل البلاستيك ــ كل هذه العمليات والفظائع التي لم يلق من اجلها القبض ولم يسلط بسببها اي عقاب

على منظميها ومرتكبيها يدل بوضوح على تواطىء القمعين وتكميلهما لبعضهما . بل ان ميلاد المنظمة السرية لم يكن الا نتيجة لالتقاء القمعين بعد تطورهما خلال خمس سنوات من ١٩٥٦ لان المنظمة السرية عبارة من اندماج الاطارات العسكرية التى كانت تعمل داخل جهاز غودار، «الجهاز الحربى الخاص» وعناصر المتطرفين الاوروبيين الذين ما انفكوا يسيرون الارهاب الشبيه بالرسمي منذ ١٩٥٦ وهذا الالتقاء يكشف عن زيف التسمية «الارهاب المضاد» ويضع هذا اللون من القمع فى اطاره الحقيقى وهو الاطار الاستعمارى الذى ما انفك من ١٨٣٠ يحمل داخله بذور القمع بنوعيه .

منظمة الجيش السرى :

أما «منظمة الجيش السرى» فقد ظهرت بهذه التسمية ، واشتهرت بالاحرف الاولى من كلمة O.A.S. أثر مظاهرات ديسمبر ١٩٦٠ .

ففى يوم ٩ ديسمبر ١٩٦٠ شرع المتطرفون الاوربيون فى تنظيم مظاهرات ضخمة تهدف الى افساد هدف زيارة الجنرال دى غول الى الجزائر وحمله على التراجع فى مخططه أو تهيئة الظروف لانقلاب عسكرى رجعى . ويتمثل مخطط المتطرفين فى اعادة محاولة ١٣ ماى ١٩٥٨ من جهة ، وفى اثارة حوادث واصطدامات دموية من جهة أخرى تحمل الجيش الفرنسى على أن يتدخل بالقوة ليمسك بزمام الحكم ، بعنوان الحيلولة دون وقوع الاصطدام بين المجموعتين . وتتميز محاولة المتطرفين هذه المرة عنمحاولة ١٣ ماى ، ومن محاولة السدود «جانفى ١٩٦٠» بأنها نظمت بتفاهم بين مختلف الرؤوس المتطرفة التى تجمعت فى حركة تحمل اسم «جبهة الجزائر الفرنسية» .

وانطلقت فرق «جبهة الجزائر الفرنسية» ترغم التجار على اغلاق أبواب محلاتهم فى الجزائر العاصمة ، وقد بدت العاصمة من خلال المتاجر والمحلات المغلقة فى مظهر من يأتمر بأوامر «جبهة الجزائر الفرنسية» .

وفى الوقت الذى كان فيه المتطرفون الاوربيون «يتمتعون» بمشاهدة تحقيق المرحلة الاولى لمخططهم ، اذ انطلقت الجماهير الشعبية الجزائرية فى مظاهرات ضخمة تنظمت تلقائيا واحبطت المخطط الاوربى من اساسه . ذلك ان القوات الفرنسية المكلفة بالسهر على «الامن» وجدت نفسها امام مظاهرات ضخمة سلمية تنادى باستقلال الجزائر ، وقد حاول بعض المسؤولين عن «الامن» الفرنسى ان يطلقوا النار على افواج المتظاهرين ، على أمل ان يشتت ذلك المتظاهرين ويرهبهم ، لكن الجماهير الجزائرية لم



قصـر الحـكـومـة

يرهبها الرصاص ، وواصلت زحفها فى كل حى من العاصمة وفي أهم المدن فأجبرت القوات الفرنسية على التقهقر . وهنا وجدت السلطة الفرنسية انها أمام خيارين : أن تغرق المتظاهرين فى انهار من الدماء ، باعتبار أن فكرة الاستقلال التى ينادون بها «جريمة» فى نظر الاستعمار الفرنسى ، أو أن تقاوم المتظاهرين بأسلوب اقل حدة نظرا الى ان فكرة الاستقلال أصبحت حتمية ، على الرغم من عدم استعداد باريس لهضمها فى الحال . واختارت السلطة الفرنسية ، بايعاز من رئيس الجمهورية الفرنسية ، الطريق الثانى وتولد عن هذا الاختيار تناقض أساسى كان أحد العوامل المباشرة التى اعانت ، نفسيا ، على تكوين «منظمة الجيش السرى» يتمثل هذا التناقض فى أن المهادنة النسبية للجماهير المتظاهرة لا تتفق مع الاستمرار فى محاربة فرق جيش التحرير الوطنى . وهذا هو التناقض الذى لم يهضمه عدة ضباط فرنسيين ، فكانوا مستعدين نفسيا للانخراط فى كل حركة تدعو الى تعميم الحرب ضد المدنيين الجزائريين باعتبار أن الحرب ضد الاستقلال لا يمكن ان تتجزأ .

لهذا يبدو ان أقرب الاحتمالات الى الصدق ، فيما يتعلق بتحديد الفترة التى ولدت فيها منظمة الجيش السرى ، هو القول بأنها توجد بين ديسمبر ١٩٦٠ وجانفى ١٩٦١ ، فخلال هذه الفترة ، وبعد حل منظمة «جبهة الجزائر الفرنسية» سجلت عدة تنقلات بين اسبانيا والجزائر ، انتهت الى اتفاق عدة رؤوس متطرفة استعمارية على تكوين حركة سرية تحمل اسم «منظمة الجيش السرى» التى ظهرت أول مناشير تحمل اسمها بالجزائر فيما بين ٦ و ٨ فيفرى ١٩٦١ .

على أساس هذا التحليل يمكن القول بأن مظاهرات ١١ ديسمبر ١٩٦٠ التى قادتها الجماهير الشعبية الجزائرية ، كانت حاسمة من ثلاث نواح :

الناحية الاولى : انها أقامت الدليل للحكومة الفرنسية على انه لا توجد اية قوة سياسية بالجزائر تتمتع بثقة السكان المسلمين ، ما عدا جبهة التحرير الوطنى . والى هذه الفترة يرجع بعض الباحثين فى السياسة الفرنسية عزم الجنرال دى غول على انهاء الحرب عن طريق التفاوض مع جبهة التحرير الوطنى على أساس الاستقلال .

الناحية الثانية ـ ان مظاهرات ١١ ديسمبر كانت حاسمة فى دفع الاستعماريين الى الظهور بمظهرهم الحقيقى ، الذى بدا من خلال عمليات «منظمة الجيش السرى» .

الناحية الثالثة : تتمثل فى العبرة التى استخلصتها الاطارات العسكرية الفرنسية من مظاهرات ١١ ديسمبر ، فالضباط الفرنسيون أصبحوا

مقتنعين على اختلاف مشاربهم ان كل مظاهرة ينظمها الاوربيون فى المستقبل ستنهض ضدها مظاهرات أضخم ينظمها الجزائريون . لكن العبرة المستخلصة من هذه الملاحظة التى يتفق عليها الجميع تختلف ، فالضباط الفرنسيون المناهضون لفكرة استقلال الجزائر ، أصبحوا يؤمنون أنه من العبث ، والحالة هذه ، الاعتماد على المظاهرات الاوربية لعرقلة ومناهضة التدابير السياسية التى تتخذها باريس والتى لا تنسجم مع اتجاه «الجزائر الفرنسية» واستخلصوا من ذلك أن كل مقاومة لتدابير باريس لا يمكن ان تكون الا مقاومة عسكرية صرفة . والضباط الذين استخلصوا هذه العبرة هم الذين نظموا انقلاب ٢٢ أفريل ١٩٦١ وانضموا اليه . وهناك قسم آخر من الضباط ، وهم الاوفر عددا ، استخلصوا من مظاهرات ١١ ديسمبر ، عبث كل محاولة تهدف الى جذب الجزائريين نحو فكرة «الجزائر الفرنسية» وانتهوا من ذلك الى الايمان بفشل كل محاولة تعاكس السير فى اتجاه الاستقلال .

وقد بادر العسكريون الفرنسيون الذين اقتنعوا بضرورة تنظيم انقلاب عسكرى فى الجزائر ، يمتد بعد ذلك الى فرنسا — بادروا بتحقيق فكرتهم التى تجسمت فى محاولة ٢٢ أفريل ١٩٦١ التى كان على رأسها أربع جنرالات : زيللير ، شال ، سالان ، جوهو .

وتدل الطريقة التى نظم بها العسكريون محاولتهم تلك على أنهم كانوا متخوفين من الشخصيات الاوربية المدنية ، ولذلك لم يطلع رؤوس «منظمة الجيش السرى» على موعد الانقلاب ، الا فى يوم ٢٠ افريل ولذلك كانت مساهمة «منظمة الجيش السرى» فى محاولة ٢٢ أفريل مساهمة محدودة فى بعض العمليات الجزئية ، أما قيادة العمليات فقد رفض «شال» مساهمتهم فيها .

وقد كان فشل هذه المحاولة ، ذا اثر كبير فى تطور نفسية الاوربين .. فأوربيو الجزائر قبل ٢٢ افريل ١٩٦١ كانوا قد وصلوا الى نوع من اليأس من الاحتفاظ «بالجزائر الفرنسية» فجاءت محاولة ٢٢ افريل فأضرمت عندهم شعلة الامل ، وبدت لهم المحاولة فى شكل «معجزة» جاءتهم هدية من السماء فى وقت تسرب فيه اليأس الى نفوسهم . لكن فشل تلك «المعجزة» حطم نهائيا معنوياتهم . واعاد الى نفوسهم اليأس اشد مما كان واكثر تمكنا ، وعلى هذا الاساس يمكن القول بأن الفترة التى أعقبت ٢٢ افريل كانت هى أظلم فترة بالنسبة لاروبيى الجزائر قبل فترة ايقاف القتال .

وكان هذا الوضع يمثل ظرفا مناسبا لاتفاق باريس مع الحكومة الجزائرية المؤقتة على وقف القتال على أساس الاستقلال الكامل . ولو

أن باريس أقدمت على الاتفاق في ذلك الظرف ، أي في مفاوضات ايفيسان الاولى ، لكانت «منظمة الجيش السرى» قد انهارت قبل أن تنتظم بصفة جدية ، ولتم الاعلان عن ايقاف القتال في جو آخر غير جو الارهاب . لكن باريس تركت هذه الفرصة تضيع دون أن تستفيد منها لفائدة السلم ، لان باريس رفضت في تلك المرحلة من المفاوضات التسليم بسيادة الجزائر على الصحراء .

وفعلا فقد كانت تلك الفترة تتسم بطابع التردد والخوف في صفوف العناصر التي تشكل قيادة « منظمة الجيش السرى » . لكن تردد باريس من جهة ، وقضية بنزرت من جهة أخرى ، بعث الامل في صفوف العناصر الاروبية المتطرفة وقرب الشقة بين المدنيين منهم والعسكريين ، لان العدوان على بنزرت ، اعتبره بعض قادة منظمة الجيش السرى ، بمثابة نهاية وفشل للسياسة الديغولية التي كانت تتمثل في الاعتراف باستقلال أغلب المستعمرات الفرنسية . والعبرة التي استخلصها المتمردون الاروبيون من ذلك ، هي أن معظم الاطارات العسكرية ستتخلى عن تأييد السياسة الديغولية ، وستميل الى تأييد الاتجاه اليميني الرجعي ، ولذلك وقعت عدة اتصالات بين رؤوس المتمردين ، في الفترة ما بين ٢٠ و ٣٠ جويلية ١٩٦١ ، تهدف الى خلق جو سياسي بفرنسا معارض للجنرال دي غول ، لكن هذه المحاولة — التي تمثلها رسالة سالان الى البرلمانيين الفرنسيين — فشلت ، لذلك اتجهت المنظمة الارهابية الى العمل المباشر ، مدفوعة الى ذلك بنوع من التقليد الاعمى لاساليب جبهة التحرير : فما دامت جبهة التحرير قد فرضت نفسها كممثلة للشعب الجزائري بالاعتماد على الشعب ، فلماذا لا تنجح منظمة الجيش السرى ، في فرض نفسها كممثلة لاروبيي الجزائر بواسطة الاعتماد على أروبيي الجزائر ، والى هذه الفترة يمكن أن ترجع نشوء فكرة دعمها عند الاروبيين شعورهم — بعد مفاوضات ايفيان الاولى — أنهم مهددون بأن يعيشوا فوق أرض أجنبية عنهم ، لهذا فيجب أن يحتضنوا منظمة الجيش السرى حتى تضمن لهم التقسيم وتضمن لهم اقتطاع جزء من الجزائر لهم يظل فرنسيا . ويعتبر سوزيني — ذو الافكار النازية الصريحة — هو أكثر قادة المنظمة الارهابية تمسكا بفكرة التقسيم .

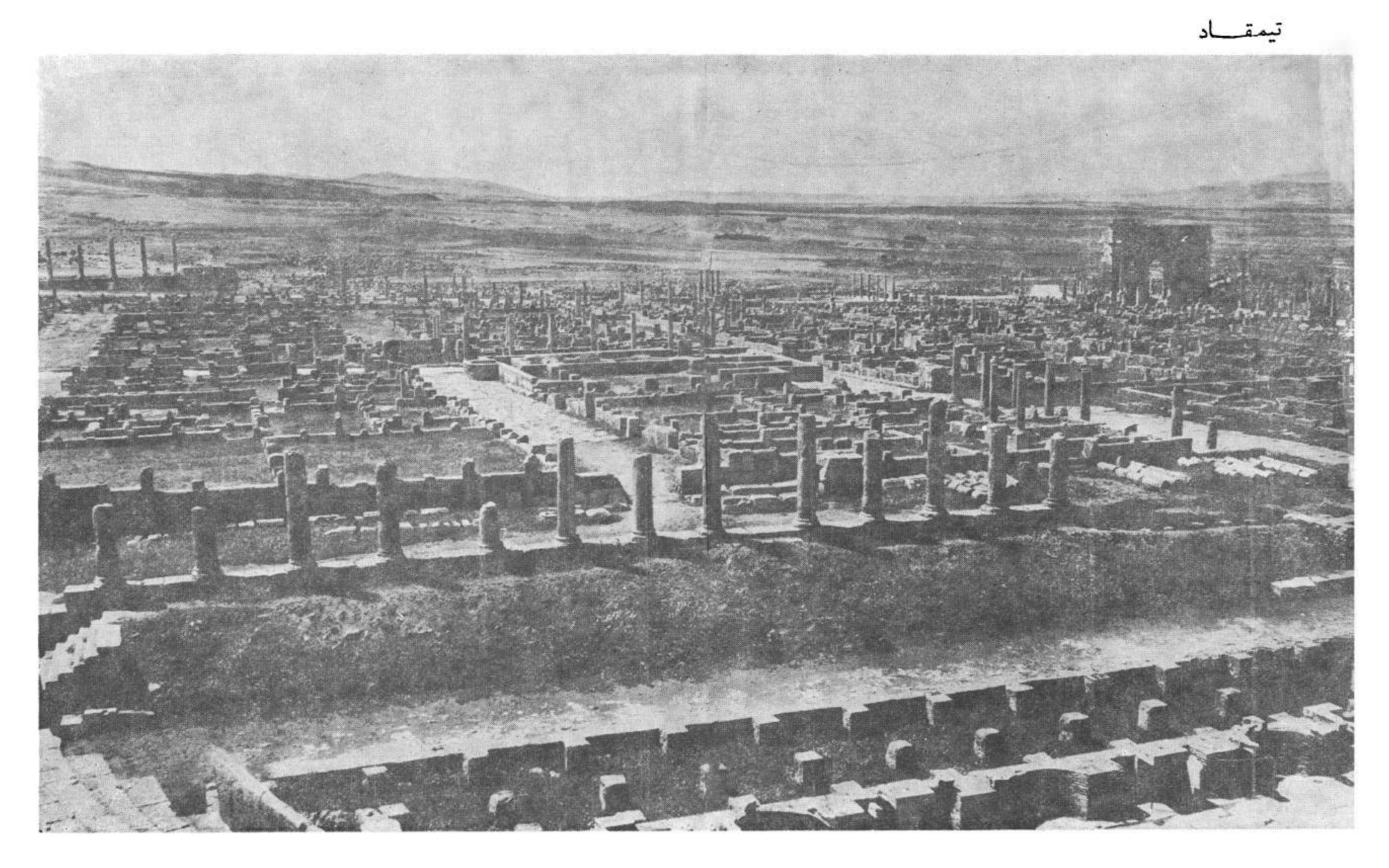
وعلى هذا الاساس اتجهوا الى العمل على ضمان قواعد تكون خالصة لهم ، وبدأت عمليات الاغتيال الجماعي للجزائريين لحملهم على الجلاء على المناطق الاروبية في العاصمة وفي وهران ، وعرفت العاصمة ووهران على الاخص بعد اعلان وقف القتال احلك أيام حياتهما تحت الاستعمار ...

الا أن منظمة الجيش السرى التي أرادت تقليد جبهة وجيش التحرير الوطني ، بأن تعيش وسط الاروبيين مثل السمك في الماء ، ما لبثت أن وجدت نفسها في «الشائح» لان الاروبيين شرعوا في الالتحاق بفرنسا جماعات

جماعات رغم منع المنظمة الارهابية لكل سفر يقــع بدون اذنها .. ونضب الماء واختــنق السمك وقضى على الارهاب الاروبى فى الجزائــر ، وراحت الجزائر تحتفل بميلاد الاستقلال فى مواكب قل أن سجل التاريخ لها مثيلا .

والخلاصة أن تجربة الجزائر ، برهنت على أن القمع مرتبط ارتباطا حتميا بالاستعمار الذى هو فى أساسه قمع مستمر — وهذه الحقيقة تبــرز خطأ الذين ركزوا نشاطهم ضد « القمع » فقــط ، دون أن يمددوا هذا النشاط الى مناهضة الاحتلال الاستعمارى والحرب المتولدة عنه من الاساس .. ومن هنا لم ينجح هؤلاء الا فى شىء واحد ، هو تعويد الراى العام على هذا القمع من جهة ، وحمــل الاستعمار على تحسين وسائل « الدفاعيــة » وتكييفها ضد محاولات التشهير ، وهكذا نجــد أن الاستعماريين الفرنسيين كانوا أكثر منطقية مع أنفسهم من اليساريين ، ان الاستعماريين كلفوا بمهمة القضاء على الثــورة ، وعندما وجدوا أنهــا متأصلة فى قلب كل جزائرى ، أرادوا أن يقضوا على كل قلب يخفق بها ، أى على كامل الشعب .. أمــا اليساريون الفرنسيون فهم لــم يفهموا هذا الارتبــاط الحتمى بين القمــع والاستعمار والحرب الاحتلالية ، وتوهموا أن فى الامكان وقف القمع مــع استمرار الحرب التى تصبح حينئذ حربا « نظيفة » ، بل ان اليساريين لــم يفهموا — الا مؤخرا — حتميــة الارتباط بين القمع والحرب من جهة وبين اضطهاد الشعب الفرنسى واستقرار الفاشية فى فرنسا من جهة أخرى .

تيمقـاد



الفهرس

القسم الأول

الجزائر قبل الإسلام

هذه هي الجزائر ص 9

الإمكانيات الطبيعية

الجزائر القديمة ص 12

المعتقد ـ الحضارة ـ تأسيس قرطاجنة ـ الحروب البونيقية

توحيد نوميديا ص 20

ماصينيصا ـ التطور الاقتصادي ـ تنظيم الدولة الملك المقدس

الاحتلال الروماني ومقاومة يوغرطا ص 27

خطة روما في تجزئة البلاد ـ إبعاد يوغرطا ـ الطريق إلى الحكم
تدخل روما ـ الحرب ضد روما ـ سلاح الخيانة ـ الاستيلاء على
الجزائر ـ طبيعة الاحتلال الروماني ـ التنظيم الإداري

الثورات الشعبية ص 37

المظاهر الإيديولوجية للسخط الشعبي

الاحتلال الوندالي والبيزنطي والمقاومة الشعبية ص 40

نظام الوندال ـ انتهاء دولة الوندال ـ البيزنطيون ـ الثورات الشعبية

القسم الثاني

الحكم المركزي الإسلامي فى المغرب العربي

ظهور الاسلام وآثاره الحضارية ص 47

رسالة الاسلام التحريرية . في المغرب العربي ص 52

العرب في الشمـال الإفريقى ـ العرب في الجـزائر

القسم الثالث

الحكم اللامركزي الإسلامي فى المغرب العربي

الدولة الرستمية أو الحكم الشعبي ص 59

تأسيس الدولة ـ الحياة الثقافية على عهد الرستميين

الفاطميون أو دولة صنهاجة المزدهرة ص 65

الدولة الإدريسية ـ ظهور عبيد الله المهدي ـ الجزائريين العبيديين والأمويين ـ الجزائر الصنهاجية

الحماديون واستمرار عهد الاستقرار ص 68

الحضارة والعمران ـ ضعف الدولة ـ الحيـاة الادبـية بالجزائر على عهد الحماديين

المرابطون أو فترة الملثمين ص 73

الموحدون بناة المغرب العربي ص 75

من أشياخ الموحدين إلى المؤمنيين ـ توحيد المغرب العربي ـ ثورة ابن غانية ـ الحياة الثقافية على عهد المرابطين والموحدين ـ الشعراء والكتاب ـ الحضارة على عهد الموحدين

القسم الرابع

الدولة الحفصية وبذور الانحطاط ص 89

تأسيس الدولة ـ التطور الاجتماعي ـ نظام الدولة

بنو مرين بالجزائر ص 99

الدولة الزيانية بين نارين ص 101

يغمراسن بن وزيان ـ المملكة ـ الحضارة ـ الحركة الفكرية

عصر ابن خلدون ص 108

المقدمة

من الحروب الصليبية إلى الغزو التجاري ص 113

القسم الخامس

الحكم التركي وعصر الجمود

عروج وخير الدين ص 117

خطة خير الدين ـ هزيمة شارلكان ـ الجزائر في عهد الباي لارباي

الفئة الحاكمة ممن تتكون ص 123

توحيد الجزائر ـ عهد الباشوات ـ حكم الأغوات ـ نظام الدايات ـ استرجاع وهران ومرسى الكبير .

الثورة الشعبية ضد الاتراك ص 130

مغزى الانتقال إلى القصبة ص 132

أوروبا تهدد الجزائر ص 134

التنظيم الاداري ص 136

طبيعة النظام الاداري التركي

لأسطول الجزائري ص 141

القسم السادس

من الاحتلال الفرنسى إلى الاستقلال الوطني

كيف كانت الجزائر ص 147

التجارة والصناعة ـ السكان ـ الحياة الاجتماعية والثقافية

الغزو الفرنسي : أسبابه ص 159

حادث المروحة ـ بدء العمليات ـ احترام المعاهدات

المقاومـــة الشعبـــية ص 173

x **ظهور الامـــير عبد القادر ص 178** — البيعة معاهدة دي ميشيل

بنـــاء الدولة ص 186

تنظيم الجيش ـ النظام القضائي والثقـــافي ـ نظام الاعيـــاد

الصناعة والاقتصاد ـ دستور وقوانين

x **بيجو والأمـــير عبد القادر ص 191**

معاهدة تافنا ـ المعركة السياسيـــة ـ استئـناف الحـــرب

المرحلة الثانيـــة للحرب ـ المرحلة الثالثة

x **استمرار المقاومة بعد عبد القادر ص 205**

ثـــورة 1871 ص 209 — المقاومة في الصحـــراء

نظرة عامة في مراحل الاحتـــلال ص 214

جس النبض ـ امتـــلاك الاراضى ـ تضخم عـــدد الاوربـــيين

نفسيةالاروبيين فى الجزائرـ قضية التعليم ـ الاصلاحات الاجتماعية

النهضة الوطنية ص 221 — مأساة ٨مـــاي ـ القوات الشعبـــية

ثـورة أول نوفمبر الخـــالدة ص 229

رد الفعل الفرنسى ـجواب جبهة التحرير ـ فشل الجمهورية الرابعة

تطور جيش التحرير ـ ١٣ ماي ١٩٥٨

ميـــلاد الاستـقـلال ص 233

تطور القمع والارهاب منـذ ١٩٥٤ ـ الخطوات الاولى للقمع ـ

أوت١٩٥٥ : مرحلة جديدة ـ الحرب الابادية ـالمفقودون ـتدريس

« فنـون » الابادة ـ القمع الشبيه بالرسمى ـمنظمة الجيش السري

هذا كتاب

يدرس تاريخ الجزائر السياسى والاجتماعى دراسة علمية مجردة تخلصت من مركبات النقص ومركبات التعاظم معا .

كتبها جزائريون بأفكار جزائرية وروح جزائرية لا تتنكر للماضى ولا تنغلق عن المستقبل .

يدرس ماضى الجزائر القديم بروح قومية جزائرية وماضيها العربى الاسلامى بروح مشبعة بتحرر الاسلام ونبل العروبة ومقومات الشخصية الجزائرية الخاصة .

ويدرس تاريخها الحديث بما يزخر من يقظة شعبية واطوار غنية بتفاعلات الماضى مع الحاضر والقومية الوطنية مع التيارات العالمية .

أفكار واضحة - ولغة مبسطة

في متناول المثقف المتوسط دون أن يمجها المثقف المتخصص.

مطبعة البعث بقسنطينة

https://albordj.blogspot.com